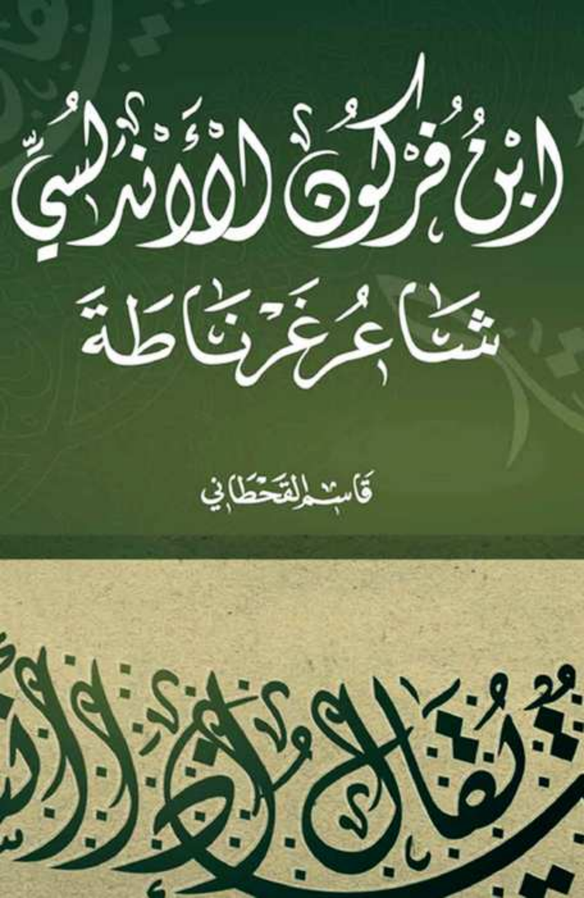

ابن فركون الأندلسي
شاعر غرناطة
قاسم القحطاني

ابن فُركون الأندلسيّ

شاعر غرناطة

قاسم القحطانيّ

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر
القحطاني، قاسم

ابن فركون الأندلسي: شاعر غرناطة / قاسم القحطاني. - ط 1 - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث،
دار الكتب الوطنية، 2009
ص ؛ سم
يشتمل على مراجع ببليوجرافية (ص [illegible]) وملاحق
ت د م ك 978-9948-01-304-4
1 - ابن فركون، أبو الحسين أحمد بن سليمان، ت 781 هـ 2 - الشعر العربي - الأندلس - تاريخ ونقد. أ - العنوان

LC PJ7836.F37Q28 2009



الطبعة الأولى 1430هـ 2009م

صورة الغلاف: [illegible]
تصميم الغلاف: [illegible]

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص ب 2380 هاتف 300 6215 2 971+
publication@adach.ae
www.adach.ae

ابن فركون الأندلسي

الإهداء

إلى روح سيّدي ووالدي،

تغمّده الله تعالى برحمته، وأسكنه فسيح جنّاته.

إلى سيّدتي ووالدتي،

أمدّ الله تعالى في عمرها، وجزاها عنّي وعن إخوتي حسنَ الثّواب.

إلى زوجتي،

شريكة عمري ، ورفيقة دربي.

قاسم

المُقدمة

اهتمّ الباحثون ـ عربًا ومُستشرقين ـ بتراثنا الأندلسيّ، وقدّموا كثيرًا من الدّراسات والأبحاث، التي أسهمت في إضاءة جوانب منه كانت مجهولة. ومع ذلك فإنّ مراحل من هذا التّراث لم تنل حقّها من الدّراسة والبحث، ومنها عصر مملكة غرناطة (635/1238 ـ 879/1492)، الذي اصطبغت حقب منه بالغموض والاضطراب، وذلك بسبب إهمال الباحثين لها، أو اعتمادهم على مصادر أجنبيّة يُشكّ في موضوعيّة أصحابها وأمانتهم العلميّة، وقد يكون ضياع المصادر الأندلسيّة الغرناطيّة أو تأخّر ظهورها سببًا في هذا الغموض والاضطراب. وهذا الأمر أخْمَلَ ذِكْرَ كثير من أعلام ذلك العصر، وحَكَمَ على الفكر والأدب فيه بالخمول والانهيار.

واستمرّت الحال على ما هي عليه، حتّى جاد الزّمان بمخطوطات بدأت تتكشّف معها غوامض المرحلة، ومن هذه المخطوطات مجموع شعريّ، كان في طيّ العدم، ولم تُشر إليه المصادر التي بين أيدي الباحثين. هذا المجموع هو ديوان الشّاعر الأندلسيّ الغرناطيّ أبي الحُسين بن فُركون، شاعر البلاط النّصريّ في عهد الملك يوسف الثّالث (820).

وقد وجدتُ في حياة هذا الشّاعر وشعره، مادّةً غنيّة جديرة بالدّراسة؛ ورغبةً منّي في خدمة تراثنا العربيّ، وإسهامًا في سدّ ثغرة الدّراسات الأندلسيّة الغرناطيّة، جاء هذا البحث «ابن فُركون الأندلسيّ: شاعر غرناطة»، ليتناول دراسة شخصيّة أبي الحُسين بن فُركون الأندلسيّ وشعره، معتمداً على ما وقفتُ عليه من شعره المجموع في ديوانه، وكتابه «مظهر النّور الباصر في أمداح الملك النّاصر».

وتأتي أهمّيّة هذه الدّراسة في التّعريف بشخصيّة ابن فُركون، ذي المكانة المرموقة في عصره، فقد كان شاعر يوسف الثّالث وكاتب سرّه، الذي شهِدَ معه ما حدث في زمنه، من تحوّلات سياسيّة واجتماعيّة مهمّة، سارت بها إلى نهايتها، وظهر ذلك كلّه في سير حياته، وإنتاجه الأدبيّ.

وتُبرز هذه القراسة قيمة شعره الأدبيّة، وهذا ما يُسهم في تعميق فهم الأدب في تلك الحقبة، وتُبرز كذلك قيمته التاريخيّة الوثائقيّة؛ إذ يعدّ ديوان ابن فُركون حلقة مهمّة في سلسلة المصادر، التي تجلو بوضوح مرحلة مضطربة من مراحل مملكة غرناطة.

ولمّا كان أساس هذا البحث، يقوم على دراسة النّصّ مضمونًا وأسلوبًا؛ فقد كان ديوانُ ابن فُركون وكتابُه «مظهر النّور الباصر في أمداح الملك النّاصر»، المصدرين الأساسيّين للبحث، اللّذين حقّقهما الدّكتور مُحمّد بن شريفة، ولا بد من الإشارة هنا إلى أنّ تحقيق الدّيوان، مع ما بذله المُحقّق من جهد مشكور، لم يكن بالمستوى اللاّئق، ففيه من أخطاء الضّبط والتّصحيف والخلل في وزن الأبيات شيءٌ كثير، وقد حاولت استقصاء هذه الأخطاء وتصويبها، في كلّ مرّة عرض لي خطأ منها.

ولعلّ من الصّعوبات التي صادفتني في أثناء عملي في هذا البحث، قلّة مصادر الحقبة التي عاش فيها ابن فُركون في مملكة غرناطة، فهي ما تزال مفقودة، أو قليلة متفرّقة، فكان الاعتماد على المعلومات والإشارات التّاريخيّة في ديوان ابن فُركون، وديوان يوسف الثّالث.

وقد استندت في هذه الدراسة إلى مصادر عدّة، ولعلّ من أهمّها مؤلّفات لسان الدّين ابن الخطيب (776): «الإحاطة في أخبار غرناطة»، و«أعمال الأعلام»، و«الكتيبة الكامنة»، و«اللّمحة البدريّة»، ومؤلّفا المقّريّ التّلمسانيّ (1041)، «أزهار الرّياض» و«نفح الطّيب».

ويُضاف إلى هذه المصادر عدد من المراجع الحديثة، التي استندت إليها أيضًا، وكان من أقربها صلة بموضوع بحثي كتابا «الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ، موضوعاته وخصائصه» للباحث قاسم الحسيني، و«الشّعر الأندلسيّ في عهد بني الأحمر، صور جهاديّة بطوليّة» للباحث الدّكتور رعد ناصر الوائلي، ووجدت ما يعينني على المُضيّ في بحثي في عدد من القراسات، التي تناولت أعلام الشّعر في غرناطة كـ«ابن الجيّاب الغرناطيّ (749)» للباحث الدّكتور مُحمّد عليّ الشّوابكة، و«ابن زمرك الغرناطيّ (796)» للباحث الدّكتور أحمد سليم الحمصيّ، وفي عدد من الرّسائل الجامعيّة، ومن أهمّها: رسالة ماجستير بعنوان

«ملك غرناطة: يوسف الثّالث»، للباحثة الدّكتورة سراب يازجي، ورسالة ماجستير بعنوان «خصائص الشّعر الأندلسيّ في عصر غرناطة»، للباحث مُحمّد وليد سرميني.

وجاءت هذه الدّراسة في هيكلها العامّ، وفق ما عُهدَ عن دراسات الباحثين، التي تناولت دراسة أعلام الأدب ونتاجهم الأدبيّ والفكريّ، وقد احتكمتْ منهجيّة هذه الدّراسة، إلى استقراء النّصوص الشّعريّة وتحليلها، غير أنّ البحث لم يتقيّد بمنهج مُحدّد في تحليل النّصوص ودراستها، وإنّما أفاد من مختلف المناهج، حسب ما اقتضته الدّراسة.

واستوتْ مادّة هذه الدّراسة على ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: «عصرُ ابن فُركون وحياته»:

قسمتُ هذا الفصل قسمين، تفرّعَ أوّلهما لدراسة عصر ابن فُركون، فبيّنت فيه جوانب هذا العصر السّياسيّة، وما فيها من ظروف أثّرت في نتاج هذا العصر، ووجدت في ديوان ابن فركون إشارات تاريخيّة، تُغني مرحلة الرّبع الأوّل من القرن التّاسع الهجريّ بمعلومات مهمّة؛ لم يقف عليها الباحثون في كتب التّاريخ نفسها.

وتناولتُ جوانب من حياة غرناطة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، فعرّفتُ بطبيعة حياة الغرناطيّين، وبيّنت أشكال الاقتصاد المتنوّعة التي كان يُمارسها الغرناطيّون.

وأشرتُ في معرض الكلام على الحياة الفكريّة والثّقافيّة إلى اهتمام ملوك بني الأحمر بالأدب والأدباء، وتحدّثتُ عن مأثرتهم الكبرى؛ وهي بناء مدرسة غرناطة، وصلتها بالحركة الأدبيّة والنّهضة العلميّة، اللّتين شهدتهما غرناطة، وبرزت فيهما أسماء عدد من علماء غرناطة وأدبائها ومُفكّريها.

ثمّ انتقلتُ لأبيّنَ في القسم الثّاني من الفصل الأوّل، ملامح من سيرة ابن فُركون وحياته، التي قضاها في غرناطة، استنادًا إلى المعلومات المتناثرة في كتابه وديوانه، فوقفتُ عند اسمه ولقبه، ونسبه، وولادته، وأسرته، وصلته بأدباء عصره، ومناصبه، وآثاره، ووفاته.

الفصل الثّاني: «أغراض شعر ابن فُركون»:

تحرّيتُ الحديث في هذا الفصل عن شعر ابن فُركون، فقمت بدراسة أغراضه الشّعريّة، ووزّعتها بحسب اهتمام الشّاعر بها ونظمه فيها، فرتّبتُها على هذا النّحو: المدح، الشّعر السّياسيّ، الوصف، الغزل، الإخوانيّات، الهجاء، الرّثاء، المديح النّبويّ، الفخر، الحكمة.

واستقلّ كلّ غرض منها بدراسة، بيّنتُ في بداية كلّ منها قيمة الغرض وموقعه من الأدب الأندلسيّ والغرناطيّ، ثمّ عرضتُ شعر ابن فُركون في هذا الغرض، ورتّبتُ ما قاله، وصنّفته بحسب طبيعة كلّ غرض، ثمّ خرجتُ في النّهاية بخلاصة في بيان قيمة هذا الغرض، وموقعه من أدب ابن فُركون.

الفصل الثّالث: «الدّراسة الفنّيّة»:

في هذا الفصل تناولتُ الأبعاد الفنية في شعر ابن فركون، فقصرته على خمسة مباحث، تحيط بالجوانب الفنّيّة لشعر ابن فُركون، لعلّها تعطي صورة واضحة عنه، فتحدّثت في أوّلها عن بناء القصيدة، وفي الثّاني عن اللّغة الشّعريّة، وفي الثّالث عن موسيقا الشّعر، وفي الرّابع عن الصّورة الفنّيّة، وفي الخامس عن التّقليد والتّجديد.

ولم أدرس شعر ابن فُركون في الفصلين الثّاني والثّالث معزولاً عن شعراء عصره، إنّما قامت الدّراسة على الرّبط بينه وبين عدد من شعراء غرناطة، الذين ارتبط أدبه بأدبهم بصلة وثيقة، مُعتمدًا في هذا على الدّراسات والأبحاث، التي اتّخذت من أدب غرناطة وأدبائها موضوعات لها.

وقد زوّدت هذه الدّراسة بمُلحق يُغني مادّتها، ويساعد على إيضاح عدد من الجوانب التي أشرت إليها. وضمّ هذا المُلحق تراجم الأعلام الذين كان لهم صلة وثيقة بحياة ابن فُركون وشعره، وجداول إحصائيّة لشعر ابن فُركون، وجدول الأحداث التي وثّقها ابن فُركون في ديوانه وكتابه «مظهر النّور»، أعدت فيه ترتيب الأحداث على وفق تسلسلها التّاريخيّ الصّحيح.

وختاماً فإنّي أتقدّم بالشّكر إلى الأساتذة الأفاضل، أعضاء الهيئة التدريسية في جامعة دمشق، الذين كان لهم فضل كبير في تقويم أَوَد هذا البحث، والسّير به نحو الغاية المرجوّة.

كما أتوجّه بشكري الجزيل إلى الأستاذ الباحث أنس أبو هلال، ذي الأيادي البيضاء، لما قدّمه لي من عون وسند، ولمساعيه الطيبة في إخراج هذا العمل إلى حيّز الوجود.

وبعد، فلستُ أزعم أنّ هذه المحاولة بلغت الكمال والتّمام، وهذا ما لا أدّعيه، لأنّ الكمال لله تعالى وحده.

والله أسألُ العونَ والسّدادَ

دير الزور في 14 رجب 1430هـ
6 تمّوز (يوليو) 2009م

قاسم

الفصل الأول
عصرُ ابن فُركون وحياتُه

1 – عصر ابن فُركون.
2 – حياة ابن فُركون.

الفصل الأوّل
عصرُ ابن فُركون وحياتُه

1 - عصر ابن فركون

أ - الحياة السّياسيّة:

شهد القرن السّابع الهجريّ (الثّالث عشر الميلاديّ) كثيرًا من الأحداث المهمة في المغرب والأندلس، فقد ضعفت دولة المُوحّدين المغربيّة، بعد هزيمة جيشها أمام الجيش الإسبانيّ، في موقعة العقاب عام (609/1212)[1]، وأدّى ضعفها هذا إلى فقدها سيطرتها على الأندلس، فكانت الفرصة ملائمة لاندلاع الثّورات، واشتعال الفتن[2]. لقد اندلعت في الأندلس ثورات محلّيّة عدّة، تروم الانفصال عن الدّولة المُوحّديّة، وعادت الأندلس إلى مرحلة تشبه مرحلة ملوك الطّوائف، وهذا ما جعل الفرصة سانحةً لتقدّم الجيوش الإسبانيّة، لتسترد المدن الأندلسيّة الكبرى، ولاح في الأفق شبح النّهاية المحتومة.

وكان من ثوّار الأندلس آنذاك ابنُ هود، الذي تغلّب على شرق الأندلس، وأغار على أرض العدوّ، وعاد بكثير من الغنائم والأسرى، فكثر النّاس من حوله وبايعوه، ودعا لبني العبّاس[3].

---

(1) انظر: ابن الخطيب، لسان الدّين (776): أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، (أو تاريخ إسبانيا الإسلاميّة)، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف-بيروت، ط2، 1956م، ص270، 331. والنّاصريّ، أحمد بن خالد (1315): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمّد النّاصري، دار الكتاب-الدار البيضاء، 1954م، 9 أجزاء، 37/3، والمقّريّ التّلمسانيّ، أحمد ابن محمّد (1041): نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر-بيروت، 1408/1988م، 8 أجزاء، 446/1.

(2) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص270.

(3) انظر: السّابق، ص277.

ويبدو أنّ هذا الأمير النّاشئ، لم تتوفّر لبقائه واستمراره مقوّمات النّجاح، فلم يستطع الثبات في وجه ضربات إسبانيا المتتالية[1]، التي قوّضت ما بناه، فأوشك على الانهيار، وانتهى أمره بوفاته عام (635)، «في ظروف غامضة»[2].

ظهر مُحمّد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، ثائرًا في الأندلس، في الوقت نفسه الذي ظهر فيه ابن هود، وكان قائدًا موصوفًا بالشّجاعة والقوّة والجهاد، وكانت هذه الصّفات هي الأساس عند اختيار الحكّام، في ذلك الوقت العصيب[3].

نافس ابنُ الأحمر ابنَ هود في السّيطرة على ما يحكم[4]، وكان له أن تفوّق على ابن هود بحكمة واقتدار، وتوّج تفوّقه عليه بدخوله غرناطة وسيطرته على ما حولها، عندما بعث إليه أهلها ببيعتهم عام (1238/635)[5].

أُسست مملكة غرناطة على يد الشّيخ أبي عبد الله مُحمّد بن يوسف بن نصر الخزرجيّ الأنصاريّ، المعروف بابن الأحمر، الملقّب بأمير المسلمين[6]، وهو من ذرّيّة سعد بن عُبادة سيّد الخزرج، وأحد كبار صحابة رسول الله ﷺ[7].

استطاع ابن الأحمر إرساء قواعد مملكته، على الرّغم من الظّروف العصيبة التي كانت

---

(1) انظر: المقّريّ: نفح الطّيب، 446/1، وبدر، أحمد: تاريخ الأندلس، الجزء-السّيادة المغربيّة- السّقوط والتّأثير الحضاريّ، مكتبة أطلس - دمشق، 1983م، 3 ج، 325/3.

(2) عنان، مُحمّد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر - القاهرة، ط3، 1966/1386م، ص34.

(3) انظر: المقّريّ: نفح الطّيب، 216/1، والعبّاديّ، أحمد مختار: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسّسة شباب الجامعة-الإسكندريّة، 1989م، ص371، حاشية1.

(4) انظر: النّاصريّ: الاستقصا، 3/ 37، والحجّي، عبد الرّحمن عليّ: التّاريخ الأندلسيّ من الفتح الإسلاميّ حتّى سقوط غرناطة، دار القلم-دمشق، 1997/1418م، ص515.

(5) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق مُحمّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، ج1، ط2، 1973/1393م، وج2، ط1، 1974/1394م، 2/ 98، والمقّريّ: نفح الطّيب، 448/1، والحجّي: التّاريخ الأندلسيّ، ص517.

(6) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 92/2، اللّمحة البدريّة في الدّولة النّصريّة، صحّحه ووضع فهارسه محبّ الدّين الخطيب، المطبعة السّلفيّة-القاهرة، ط2، 1347هـ، ص30.

(7) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 92/2، والمقّريّ: نفح الطّيب، 447/1.

تمرّ بها الأندلس - أو ما بقي منها - في ذلك الوقت، وكان له ذلك بفضل أسباب عدّة، أهمّها:

1 - امتداد حكمه زمنًا طويلاً، فقد حكم غرناطة بين عامي (635 و671).

2 - اتّباعه سياسة المُهادنة والمُصانعة مع القشتاليّين[1]، لحماية حدود مملكته من خطرهم، فإذا اشتدّ خطرهم وتفاقم، لجأ إلى بني مَرِيْنَ ملوك المغرب[2]، مستنجدًا بهم من القشتاليّين[3].

3 - اعتماده على وزرائه في إرساء قواعد مملكته[4]، وكان منهم ابنه مُحمّد، الذي أخذ له والدُه البيعة قبل وفاته[5]، فجعل بهذا من حُكم غرناطة حُكمًا وراثيًا.

وإذا كان ابن الأحمر قد أراد من هذا العمل تثبيت قواعد مملكته والمحافظة عليها؛ فإنّه لم يدرك أنّه جرّ عليها كثيرًا من الويلات، بتنافس أبناء أسرته في الوصول إلى سدّة الحُكم، وبوصول أمراء ضعاف لم يكونوا جديرين بحُكم المملكة.

عُرِفَ مُحمّد بن الأحمر مؤسّس المملكة، «وأعظم زعماء الأندلس يومئذ»[6]، بالذّكاء والشّجاعة والمهارة[7]، ونهضت على يده غرناطةُ المملكة الفتيّة، في الرّكن الجنوبيّ الشّرقيّ من شبه جزيرة إيبريا، على الضفّة اليمنى لنهر شنيل[8]، وكان يخترقها فرعه المسمّى حدرُه، ويُشرف عليها من جهتي الشّرق والغرب جبلُ شُلير، الذي لا يزول عنه الثّلج شتاءً ولا صيفًا[9]. واشتملت غرناطة على ثلاث ولايات كبيرة: المَرِيّة، ومالقة، وغرناطة، وكان

---

(1) انظر: النّاصريّ: الاستقصا، 3/ 38.

(2) أسست مملكة بني مرين في المغرب على أنقاض الدّولة الموحديّة، واضطلعت بمهمّتها في الدّفاع عن الأندلس. (الحجّي: التّاريخ الأندلسيّ، ص511، 520، 536 وما بعدها).

(3) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 95/2.

(4) انظر: العبّاديّ: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص228.

(5) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 95/2.

(6) عنان: نهاية الأندلس، ص43.

(7) انظر: ابن الخطيب: اللمحة، ص30.

(8) انظر: السّابق: الإحاطة، 118/1.

(9) انظر: السّابق، 96/1.

من أهمّ مدنها غرناطة العاصمة[1].

تُوفّي ابن الأحمر عام (671)، وخلَفَه على عرش غرناطة وليُّ عهده ولدُه أبو عبد الله مُحمّد المُلقّب بالفقيه، فـ «رتّب رسومَ المُلك للدّولة، ووضعَ ألقابَ خدمتها، ونظّمَ دواوينَها»[2]. وعُرِف هذا الملك بالدّهاء والحزم والبراعة السّياسيّة، وسار على نهج والده في الاستنجاد ببني مَرين، لدرء خطر القشتاليّين[3].

رحل مُحمّد الفقيه إلى جوار ربّه عام (701)، بعد أن تمكّن من تدعيم دولته داخليًا وخارجيًّا[4].

تولّى أمور الحُكم بعد رحيل الفقيه ولدُه مُحمّد (الثّالث) المعروف بالمخلوع، وكان عالمًا شاعرًا مُحبًّا للإصلاح والإنشاء، «وأعظم مناقبه ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة»[5].

وما لبث أن ثار عليه الجند بقيادة أخيه نصر أبي الجيوش، فخُلع وبُويع نصرٌ مَلكًا على غرناطة عام (708)، فـ «كانت أيّامُه، كما شاء الله، أيّام نحس مستمرّ»[6]. فقد سخط عليه الشّعب، واضطربت الأمور في غرناطة، فانتهز القشتاليّون هذه الفرصة، واحتلّوا جبل الفتح (جبل طارق) عام (709)، وكذلك فعل المَرينيّون عندما استعادوا مدينة سَبتة في العام ذاته[7].

ثم خرج على نصر ابن عمّه أبو الوليد إسماعيل بن فرج، مُستغلاً ضعفه واضطراب أمور مملكته، وتولّى الأمر مكانه عام (713). وبهذا انتقل حُكم المملكة من أولاد مُحمّد ابن

---

(1) انظر: عنان، مُحمّد عبد الله: الآثار الأندلسيّة الباقية في إسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخيّة أثريّة، مطبعة مصر – القاهرة، ط1، 1375/1956م، ص133، وما بعدها.
(2) ابن الخطيب: الإحاطة، 557/1.
(3) انظر: المقّريّ: نفح الطّيب، 449/1، والنّاصريّ: الاستقصا، 38/3.
(4) انظر: العبّاديّ: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص228.
(5) ابن الخطيب: اللمحة، ص50.
(6) السّابق: الإحاطة، 3/334-335.
(7) انظر: السّابق، 339/3، والنّاصريّ: الاستقصا، 3/100-101، وعنان: نهاية الأندلس، ص115-116.

الأحمر المُؤنّس، إلى أولاد أخيه إسماعيل.

أحرز أبو الوليد انتصارات عدّة على الإسبان، ساعده فيها شيخ الغُزاة[1]، قريب بني مَرين، وانتهى حُكم أبي الوليد بمقتله على يد أحد أقربائه، على باب قصره عند عودته من أحد انتصاراته، عام (725)[2].

بدأ مسلسل الاغتيالات بقتل أبي الوليد، الذي تولّى أمور المملكة من بعده ولدُه مُحمّد (الرابع) وهو لا يزال فتي، و«كان معدودًا في نبلاء الملوك وأبناء الملوك صرامة وعزّة وشهامة»[3]. فغزا أراضي قشتالة، واستعاد جبل طارق منهم، مُستعينًا بحلفائه بني مَرين[4]. وقد لقي مُحمّد مصير أبيه، حيث اغتاله متآمرون عليه، حرّضهم على ذلك شيخ الغزاة عام (733)[5].

خَلَفَ مُحمّدًا أخوه أبو الحجّاج يوسف، فقضى على نفوذ بني العَلاء، قَتَلة أخيه بنفيهم إلى تونس[6]، وعهد بمشيخة الغزاة إلى بني رحّو[7].

عُدّ أبو الحجّاج من أذكى ملوك بني نصر وأشهرهم، وكان ذا فضل وعقل وعلم، فهو من «جلّة الملوك فضلاً وعقلاً واعتدالاً»[8]، وقد عُرف بميله إلى الشّعر وتشجيعه العلم

(1) مشيخة الغزاة قيادة عسكرية للمجموعة من المجاهدين المغاربة القادمين إلى الأندلس للدّفاع عنها، تولّى بنو العلاء قيادة المشيخة، ورأسها عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد في عام 693هـ، فصارت من بعده لأخيه أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 16/2، اللّمحة، ص80، والمقّري: نفح الطيب، 385/4، وعنان: نهاية الأندلس، ص107، والحجّي: التاريخ الأندلسيّ، ص540-541، 560.

(2) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 392/1، اللّمحة، ص87، وعنان: نهاية الأندلس، ص121.

(3) ابن الخطيب: اللّمحة، ص77.

(4) انظر: السّابق، ص79-81، 92، 93، والنّاصريّ: الاستقصا، 121/3-122.

(5) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 540/1، 541. اللمحة 96، 97، والنّاصريّ: الاستقصا، 123/3، وعنان: نهاية الأندلس، ص124، والعبّاديّ: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص416.

(6) انظر: النّاصريّ: الاستقصا، 139/3، ومؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قُبيل الفتح الإسلاميّ إلى الغزو الفرنسيّ، العصر الحديث للنشر والتوزيع-ط1، 1412/1992م، 3ج، 42/3، 43.

(7) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 4/ 321، وعنان: نهاية الأندلس، ص125، ومؤنس: تاريخ المغرب، 43/3.

(8) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص305.

والعلماء، و«في عهده بُنيت المدرسة العجيبة بِكْر المدارس في حضرته، فتمّت واكتملت أوقافها»[1].

ازدهرت المملكة في عهده وقويت، ووقفت في وجه هجمات الإسبان، إلاّ أنّ هذا لم يمنعهم من إعداد العدّة لمواجهة الغرناطيّين، والتّجهيز للقاء بين الطّرفين، فحدثت موقعة طريف عام (741)، التي وقعت بين القوّات الإسبانيّة من جُهة، والقوّات الغرناطيّة والمغربيّة من جهة أخرى، وقد مُني فيها المسلمون بهزيمة عظيمة[2]، وارتدّ يوسف خائبًا إلى غرناطة[3].

انتهى حُكم يوسف بقتله عام (755)[4]، فخلفه ولدُه مُحمّد الغنيّ بالله، الذي كان كأبيه مُثقّفًا مُحبًّا للعلم والعلماء، متحلّياً بالصّفات الحسنة من كرم وشجاعة وشهامة، وقد مشت أيّامه على أتمّ ما يكون من الأمان وخصب الزّمان، فـ«كانت أيّامه هادئة قليلة الحوادث، مُنْسدلة الأمن»[5].

حكم الغنيّ بالله المملكة مرّتين، تولّى الحُكم في المرّة الأولى عام (755)، بعد موت أبيه، واتّسمت هذه المرحلة من حُكمه بمحافظته على صداقة بني مَرين، وحرصه على إقامة علاقات وديّة مع قشتالة[6]، وانتهت هذه المرحلة عام (760)، عندما خلعه أخوه إسماعيل، واعتلى العرش مكانه، فغادر الغنيُّ بالله غرناطةَ إلى المغرب[7].

---

(1) ابن الخطيب: اللمحة، ص96.

(2) انظر: الشامي: الإحاطة، 4/ 332، والناصري: الاستقصا، 3/136-137، وعنان: نهاية الأندلس، ص127 وما بعدها، والحجّي: التاريخ الأندلسي، ص543-544، وبدر: تاريخ الأندلس، 3/329-330، وفرحات، يوسف شكري: غرناطة في ظل بني الأحمر، دراسة حضاريّة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع-بيروت، ط1، 1402/1982م، ص44، ومؤنس: تاريخ المغرب، 3/43-49.

(3) انظر: ابن الخطيب: اللمحة، ص92-95، والحجّي: التاريخ الأندلسي، ص543-544.

(4) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 4/ 333، اللمحة، ص110، والناصري: الاستقصا، 3/191، وعنان: نهاية الأندلس، ص134.

(5) ابن الخطيب: اللمحة، ص107.

(6) انظر: الشامي: الإحاطة، 2/ 42، وعنان: نهاية الأندلس، ص140.

(7) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 38، 2/26، اللمحة، ص22، 107، والناصري: الاستقصا، 4/9.

قُتل إسماعيل بعد عام واحد من تسلمه المُلك، على يد صهره مُحمّد بن إسماعيل، الذي حلّ مَحله لكنّه لم يهنأ بالمُلك، فقد علم بقدوم الغنيّ بالله إلى الأندلس، ففرّ هاربًا إلى ملك قشتالة طالبًا الحماية، غير أنّ ملك قشتالة قتله ومَنْ معه، وبعث برؤوسهم إلى الغنيّ بالله[1]، الذي استردّ مُلكه، فبدأت المرحلة الثّانية من حُكمه.

عاشت غرناطة في هذه المرحلة في هدوء وسلام، حيث انشغلت قشتالة بحروبها الدّاخليّة عن غرناطة، ووجّه الملك اهتمامه إلى أمور المملكة الدّاخليّة، فقوّاها بالجيوش والأساطيل، وانتعشت فيها الحياة الفكريّة، وعرفت المملكة عصرها الذّهبيّ في هذا الميدان، وازدهر العمران، فاكتمل في عهده قصر الحمراء، وأمر ببناء المارستان الأعظم في غرناطة[2]. وفي عهده وُلد الشّاعر أبو الحُسين بن فُركون موضوع هذا البحث.

لبّى الغنيّ بالله نداء ربّه عام (793)، وبرحيله انتهى عهد الأقوياء، وخَلَفهم مَنْ لم يكن في مستواهم حكمةً وعزمًا وقوّةً.

خَلَفَ الغنيّ بالله ولدُه يوسف (الثّاني)، الذي نجا من محاولة قتل دبّرها مولى أبيه، المُستبدّ بأمور المملكة[3].

وفي عهده اتّسمت العلاقات بين غرناطة والدّول المجاورة لها، بالهدوء والصّفاء[4]، وانتهى عهده بوفاته عام (797)[5].

تولّى الأمرَ من بعده ولدُه مُحمّد (السّابع)، بعد أن أقصى أخاه الأكبرَ يوسفَ ـ وريثَ عرش أبيه ـ وسجنه[6]. وقد اغتنم الملك مُحمّد ما في قشتالة من اضطرابات، فأقدم على

---

(1) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 2/29–30، والّلمحة، ص117–118.

(2) انظر: عنان: الآثار الأندلسيّة الباقية، ص178، 179.

(3) انظر: النّاصري: الاستقصا، 4/81، وعنان: نهاية الأندلس، ص149، وزعرور، إبراهيم محمود، وأحمد، علي سليمان: اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، دار المستقبل– دمشق، ط1، 1999م، ص90.

(4) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص149.

(5) انظر: السّابق، ص150.

(6) انظر: السّابق، ص153.

قيادة غزوات عدّة في ضواحي مرسية وقرطبة وجيّان، وعاد منها بغنائم[1]، لكنه اضطرّ إلى مهادنة قشتالة، بعد أن عاث جنودها في غرناطة ودمّروها[2]، وعقد أيضاً معاهدة صداقة مع أرغون[3].

قضى الملك نحبه عام (810)، فخلفه أخوه يوسف (الثالث) المُلقّب بالنّاصر بالله، الذي كان سجينًا طوال مدّة حُكم أخيه، وبوفاته أُطلق يوسفُ من أسره، فدخل غرناطة في احتفال مهيب، وكان حسن الخلال مُحبًا لشعبه، فعلّق عليه الشّعب آمالاً كبيرة[4].

جدّد يوسف النّاصر بالله الهدنة مع القشتاليّين مدّة عامين[5]، نشبت بعدها الحرب بين الطّرفين، وسقطت أنتقيرة في أيدي الإسبان عام (812)، فعاد إلى مصالحتهم، ودام صلحه معهم حتّى وفاته[6]. وحاول المغاربة في عهده احتلال جبل الفتح، فباءت محاولتهم بالفشل، لما تحلّى به يوسف من براعة سياسيّة ومقدرة حربيّة[7].

بعد ذلك شهدت غرناطة عهد هدوء وسلام، ولكنّها في المقابل كانت تنحدر إلى الضّعف والانحلال.

كان يوسف الثالث شاعرًا مشهودًا له بالقدرة والتّفوّق[8]، ولَمع في بلاطه اسمُ الشّاعر أبي الحُسين بن فُركون، وكان صديقَه وشاعرَه وكاتبَ سرّه، الذي رافقه طوال مدّة حكمه، وظلّ معه حتّى وفاته، فرثاه بقصيدة ختَمَ بها شعره، وصمت بعدها إلى الأبد.

---

(1) انظر: فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص52.
(2) انظر: فرحات، السابق، ص52.
(3) انظر: السابق، ص52، والحجّي: التاريخ الأندلسي، ص549.
(4) انظر: عنان: نهاية الأندلس، ص153.
(5) انظر: فرحات: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص52، والحجّي: التاريخ الأندلسي، ص549.
(6) انظر: فرحات: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص25- 53.
(7) انظر: ابن فُركون، أبو الحُسين (ق9): الدّيوان، تحقيق مُحمّد بن شريفة، أكاديميّة المملكة المغربيّة- الرّباط، 1407/1987م، المُقدّمة، ص71، وما بعدها.
(8) للدّكتورة سراب يازجي دراسة وافية عن يوسف الثّالث، بعنوان «ملك غرناطة يوسف الثّالث: حياته وشعره»، نالت عليها درجة الماجستير من جامعة دمشق، عام 1991م.

لبّى الملك يوسف الثالث نداء ربّه عام (820)[1]، وبوفاته انتقل حُكم غرناطة إلى ولده أبي عبد الله مُحمّد المُلقّب بالأيسر، الذي خُلع من الحُكم وأُعيد إليه مرّات عدّة[2].

وفي ديوان ابن فُركون أشعار وأخبار وإشارات تاريخيّة، وثّقت أحداثًا كثيرة من المرحلة التي حَكَمَ فيها يوسفُ الثّالث غرناطةَ، ورصدت جوانب من علاقاته بجيرانه الإسبان والمغاربة[3]، وهذا ما أعطى الدّيوان قيمة تاريخيّة «تمثّل الرّواية العربيّة المفقودة حول يوسف الثّالث وعصره»[4].

ومن القصائد المهمّة التي وثّقت أحداث المرحلة الأخيرة من حُكم يوسف الثّالث: قصيدتُه التي ألقاها في الاحتفال الذي أقامه الملك في العَشر الأواخر من شعبان عام (818)، بمناسبة عقيقة أحد أولاده وإعذار ولدين آخرين، وانعقاد البيعة لوليّ عهده ومتولّي الأمر من بعده – أيّده الله – على الخاصّة والعامّة»[5]، وممّا قاله ابن فُركون فيها مُشيرًا إلى هذه البيعة[6]:

وبَيْعةُ عِزٍّ أَحْكَمَ الصُّنْعُ عَقْدَها ... وجاءَ بِمَيْثاقِ السُّعُودِ كِتابُها

وِلايةُ عَهْدٍ يَصْحَبُ الفَتْحُ عَقْدَها ... ويُفْسَحُ للنَّصْرِ العَزِيزِ جَنابُها

دَعَوْتَ لها أَهْلَ البِلادِ فَأَهْطَعَتْ ... وُفُودٌ بها شَتَّى تَوافَتْ رِكابُها[7]

---

(1) انظر: يوسف الثّالث: الدّيوان، تحقيق عبد الله كنون، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1958م، المقدّمة، ص (م–ن)، وابن فُركون: الدّيوان، ص381–382، وعنان: نهاية الأندلس، ص154. وقد وقع ضيا باشا في الخطأ عندما كان يتحدّث عن يوسف الثّالث، فقال: «استطال حُكم الملك خمسة عشر عامًا.. وتوفّي السّلطان يوسف الثّالث سنة 826هـ». انظر: باشا، ضيا: الأندلس الذّهبيّة، تعريب عبد الرّحمن ارشيدات، مراجعة وتحقيق صلاح ارشيدات، منشورات وزارة الثّقافة والإعلام الأردنيّة–عمّان، 1989م، 3ج، 221/3.

(2) انظر: عنان: نهاية الأندلس، ص158.

(3) انظر ملحق الجداول: جدول ترتيب الأحداث التي وثّقها ابن فُركون في ديوانه ومظهر النّور.

(4) ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة، ص19.

(5) السّابق، ص338.

(6) السّابق، ص344.

(7) أَهْطَعَ: أَقْبَلَ على الشّيء ببصره فلم يرفعه، أو أَقْبَلَ مسرعًا خائفًا. انظر: ابن منظور، محمّد بن مكرم (711): لسان العرب، مادّة (هـ ط ع).

لِحَضْرةِ مَلْكٍ أَصْبَحَتْ مَشْرَعَ النَّدَى ... وَقَدْ شُرِعَتْ لِلْوارِدِينَ قِبابُها

أَتَتْها شُعُوبٌ مِنْهُمُ وقَبائِلٌ ... فَعَمَّتْ بِهِمْ أَفْلاكُها وَرِحابُها

تَخَيَّرَتْ لِلإسْلامِ خَيْرَ مُؤَمَّلٍ ... لِبَيْعَتِهِ راقَ الوُفودَ انْتِدابُها

فَلِلَّهِ ما أَسْمَى خِلافَتَكَ الَّتي ... تَخَيَّرَها طَوْعَ العُلا وانْتِخابُها

وفي قصيدة أخرى أنشدها ابن فُركون في عيد الفطر من العام نفسه، خاطب يوسف، الذي ولّى ابنه مُحمّدًا عهدَ المسلمين، فقال[1]:

وَلَّيْتَ عَهْدَ المُسْلِمينَ مُحَمَّدًا ... فَسَلَكْتَ قَصْدًا لِلْعَلاءِ حَمِيدا

وقال ابن فُركون في قصيدة ثالثة، مُشيرًا إلى مُحمّد هذا[2]:

وَحَيُّوا مِنَ المَوْلَى الإمامِ مُحَمَّدٍ ... كَرِيمًا حَلِيمًا مُنْعِمًا مُتَفَضِّلا

وفي هذا كلّه ما يحسم الخلاف الواقع بين المُؤرّخين، حول مَنْ خلَفَ يوسفَ الثّالث في المُلك.

وقُدّر لغرناطة أن يتوالى على عرشها أمراء، لم يحوزوا ما حازه أسلافهم من حسن الصّفات[3]، فوقعت غرناطة ضحيّة أطماعهم ومصالحهم الشّخصيّة، وتنافسهم فيما بينهم من أجل السّلطة، فكثرت الحروب وعمّت الفوضى والاضطرابات، وضعفت غرناطة من جرّاء ذلك وأُنهكت، إلى أن سقطت في أيدي الإسبان عام (897/1492).

وعلى الطّرف الآخر في المغرب كانت دولة بني مرين قد ضعفت، مع منتصف القرن الثّامن الهجريّ، ولاحت بوادر انهيارها، فقد توجّه الإفرنج بأطماعهم نحو المغرب،

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص365.

(2) السّابق، ص384.

(3) توالى على حُكم غرناطة بين سنتي 820هـ و897هـ تسعة ملوك، ومنهم مَنْ حكم مرّتين أو ثلاثًا، كان أوّلهم مُحمّدًا الأيسر، وآخرهم أبا عبد الله الصّغير. (انظر: الحجّي: التّاريخ الأندلسيّ، ص565، و568، وفرحات: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص53–64، والطّوخي، أحمد مُحمّد: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسّسة شباب الجامعة– الإسكندريّة، 1997م، ص43 وما بعدها، عنان: نهاية الأندلس، ص158 وما بعدها).

وكثرت الحروب الأهليّة في الدّاخل، لتنافس الأمراء على السّلطة، واستبداد الحجّاب والوزراء بملوكهم، فضعفت الدّولة ووهنت، وعجزت عن مدّ يد العون إلى غرناطة، لتتركها وحيدة تواجه عدوّها.

وبينما كانت الدولتان تسقطان في هوّة الضعف كانت إسبانيا تزداد قوّة، حيث اتّحدت نهائيًا بزواج ملك أرغون بملكة قشتالة عام (884)، فسقطت بيدها مدن مملكة بني الأحمر واحدةً واحدةً[1]، ولم تبقَ سوى غرناطة العاصمة، التي ثبت أهلها، فتكالب العدوّ عليهم ووجد السّبل إلى تفريق كلمتهم، والتمكّن من فسخ عهدهم وذمّتهم»[2]، فشدّد حولها الحصار، حتّى اضطرّت إلى التّسليم وفقًا لشروط لم تكن في مصلحة المسلمين[3]، وتخلّى أبو عبد الله الصّغير آخرُ ملوك بني الأحمر عن المدينة، ورحل عنها منفيًا إلى المغرب، واستوطن مدينة فاس[4]، ودخل الإسبان المدينة عام **(1492/897)**.

حَكَمَ بنو الأحمر غرناطةَ مدة تزيد على قرنين من الزّمان، وبلغت ذروة مجدها وعزّها في عهد الأقوياء منهم، الذين تركوا فيها آثارًا عمرانيّة رائعة، ظلّت شاهدة على مجدهم الآفل، ولعلّ من أهمّ آثارها قصرَ الحمراء، الذي هو «جزءٌ لا يتجزّأ من تاريخ بني الأحمر، بل هو قطعة من هذا التّاريخ، يدلّ بما يحويه من بدائع الصّنع والفنّ، على مدى تقدّم الحضارة في فترة من فترات التّاريخ الأندلسيّ»[5].

والحمراءُ قصرٌ ملكيٌّ أنشأه مُحمّد بن الأحمر، حين أحكم سيطرته على غرناطة،

---

(1) انظر: الطوخي: مظاهر الحضارة في مملكة غرناطة، ص44، والعبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص462، وما بعدها.

(2) النّاصري: الاستقصا، 102/4.

(3) اختلفت المصادر في عددها وترتيبها. انظر: مؤلّف مجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق حسين مؤنس، الزّهراء للإعلام العربيّ-القاهرة، ط1، 1412/1991م، ص114، والنّاصريّ: الاستقصا، 4/104-105، وباشا: الأندلس الذّاهبة، 3/311-325، وحمادة، مُحمّد ماهر: الوثائق السّياسيّة والإداريّة في الأندلس وشمالي إفريقية، 64-897/683-1492م، منشورات مؤسّسة الرّسالة- بيروت، ط1، 1400/1980م، ص532-546، وعنان: نهاية الأندلس، ص244-250، والشّطشاط، علي حسين: نهاية الوجود العربيّ في الأندلس، دار قباء- القاهرة، 2001م، ص67.

(4) انظر: مجهول: أخبار العصر، ص117، والنّاصريّ: الاستقصا، 125/4.

(5) الطوخي: مظاهر الحضارة، ص60.

وتوالت من بعده الإنشاءات على أيدي أبنائه وأحفاده. ولم يكتمل الإنشاء الحقيقيّ لمباني الحمراء إلاّ في القرن الثّامن الهجريّ، على يد أبي الحجّاج يوسف الأوّل، وعلى يد ابنه محمّد الخامس، الذي أتمّ ما بناه أبوه وأضاف إليه إنشاءات أخرى[1].

ويتألّف قصر الحمراء من أجنحة كثيرة نُقشت في أرجائها آيات من القرآن الكريم وأدعية وتوسّلات، وأبيات شعريّة لشعراء الحمراء: ابن خاتمة (770)، وابن الخطيب (776)، وابن زمرك (796)[2]، وابن فركون[3]، فغدا تحفة فنّيّة غنيّة بالنّقوش والزّخارف.

وهكذا نجد أنّ الحياة السّياسيّة في غرناطة، كانت موّارة بالحركة، نعمت فيها غرناطة بمراحلٍ من الأمن والاستقرار، وعمّتها الفوضى والاضطرابات في مراحل أخرى، فكان لهذا كلّه أثر كبير في الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي عاشتها غرناطة، وهو الجانب الذي سأحاول الوقوف عند أهمّ ملامحه في الصّفحات الآتية.

ب- الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة:

سقطت معظم المدن الأندلسيّة في يد الإسبان، فهاجر أهلها إلى مملكة غرناطة ليعيشوا فيها، مُشاركين أهلها حياتهم في ظلّ حُكم بني الأحمر، فعجّت المملكة بعناصر بشريّة متعدّدة[4]، كان أهمُّها العرب والبربر والمُسالمةُ والمُولّدين والمُستعربين واليهودَ والنّصارى والصّقالبة[5]. وكان للزّمن أثر كبير في تمازجها وتكوين شخصيّة الأندلسيّ الغرناطيّ، التي

---

(1) عنان: الآثار الأندلسيّة الباقية، ص159-160.

(2) للدّكتور صلاح جرّار دراسة وافية لهذه الأشعار، وهي بعنوان «ديوان الحمراء»، صدرت عن المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر في بيروت، في طبعتها الأولى، عام 1999م.

(3) لابن فركون أشعار كثيرة في ديوانه تضيف مادّة غنيّة لهذا الموضوع، وسيأتي الحديث عنها في غرض الوصف.

(4) الحجّي: التاريخ الأندلسيّ، ص521، وبدر: تاريخ الأندلس، 3/340-341.

(5) المسالمة: سكان البلاد الأصليون الذين دخلوا في الإسلام. المولّدون: الجيل الذي نتج عن زواج الفاتحين بالسّكان الأصليين. المستعربون: المسيحيّون الذين استعربوا في لغتهم وعاداتهم ولكنّهم حافظوا على دينهم. الصّقالبة: الرّقيق الذين جلبوا من أوروبا منذ صغرهم ثمّ رُبّوا تربية عسكريّة إسلاميّة وانخرطوا في وظائف القصر والجيش. (انظر: الحجّي: التاريخ الأندلسيّ، ص531، والتّوسري، أحمد ثاني: الحياة الاجتماعيّة في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر، المجمع الثّقافيّ- أبو ظبي، 1425/2004م، ص65، وما بعدها).

كان لها نصيب وافر من الحيويّة والإبداع.

والمجتمع النّصريّ مجتمع دينيّ محافظ، متمسّك بالمبادئ الإسلامية[1]، وقد شكّل المسلمون الغالبيّة العظمى من أبناء المملكة، أمّا الأقليّة الدّينيّة من النّصارى واليهود في المملكة؛ فلم يكن حظّها أقلّ من حظّ الأغلبيّة، فنعمت بالحريّة والاستقرار وإقامة الشّعائر الدّينيّة، وكان لها نفوذ بارز في المملكة بسبب مجالات العمل، التي أثبت كلٌّ من النّصارى واليهود جدارتهم فيها، فقد برز النّصارى في مجال التّجارة، مُساهمين بنشاطهم الواسع فيها في ازدهار المملكة، وبرز اليهود في مجال الطّبّ[2].

عاشت غرناطة حياة الازدهار والرّخاء، ولعلّ ممّا ساعد على تطوّرها وتمدّنها ما حَمَلَه الأندلسيّون المهاجرون إليها من علوم ومهارات، فدفع تحضّرها بأبنائها إلى الميل إلى حياة ملؤها اللّهو والمرح، فكان شعبها «يعشق مباهج الحياة والحفلات العامّة، وكانت الحياة لديه كأنّها سلسلة من الأعياد المتواصلة»[3].

كان الشّعب الغرناطيّ ميّالاً إلى اللّهو والمرح، مُولعًا بحضور مجالس الرّقص والغناء والشّراب، وكان الغناء ذائعًا في المُنتديات العامّة حتّى في دكاكين الحرفيّين، «فالغناء بمدينتهم فاشٍ حتّى بالدّكاكين، التي تجمع كثيرًا من الأحداث»[4].

وكثرت الاحتفالات التي كانت تستغرق شطرًا من اللّيل، وذلك في مواسم الأعياد ومناسبات الزّفاف وغيرها. وشُغف النّاس بالفروسيّة؛ فكانت حفلاتها من أجمل المباهج العامّة التي عرفتها غرناطة[5].

وقد اتصف الغرناطيّون بصفات أخلاقيّة طيّبة، كما وُصفوا بالرّقّة والحلاوة، فـ«صورهم

(1) انظر: ابن الخطيب: اللّمحة، ص38.

(2) انظر: المقّريّ: أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض، ضبطه وحقّقه وعلّق عليه مصطفى السّقا، وإبراهيم الأبياريّ، وعبد الحفيظ شلبي، المعهد الخليفيّ للأبحاث المغربيّة–تطوان، وصندوق إحياء التّراث الإسلاميّ–الرّباط، 78–1980م، 5مج، 197/3، والطّوخيّ: مظاهر الحضارة، ص375.

(3) عنان: نهاية الأندلس، ص451.

(4) ابن الخطيب: اللّمحة، ص28.

(5) انظر: عنان: نهاية الأندلس، ص451.

حسنة، وأنوفهم مُعتدلة غير حادّة، وشعورهم سود مُرسَلة، وقدودهم متوسِّطة معتدلة إلى القصر، وألوانهم زُهْر مُشرَبة بحُمرة»[1].

واهتمّ الغرناطيّون بأناقتهم ونظافة ملابسهم وبيوتهم عامّة، وبالغوا في الاهتمام بالنّظافة، حتّى إنّهم «ذهبوا في نظافتهم إلى درجة أنّه لم يكن غريبًا أن ينفق رجل من أدنى الطّبقات آخر درهم في جيبه لابتياع قطعة من الصّابون، بدلاً من ابتياع قوت يومه»[2].

وكما اهتمّ الغرناطيّون بأزيائهم ونظافتهم، اهتمّوا كذلك بغذائهم، فتنوّعت أطعمتهم، وتنوّعت فنونهم في إعدادها، وكان لطبقاتهم الميسورة ذوق في تزيين الموائد بالصّحون والأطباق والمشارب الخزفيّة. وممّا يلاحظ براعتهم في طرائق ادّخار طعامهم ومؤنهم، وتجفيف الفواكه لتؤكل في غير فصولها، فهم أهل احتياط وتدبير في معاشهم، «يدّخرون العنب سليمًا من الفساد إلى شطر من العام، إلى غير ذلك من التّين والزّبيب والتّفّاح والرّمّان، والقسطل والبلوط، والجوز واللّوز، إلى غير ذلك ممّا لا ينفد، ولا ينقطع مدده، إلاّ في الفصل الذي يُزهَد في استعماله»[3]. ولعلّ هذا يشير إلى استعدادهم لما قد يطرأ على حياتهم من ظروف قاسية، تمنعهم من الحصول على قُوتهم، فيلجؤون إلى ما ادّخروه.

وكان للغرناطيّين كثير من وسائل التّسلية، كالصّيد والفروسيّة وسباق الخيل وقتال الحيوانات ولعب الشّطرنج والنّرد[4].

ووصف ابن الخطيب النّساء الغرناطيّات بالجمال والاعتدال والخفّة، وأخذ عليهنّ مبالغتهنّ في التّفنّن في الزّينة والتّبرّج، والتّنافس في أشكال الحلي والذّهبيّات والدّيباجيّات، والإسراف في استخدام العطور والأصباغ[5].

---

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 134/1.

(2) علي، سيّد أمير: مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربيّة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين-بيروت، ط4، 1981م، ص467.

(3) ابن الخطيب: الإحاطة، 137/1، اللّمحة ص28-29.

(4) ابن الخطيب: الإحاطة، 139/1، اللّمحة ص90، والمقرّي: نفح الطّيب، 460/6-463، 174/7، 264؛ والطّوخي: مظاهر الحضارة في غرناطة، ص135-138.

(5) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 139/1، اللّمحة، ص29.

وتبوّأت المرأة الغرناطيّة مكانةً ملحوظة في المجتمع آنذاك، إذ تمتعت بقدر جيّد من الحرّيّة الاجتماعيّة، سمحت لها بالمشاركة في ميادين الحياة كلّها، فاختلطت بالرّجال في كثير من المناسبات العامّة، وأوقات الصّلوات، وحفلات الزّفاف وغيرها، ففي بعض الحفلات، كان الرّجال والنّساء يرشّون الماء المُعطّر، ويترامون بالأزهار، وكانت نساء غرناطة البارعات في الحسن والأناقة، يشهدن حفلات الفروسيّة، وغيرها من الحفلات العامّة سافرات، فكان الإعجاب ببريق الرّماح والعيون، وحمرة البنود والخدود[1].

وعرفت غرناطةُ أشكالَ الاقتصاد المتنوّعة، فركّز الغرناطيّون اهتمامهم بالأرض والفلاحة فازدهرت الزّراعة في المملكة، وكان من أسباب ازدهارها خصوبة الأراضي، ووفرة المياه، واعتدال المناخ[2]. واعتنى الغرناطيّون بوسائل الرّيّ والصّرف فيها، فقد عملوا على تنظيم التُّرَع والقنوات، وابتكروا أساليب زراعيّة متقدّمة، خلّفتهم ونشّطت الزّراعة في وقتهم[3]. وتجلّى ذكاؤهم وبرزت مهارتهم الزّراعيّة، في الحصول على مواسم متتابعة من الفاكهة والغلال طوال أيّام العام [4]. كما برعوا في غرس الحدائق وتنسيقها، ففَحْصُ غرناطة[5]المشهور بحدائقه وجنّاته[6]. ولهذا كلّه درّت أراضي غرناطة على أصحابها كثيرًا من النّعم، فكفتهم وزادت عن حاجتهم. واكتفاء غرناطة هذا يبدو واحدًا من الأسباب التي أطالت عمر المملكة.

وازدهرت الصّناعة في مملكة غرناطة، وكان غنى المملكة بالثّروات الطّبيعية أحد أسباب ازدهار الصّناعة فيها[7]، واشتهر الغرناطيّون بصناعة الأنسجة والورق والفخّار

---

(1) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 318/4 وما بعدها.

(2) انظر: عنان: نهاية الأندلس، ص445، وفرحات: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص141، وباشا: الأندلس القاصية، 208/3.

(3) انظر: عنان: نهاية الأندلس، ص445، وفرحات: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص141، وباشا: الأندلس القاصية، 429/3-431.

(4) انظر: ابن الخطيب: اللمحة، ص13، وفرحات: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص141.

(5) الفَحْصُ: ما استوى من الأرض، والجمع فحوص. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ف ح ص).

(6) انظر: عنان: نهاية الأندلس، ص446.

(7) انظر: السّابق، ص446.

المَذهب، ودباغة الجلود واستخراج العطور من النَّباتات والأزهار، كما برعوا في صناعة العقاقير الطِّبيَّة والأسلحة(1)، وعرفوا عددًا من الاختراعات، «مثل المدافع التي ترمي نوعًا من المحروقات، وتحويل البارود إلى طاقة قاذفة، انتقلت عنهم إلى أوربا، ولم يزل متحف مدريد الحربيّ يحفظ حاليًا، البنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة»(2).

وكان للتِّجارة - وهي المظهر الاقتصاديّ الثَّالث في المملكة - ازدهار وتقدّم ونشاط، بما لها من حُسن الموقع وكثرة الثُّغور، «وانتظام صلاتها البحريّة مع سائر ثغور البحر المتوسّط»(3)، فضلاً عن ازدهار صناعتها وزراعتها، فراجت التّجارة وتجاوزت سواحل إفريقية المجاورة لها(4)، فأدّى هذا إلى بعث الحركة والحياة، في ولايات المملكة وثغورها.

وهكذا نجد أنّ المجتمع الغرناطيّ كان مُجتمعًا إسلاميًا، غلبت على سكّانه العروبة، وشكّلت المرأة جزءًا مهمًّا من هذا المجتمع، وتمتّعت بقسط وافر من الحرّيّة والكرامة، وعاش الجميع في جوٍّ من السّلام والتّسامح، في مراحل الأمن والاستقرار. وكانت أحوال غرناطة الاقتصاديّة مزدهرة ومواردها غنيّة، فكان لهذا أثر كبير في حياة غرناطة الفكريّة والثّقافيّة، وهو الجانب الذي سيكون موضوع الصّفحات التّالية.

ج- الحياة الفكريّة والثقافيّة:

أدّى قيام مملكة بني الأحمر إلى رأب الصّدع، الذي أصاب الحياة الفكريّة في الأندلس، إثر انهيار سلطان المُوحّدين، وتساقُط قواعد الأندلس ومدنه الكبرى في حجْر الإسبان، وحياة الاضطراب والقلق التي عاشها الأندلسيّون، فما كان لقيام مملكة غرناطة إلاّ أنْ «أعاد

(1) انظر: عنان: نهاية الأندلس، ص447، وفرحات: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص145.
(2) الحجّي: التاريخ الأندلسيّ، ص561. وفي ديوان ابن فُركون ما يشير إلى معرفة الغرناطيّين للبارود، واستعمالهم الأنفاط. قال ابن فُركون:

وَفي سَعْدِنِ البارُودِ أعْظَمُ آيةٍ ... بَدَتْ فَالنُّهى فيها يَطُولُ اعْتِبارُها
نَفَثْتَ بِها للنِّفْطِ أبراجَها التي ... يُضاهي بُرُوجَ النَّيِّراتِ جِدارُها

انظر: الدّيوان، ص144.
(3) عنان: نهاية الأندلس، ص447-448.
(4) السّابق، ص448.

الاستقرار إلى النّفوس الحائرة، والحياة الأدبيّة إلى سابق قوتها»[1].

قُيّض لمملكة غرناطة أن تكون آخر حامل للواء الحضارة الأندلسيّة، في شبه الجزيرة الإيبيريّة، فما أن صار الأمر لبني الأحمر، وتوطّدت دعائم حُكمهم في غرناطة، حتّى سرت الحياة في أرجاء المملكة كلّها، وأخذت الحياة الفكريّة في الثّبات والاستقرار، وممّا ساعد على ذلك تشجيع ملوك بني الأحمر للآداب والعلوم، «وكان بلاط غرناطة يسطع بتقاليده الأدبيّة الزّاهرة»[2]، فضلاً عن كون عدد جيّد منهم يُعدّ في جملة الأدباء والعلماء[3]، وكان آخرهم الملك يوسف الثّالث، الذي لمع اسمه في بداية القرن التاسع شاعرًا وأديبًا بارعًا، «يبدّى مقتدرًا على حوك الكلام، ونسج الشّعر الجيّد»[4].

ولعلّ في اهتمام ملوك بني الأحمر بالآداب والعلوم ما هو أعمق من سيرهم على سنن ملوك الأندلس، كما يرى الأستاذ عنان[5]، وهو أنّهم أرادوا أن يكونوا أقرب إلى شعبهم، وكان في ذلك تعزيز لوجودهم في السّلطة، وربّما ما قيل في مدحهم يؤكّد هذا ويعزّزه.

وهذا الاهتمام وُجد عند الأوائل منهم، أمّا المتأخّرون - ما عدا يوسف الثّالث - فقد كانوا بعيدين عن ذلك، لانشغالهم بتنافسهم وحروبهم، واضطراب أمور المملكة في عهودهم.

وفضلاً عن حمايتهم للآداب والعلوم والفنون، ومشاركتهم فيها، فإنّ مَنْ كان يُحيط بهم من الوزراء والكتّاب، هم في الغالب من المفكّرين والأدباء والشّعراء[6]، كابن الحكيم (708)، وابن الجيّاب (749) وزير يوسف الأوّل، وابن الخطيب (776)، وزير المملكة

---

(1) فرحات: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص168.

(2) عنان: نهاية الأندلس، ص460.

(3) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 557/1، واللّمحة، 44، 47-48، والمقّري: أزهار الرياض، 137/2-138، والناصري: الاستقصا، 38/3، وعنان: نهاية الأندلس، ص460، 461.

(4) الدّاية، محمّد رضوان: الأدب العربي في الأندلس والمغرب، مطبعة جامعة دمشق، 1984م، ص246. وانظر: بازجي، سراب: ملك غرناطة يوسف الثّالث، حياته وشعره، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1991م، ص33.

(5) عنان: نهاية الأندلس، ص460.

(6) انظر: القوسري: الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص235.

وسفيرها، وابن زمرك (796)، وأبي بكر بن عاصم، وأبي يحيى بن عاصم[1]. وكان كاتبُ سرّ يوسف الثالث الكاتبُ الشاعرَ أبا الحسين بن فركون، موضوع هذا البحث.

أمّا ما يمكن أن يُقال عن مأثرة بني الأحمر الكبرى ـ وهي بناء مدرسة غرناطة ـ فإنّه قد يعادل كلّ ما قيل عن اهتمامهم بالآداب والعلوم وتشجيعهم لها، وقد سبق ظهور هذه المدرسة محاولة لإقامة مدرسة في عهد مُحمّد الفقيه ثاني ملوك بني نصر[2].

ومدرسة غرناطة العلميّة أو المدرسة اليوسفيّة ـ كما كانت تُسمّى ـ هي ثالث مدرسة عُرفت في الأندلس بعد مدرستي قرطبة ومرسية[3]، بناها الملك أبو الحجّاج يوسف الأوّل عام (750)، وأمر أن تُوقف عليها الأوقاف الجليلة[4]، وعندما ارتفع بناء هذه المدرسة، نُقشت على بابها أبياتٌ لابن الجيّاب، وهي[5]:

يا طالبَ العلمِ هذا بابُهُ فُتِحا ... فادخلْ تشاهدْ سناهُ لاحَ شمسَ ضحى

واشكرْ مجيرَكَ في حِلٍّ ومُرتحَلٍ ... إذْ قرّبَ اللهُ منْ مرماكَ ما نَزَحا

وشرّفتْ حضرةَ الإسلامِ مدرسةٌ ... بها سبيلُ الهُدى والعلمِ قدْ وَضَحا

أعمالُ يوسفَ مولانا ونيّتُهُ ... قدْ طرّزتْ صُحُفًا ميزانُها رَجَحا

ونُقشت في إحدى جنباتها أبياتٌ لابن الخطيب، قال فيها[6]:

ألا هكذا تُبنى المدارسُ للعلمِ ... وتُبقى عهودُ المجدِ ثابتةَ الرسمِ

ويُقصدُ وجهُ اللهِ بالعملِ الرّضا ... وتُجنى ثمارُ العزِّ منْ شجرِ العزمِ

تفاخرُ منّي حضرةُ الملكِ كلّما ... تقدّمَ خصمٌ في الفخارِ إلى خصمِ

---

(1) انظر: الدّوسري: الحياة الاجتماعيّة في غرناطة، ص193-194.

(2) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 68/3، وعيسى، محمّد عبد الحميد: تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربيّ-القاهرة، ط1، 1982م، ص388، والفلوخي: مظاهر الحضارة، ص315-316.

(3) عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، ص390.

(4) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 516/1-517.

(5) المقّريّ: نفح الطيب، 457/5-458.

(6) السابق، 482/6، وأزهار الرّياض، 272/1.

فأجدى إذا ضنّ الغمام من الحيا ... وأهدى إذا جنّ الظلام من النّجم

فيا طالبًا للعلم يطلب رحلة ... كُفيت اعتراض البيد أو لجج اليمّ

ببابي حطّ الرحل لا تنو وجهة ... فقد فزت في حال الإقامة بالغنم

فكم من شهاب في سمائي ثاقب ... ومن هالة دارت على قمر تمّ

يفيضون من نور مبين إلى هدى ... ومن حكمة تجلو القلوب إلى حُكم

جزى الله عنّي يوسفًا خير ما جزى ... ملوك بني نصر عن الدين والعلم

وكانت هذه المدرسة في وقتها منهلاً للعلم، يرده الطّلبة من كلّ صوب، لينهلوا منه أصناف العلوم المختلفة على أيدي كثير من علماء ذلك العصر(1).

ولم تقتصر الحياة الفكريّة في المملكة على جانب واحد، بل تعدّدت واغتنت بما حقّقه ملوك غرناطة من استقرار وفّر لها الجوّ الملائم، فكثرت مؤلّفات الغرناطيّين، وتنوّعت اتجاهاتها، فكوّنت تراثًا عظيمًا يشير بوضوح إلى المنزلة المرموقة التي احتلّتها غرناطة، فصار لها «منزلة قرطبة في إنهاض الآداب والعلوم»(2).

غير أنّ الحُكم باستقرار الحياة الفكريّة والثقافيّة في غرناطة ـ بما فيه من تعميم ـ يحجب جانبًا من الحقيقة، فقد تأثّرت الحياة الفكريّة بسياسة بني الأحمر وبطبيعة حُكمهم، الذي دام ما يزيد على قرنين من الزّمان، وكانت قوّتهم فيه تتراوح بين مدّ وجزْر، وقوّة وضعف، وقد تنوّعت الحياة الفكريّة في المملكة، وكانت هي كذلك تتراوح بين مدّ وجزْر، فكانت تتّقد جذوتها في زمن الأمن والاستقرار، وتخبو في زمن الفتنة والاضطراب، وشهدت ذروة ازدهارها في القرن الثّامن الهجريّ.

لقد شهدت غرناطة في عهد بني الأحمر نهضةً أدبيّةً شعريّةً عمّت البلاد، ولاسيما في

---

(1) انظر: عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، ص400-407، والطّوخي: مظاهر الحضارة، ص316-317، وديب، محمّد الشّامي: الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء-القاهرة، ط1، 1998م، ص32.

(2) لين-بول، ستانلي: قصة العرب في إسبانيا، ترجمة عليّ الجارم، دار المعارف- مصر، 1947م، ص179.

القرن الثّامن الهجريّ[1]، فقد برز كثير من الشّعراء والكتّاب الغرناطيّين، من أمثال ابن الجيّاب (749)، وابن خاتمة الأنصاريّ (770)، وابن الخطيب (776)، وابن زمرك (796)، الّذين حدّدوا، بما صاغوه من شعر ونثر، مكانة الأدب الأندلسيّ في ذلك القرن، وفي كتب الأدب والتّراجم نماذج كثيرة من أدبهم[2].

وفي القرن التّاسع الهجريّ لمعت أسماء عدد من الشّعراء والكتّاب، حملوا لواء الأدب والثّقافة في غرناطة، وكان على رأسهم الشّاعر الملك يوسف الثّالث (820)، ملك غرناطة الثّالث عشر، الذي انتعشت الحركة الأدبيّة في عهده، فزخر بلاطه بعدد من الأدباء والكتّاب، ومنهم أبو بكر بن عاصم (829)، وابنه أبو يحيى بن عاصم، وأبو الحسين بن فركون، وأبو عبد الله الشّرّان الغرناطيّ.

وقد نبغ الغرناطيّون في قرض الشّعر، وكان ملوك بني الأحمر أنفسهم يقرضون الشّعر، ويهتمّون بنظمه، وبرز اهتمامهم بالشّعراء والأدباء والكتّاب، فجعلوهم يشغلون مناصب مهمّة في المملكة، فكثر الشّعر وتعدّدت أغراضه[3].

وكان للعلوم نصيب وافر من اهتمام الغرناطيّين، فازدهرت علوم الدّين على أيدي عدد من الفقهاء والمفسّرين والمحدّثين في غرناطة، ووُضعت المؤلّفات في الفقه[4]، وازدهر التّصوّف في هذا العصر، «نظرًا لما كان ينتاب المجتمع الإسلاميّ في الأندلس من قلق على المستقبل، وحسرة مريرة على ما كان يسقط من أراضي المسلمين في أيدي الإسبان، فوجد النّاس في التّصوّف تعزية وسلوة عن الحياة المحيطة بهم»[5].

وانتعشت علوم اللّغة العربيّة في تلك المرحلة، نظرًا لازدهار العلوم الإسلاميّة، فبرز

---

(1) انظر: القوسري: الحياة الاجتماعية، ص232، ودياب، عليّ: في الشّعر العربي الأندلسيّ والمغربيّ، منشورات جامعة دمشق، 1417/1996م، ص245.

(2) انظر في هذا الشّأن مؤلّفات ابن الخطيب (776)، وإسماعيل بن الأحمر (807 أو 810)، والتنبكتيّ (1036)، والمقّريّ (1041)، ففيها كثير من التّراجم لأعلام غرناطة.

(3) انظر: الطّوخي: مظاهر الحضارة، ص357-360، والقوسري: الحياة الاجتماعية، ص234، وما بعدها.

(4) انظر: القوسري: الحياة الاجتماعية، ص246-148.

(5) الطّوخي: مظاهر الحضارة، ص344.

عدد من النّحويّين واللّغويّين[1]. وكثر المُهتمّون بالتّاريخ والتّأليف فيه في تلك الحقبة، فبرز عدد كبير من المؤرّخين تركوا لنا مؤلّفات كثيرة في هذا المجال[2]، ودوّن الغرناطيّون مشاهداتهم في رحلات[3].

وتقدّم عند الغرناطيّين علم الفلك، فظهر العلماء، وأُلّفت المؤلّفات الخاصّة به[4]، أمّا الفلسفة فلم تكن من الدّراسات المرغوب فيها[5]، لذا قلّ عدد المشتغلين بها. وتقدّم علم الطّبّ في المملكة، وعُرفت أسماء كثير من الأطبّاء والعاملين فيه والمُهتمّين به[6].

لقد اغتنت هذه المرحلة بالعلوم والآداب على أيدي عدد من المُفكّرين والأدباء، الذين أسهموا في الحياة الفكريّة والثّقافيّة في مملكة غرناطة، وأغنوها بكثير من مؤلّفاتهم وكتاباتهم، وقد ترك الغرناطيّون أنفسهم كتب تراجم تزخر بأسماء الكثيرين، ممّن كان لهم الإسهام الواضح في حياة غرناطة.

وهكذا يتّضح أنّ الحياة الفكريّة والثّقافيّة في غرناطة قد نَمَت وزَهت بفضل ملوك بني الأحمر، وبما وفّروه لها من أمن واستقرار، فكانت حياة غنيّة بالعطاء.

* * *

هذا هو القسم الأوّل من الفصل الأوّل، تحدّثتُ فيه عن الحياة السّياسيّة في مملكة غرناطة، وأشهر رجالها وأبرز أعمالهم، وأحداث عصرهم. وبيّنت في الجانب الاجتماعيّ والاقتصاديّ منه، طبيعة المجتمع الغرناطيّ وعناصره، وأوجزت فيه الكلام على أحوال المملكة الاقتصاديّة، ومدى ما وصلت إليه في ميادين الزّراعة والصّناعة والتّجارة، وهي

(1) انظر: الطّوخي: مظاهر الحضارة، ص361.
(2) انظر: السّابق، ص362.
(3) انظر: السّابق، ص367.
(4) انظر: السّابق، ص370.
(5) انظر: السّابق، ص371.
(6) انظر: السّابق، ص372 وما بعدها.

مجالات عمل الغرناطيّين. وتحدّثت في الجانب الفكري والثقافي عن الآداب والعلوم وأنواعها في المملكة.

جاء هذا القسم ليُبيّن جوانب العصر، الذي عاش فيه ابن فُركون في غرناطة، ويأتي القسم الثّاني لبيان ملامح حياة ابن فُركون، التي جمعتها من ديوانه، ورتّبتها وفق ما اقتضت طبيعة هذا البحث.

2 - حياة ابن فُركون

لعلّ المصادر لم تضنّ على رجل كما ضنّت على الشّاعر ابن فُركون، ولم تكن أكرم من سَحاب الصّيف، الذي يتجمّع ثمّ يمضي دون أن يهمي بقطرة؛ إذ لم أقف على مصدر واحد يحدّثني عنه ولو عرضًا، ولولا النّسخة الوحيدة من مخطوط الدّيوان التي لم تسقط من يد الزّمان، لما عُرِف عن ابن فُركون خبر واحد حتّى يومنا هذا. فما كان الاعتماد إلاّ على ديوانه والمجموع الشّعريّ الذي تركه؛ لاستخلاص ملامح حياته التي عاشها في غرناطة، في أواخر القرن الثّامن الهجريّ وأوائل القرن التّاسع.

أ- اسمه ولقبه:

هو أبو الحُسين بن أحمد بن سُليمان بن فُركون القرشيّ النّسب الغرناطيّ الموطن. ويطمئنّ قارئ ديوان الشّاعر ومجموعه الشّعريّ «مظهر النّور الباصر في أمداح الملك النّاصر» إلى أنّ اسمه أبو الحُسين، ويؤكّد هذا تصديرُ الشّاعر ثلاث قصائد له في «مظهر النّور» بقوله مُتحدّثًا عن نفسه: «وأنشد مملوك مولانا أبو الحُسين...»[1]، كما ثبت في ديوانه - في مواضع عدّة منه - قصائدُ لمُعاصريه مُوجّهة إليه، خُوطِب فيها بأبي الحسين[2].

ويبدو أنّ التّسمية بالكُنى كانت مألوفة في أيّام الشّاعر، وقد أثبت في ديوانه نثرًا وقصيدة

(1) ابن فُركون: مظهر النّور الباصر في أمداح الملك النّاصر، مطبعة النّجاح الجديدة - الدّار البيضاء، 1991م، ص30، 47، 53.

(2) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص304-305.

لأبيه يتحدّث فيهما عن ابنه الشّاعر أبي الحُسين، وعن مولود له يُدعى أبا العُلا[1]، وللشّاعر نفسه مولود سمّاه أبا الطّاهر[2]. ويبدو أنّ ظاهرة التّسمية بالكنى استمرّت في دول المغرب العربيّ وشمال إفريقية حتّى يومنا هذا، على نحو ما هو معروف من أسماء، كاسْم الشّاعر التّونسيّ أبي القاسم الشّابيّ (1353).

وعُرف أبو الحسين بابن فُركون (بضمّ الفاء)، ورد هذا اللّقب في المصادر التي ترجمت لأبيه وجَدّ أبيه من غير ضبط، أو بفتح الفاء، حتّى ظهرت نسخة مخطوط «مظهر النّور»، التي كتبها الشّاعر بخطّ يده، وصلت إلى يد مُحقّقها ـ وهو مُحقّق الدّيوان ـ فأثبت أنّ ضمّ الفاء هو ما شاهده في النّسخة[3].

وفي الحقيقة استوقفني هذا الاسم (فُركون)، فرحتُ أبحث عن معناه، فلم أجد له أصلاً أو معنى في مصادر اللّغة العربيّة التي عدت إليها، فرجّحت أن يكون الاسم غير عربيّ.

وغَدَتْ فنظرت في الاسم نفسه، وافترضت أنّه مؤلّف من مقطعين: الأوّل اسم وهو (فرك)، والثّاني لاحقة وهي الواو والنّون (ون)، وهذا بالاعتماد على مظهر من مظاهر التّأثير الإسبانيّ في الأسماء العربيّة في الأندلس، وهو «إضافة المقطع الإسبانيّ الأخير الذي يتكوّن من الواو والنّون on بالإسبانيّة، للدّلالة على التّعظيم أو التّكبير، مثل: حَفْصون على حَفْص، وخَلْدون على خالد، وغَلْبون على غالب، وزَيْدون على زيد»[4].

والمُلاحظ أنّ الأسماء: حفصًا وخالدًا، وغالبًا وزيدًا، لها معان قبل أن تُضاف إليها اللاّحقة، غير أنّ الاسم (فرك) لا معنى له، وهذا ما ضعّف الافتراض السّابق.

ولعلّ ما يرجّح أنّ أصلَ هذا الاسم غيرُ عربيّ، وجودُ اسم يشبهه وهو فُرْتُون (Fortun)[5]

---

(1) ابن فركون: الدّيوان، ص384-385.

(2) السّابق، ص242.

(3) السّابق، ص242.

(4) العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، آثار البيئة الأوربيّة، مجلّة عالم الفكر، المجلد 10، العدد 2، 1979م، ص66. وقد عُرفت هذه الظّاهرة في اللّغة السّريانيّة كذلك، انظر: عبّو، أحمد ارحيّم: مدخل إلى اللّغة السّريانيّة، منشورات جامعة تشرين، مطبعة دار الكتاب، 1410-1411 (1989/1990م)، ص129.

(5) انظر: العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص65. وممّن كان لهم هذا الاسم فُرْتُون بن موسى =

وهو واحد من أسماء المُولَّدين، وهم جيل من الأبناء نتج عن زواج المُسلمين بالإسبانيات، ونشأ هؤلاء مُسلمين على دين آبائهم، وتزايد عددهم على عهد الدّولة الأموية، حتّى صاروا يكوّنون معظم سكّان الأندلس وأهل البيوتات منهم[1].

وعلى هذا الأساس أرجّح أنّ أسرة ابن فُركون (Forkun) هي من أُسَر المُولّدين.

ب- نَسَبُه:

أشار ابن الخطيب إلى نسب أبي الحسين، حين ترجم لجدّ أبيه قاضي الجماعة أبي جعفر بن فُركون القرشيّ (729)، فقال تحت عنوان «أوّليّته»: «وكفى بالنّسب القرشيّ أوّليّة»[2].

و«القُرشيّ» نسبة معروفة في الأندلس، أكّد وجودها ابن الخطيب عندما تحدّث عن سكّان غرناطة، وذكر أنّ أنسابهم «يكثر فيها القرشيّ والفهريّ والأمويّ ... وكفى بهذا شاهدًا على الأصالة ودليلاً على العروبة»[3].

ج- ولادته:

وُلد أبو الحسين بن فُركون في غرناطة عام (781) على الرّاجح. والدّليل على هذا أبيات من قصيدة نظمها أبو الحسين «في الجناب النّبويّ الكريم،...وقد أطلّ عام ثمانية عشر وثمانمئة»[4]، قال فيها[5]:

أَمِنْ بَعْدِ ما لاحَ المَشيبُ بِلِمّتي ... صَباحًا هَداني لَيْلُهُ وَهْوَ مُظْلِمُ

تَخيَّمَ وَخْطُ الأُنْسِ وَهْوَ بِمَفْرِقي ... أَزاهِرَ في خُضْرِ الرُّبا تَتَبَسَّمُ

لمعته في الفَوْدِ فِضّةَ ذوبه ... عَلى لِمّةٍ كادَتْ بِها تَتَلَثَّمُ

= القرويّ (260)، قاله فخر الأعمى. انظر: المقريّ: نفح الطّيب، 1/345، 351.

(1) انظر: العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص63، 65.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة، 1/159.

(3) السّابق، 1/135.

(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص322.

(5) السّابق، ص325-326.

وَمِنْ بَعْدِ ما مَرَّتْ ثَلاثُونَ حِجَّةً ... وَسَبْعٌ يُرامُ الأُنْسُ أَوْ يُتَوَهَّمُ
وَقارَبْتَ مِنْ مَرْمى الأَشُدِّ رَمِيَّةً ... تُقَرْطِسُها مِنْ حادِثِ الدَّهْرِ أَسْهُمُ(1)
وَصَوَّحَ مَرْعًى لِلشَّبِيبَةِ مُخْصِبٌ ... وَأَيُّ شَبابٍ مُونِقٍ لَيْسَ يَهْرَمُ

وبالاستناد إلى هذه الأبيات، التي أشار فيها إلى شبابه الذي بدأ يهرم بعد سبع وثلاثين حجّة، فإنّ هذا الرّقم 37 مطروحًا من الرّقم 818 وهو عام نظم القصيدة، ينتج عنه الرّقم 781، وهو العام الذي وُلد فيه على الرّاجح.

د- أسرته:

عرّفت المصادر باثنين من أسرته، ويُعرف كلٌّ منهما بابن فُركون، الأوّل جَدُّ والد الشاعر وهو أبو جعفر أحمد بن مُحمّد القرشيّ، المعروف بابن فُركون (729)، والثّاني والده وهو الكاتب القاضي أحمد بن سليمان بن أحمد بن مُحمّد بن أحمد القرشيّ (بعد 820).

ومَنْ يقرأ ديوان أبي الحسين يدرك أنّه منشغل بأمور مَليكه أكثر من انشغاله بحياته الخاصّة. ومع ذلك فإنّه يجد فيه إشارات إلى حياته الخاصّة، التي تبدو بسيطة اعتياديّة.

وأُولى هذه الإشارات ما وجدتُه في أبيات وجهّها الشّاعر إلى الملك يوسف الثّالث، قال في التّقديم لها: «لمّا وُلد لي الولد أحمد، حفظه الله، الذي لم يبق بقيد الحياة بهذا العهد من إخوانه غيره ... كتبتُ لمولانا أبي الحجّاج، رحمه الله...»(2)، وذَكَر في هذه الأبيات «عبدة المولى الهُمام»، التي يبدو أنّها زوجته. قال أبو الحُسين(3):

فَمَوْلايَ إِنَّ العَبْدَ قَدْ زادَ عَبْدَهُ ... خَدِيمٌ لِمَوْلايَ الرِّضا المُتَمَلِّكِ
أَتَتْ عَبْدَةُ المَوْلى الهُمامِ بِهِ فَمَنْ ... كِلا طَرَفَيْهِ صَحَّ حُكْمُ المُمَلَّكِ

(1) القرطاس: أديم يُنصب للنضال، ويسمّى الغرض قرطاسًا. وكلّ أديم ينصب للنضال، فاسمه قرطاس، فإذا أصابه الرّامي، قيل: قرطس، أي أصاب القرطاس، والرّمية التي تُصيب، مُقرطِسة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ق ر ط س).
(2) ابن فركون: الدّيوان، ص386.
(3) السّابق، ص386–387.

بقيت ومن رُحماك للخلق رحمة تلوذ بحيّ من نداها ومنسك

هذا ما يتعلق بزوجة أبي الحسين، التي لم يرد لها أيّ ذكر في موضع آخر من الدّيوان. أمّا ما يتعلّق بأولاده فإنّ في الدّيوان إشارات واضحة، يعرّفنا أبو الحسين من خلالها مَنْ وُلد له من أولاد.

أشار أبو الحسين أنّ ولدًا وُلد له في الثّاني والعشرين من ذي القعدة عام (815)، فأعلم به الملكَ يوسف الثّالث فسمّاه الملك باسمه يوسف[1]، وولد له ولدٌ آخر في الثّاني من صفر عام (817)، فما كان من والده أبي الحسين إلاّ أن أعلمَ به الملك فسمّاه أبا الطّاهر[2]، وولد له ولدٌ ثالث في السّابع من رجب عام (820) فسمّاه أبو أحمد، ولم يبق منهم على قيد الحياة في زمن الشّاعر غيره[3].

هـ - صلته بأدباء عصره:

كانت حياة أبي الحسين غنيّة بأحداثها متنوّعة بأعلامها، فقد أخبرنا في ديوانه عن أحداث وأشخاص، كانت له معرفة بهم أو علاقة معهم، وهم في مُجملهم من السّياسيّين والقادة والفقهاء والقضاة. وهذا أمر طبيعيّ لمَنْ يُولد لأب قاضٍ وكاتب في الدّيوان السّلطانيّ، ولمَنْ يتولّى هذا المنصبَ بعد أبيه، ومَنصبَ كتابة سرّ المَلك يوسف الثّالث.

ومنذ صغره كان على علاقة طيّبة بأهل العلم والأدب، وكانت بينه وبينهم مكاتبات، وأخبرنا عنهم في ديوانه، وهم: الفقيه أبو بكر بن الأيسر، وقاضي الجماعة الشّريف أبو العباس الحسنيّ، والشّريف أبو المعالي، والفقيه القاضي أبو عبد الله الأليريّ، والفقيه أبو زكريّا يحيى بن السّرّاج، والفقيه الكاتب أبو القاسم بن قطبة، والفقيه أبو عبد الله بن الأكحل، والقاضي أبو الفضل ابن جماعة.

وكان من معاصريه الذين أثبت لهم قصائد في «مظهر النّور»: الوزير أبو بكر بن عاصم، والوزير أبو يحيى بن أبي بكر بن عاصم، والفقيه الوزير أبو مُحمّد بن مليح، والفقيه الخطيب

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص241-242.
(2) السّابق، ص242.
(3) انظر: السّابق، ص386.

أبو القاسم بن سالم، وأبو عبد الله الشّرّان، والفقيه أبو الحسن بن هُذيل، وأبو جعفر بن أبي حامد بن الحسن النّباهيّ، والفقيه الأستاذ أبو عثمان الأكبريّ، والفقيه القاضي أبو القاسم بن حاتم، والفقيه أبو جعفر العربيّ، والفقيه أبو الحسن الغافقيّ، والفقيه أبو القاسم العراديّ، والشّريف عامر بن أبي منصور الحسينيّ المكّيّ.

و- مناصبه:

كان أبو الحسين عظيم الطّموح بعيد الغاية، تتوق نفسه أن تحظى بمكان في ديوان الكتابة في غرناطة، وبمقام لدى ملكها، فكان له ما تمنى، فعُيّن كاتبًا عام (808)[1]، ثمّ كُلّف بتنفيذ النّفقات المُخصّصة للغزاة عام (811)[2]، ثمّ عُيّن أخيرًا كاتب سرّ الملك يوسف الثّالث عام (814)[3]، وبقي في منصبه هذا حتّى وفاة الملك يوسف الثّالث.

ز- آثاره:

أبو الحسين بن فُركون كاتب سرّ ملك غرناطة يوسف الثّالث، وشاعره الذي اختصّ به، وقد ترك الكاتب الشّاعر أبو الحسين بن فُركون أثرين أدبيّين مُهمّين، عرّفانا به وبحقبة مهمّة من عمر مملكة غرناطة، وهما: كتاب «مظهر النّور الباصر في أمداح الملك النّاصر»[4]، والدّيوان[5]، وهما مصدرا شعره الوحيدان.

و «مظهر النّور الباصر في أمداح الملك النّاصر» مجموع شعريّ لابن فُركون، يشتمل على المدائح التي قيلت في الملك يوسف الثّالث وقصائد أخرى.

اعتمد المُحقّق مُحمّد بن شريفة النّسخة الأصليّة من هذا المجموع، وهي مكتوبة «بخطّ جامعها أبي الحسين بن فُركون ، شاعر يوسف الثّالث وكاتب سرّه»، وقد جمعها

---

(1) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص301.

(2) انظر: السّابق، ص124.

(3) انظر: السّابق، ص204.

(4) اعتنى بتحقيقه ونشره الدّكتور مُحمّد بن شريفة، وصدر عن مطبعة النّجاح الجديدة في الدّار البيضاء، عام 1991م.

(5) اعتنى بتحقيقه ونشره الدّكتور مُحمّد بن شريفة، وصدر عن أكاديميّة المملكة المغربيّة في الرّباط، عام 1987/1407م.

وكتبها بأمر من مولاه»[1].

ويعود تاريخ نَظْم أشعار المظهر وجَمْعها إلى عام (811)، وتكوّن في مجموعها السِّفر الثاني من مجموعة أسفار، طلب يوسف الثّالث إلى أبي الحسن أن يجمعها[2].

ضمّ هذا المجموع اثنين وستّين قصيدة، وإحدى عشرة قطعة، وموشّحين، وتخميسًا واحدًا، منها إحدى عشرة قصيدة وقطعة واحدة ليوسف الثّالث، وثماني قصائد وثلاث قطع وموشّحة واحدة لوالد أبي الحسن الشّيخ أحمد بن فُركون، وإحدى عشرة قصيدة وموشّحة واحدة لأبي الحسن، وبقيّة القصائد هي لمعاصري أبي الحسن، وهي مدائح في يوسف الثّالث.

أمّا الدّيوان فهو المصدر الثّاني لشعر ابن فُركون، وقد ضمّ جلّ شعره، إلى جانب أشعار ليوسف الثّالث، ولوالد أبي الحسن، ولمجموعة من معاصريهم.

وهو مُحقّق بالاعتماد على نسخة خطّيّة وحيدة[3]، في خزانة الأكاديميّة المغربيّة، وهي نسخة حديثة، لعلّها انتُسِخَتْ في آخر القرن الرّابع عشر الهجريّ، وهي مجهولة النّاسخ[4].

بلغ عدد ما ضمّه الدّيوان من شعر أبي الحسن مئة وإحدى وعشرين قصيدة، وثلاث عشرة قطعة، وإحدى وأربعين نُتفة، وبيتًا يتيمًا[5]، وأربع مُخمّسات، وقصيدة واحدة من الدّوبيت[6].

---

(1) ابن فُركون: مظهر النّور، مقدّمة المحقّق، ص15، 25.

(2) قال أبو الحسن في تقديمه لقصائد المظهر، مشيرًا إلى أمر الملك: «أوجب أن تُستفتح المقاصدُ بالثّناء عليه نظمًا ونثرًا ... وأن يكون كلّ سِفْر من المجموع الزّاهي باسمه وذكره، مُفتتحًا بالمعجب من خطّه وشعره» ص15، وقال كذلك: «وقفتُ، وقد شرّف مملوكه، بالوقوف على النّظم المتقدّم، في السِّفر الأوّل عني هذا الرّوي ....» ص113.

(3) لم يكن تحقيق الدّيوان بالمستوى اللّائق؛ فقد وقع المحقّق في أخطاء كثيرة. وقد حاولت استقصاء هذه الأخطاء، وتصويبها، في كلّ مرّة عرض لي خطأ منها.

(4) انظر: الدّيوان، المقدّمة، ص5.

(5) في الحقيقة ليس في ديوانه بيت يتيم، أمّا ما وُجد منه في الدّيوان فهو مطلع لقصيدة أو قطعة، وقد جاءت بعده ورقة بيضاء في نسخة الدّيوان المخطوطة. انظر: الدّيوان، ص389، حاشية390.

(6) بلغ عدد أبيات هذه القصيدة تسعةً وعشرين بيتًا مزدوجًا، منها اثنان وجّههما الملك يوسف إلى ابن =

ويبدو أنّ أبا الحُسين قد جمع هذا الدِّيوان بعد وفاة يوسف الثّالث من ذاكرته، ومن مُبيَّضات كانت بين يديه، وقد أغنى ابن فُركون أشعاره بكثير من الأخبار والإشارات التّاريخيّة، التي تُبرز جوانب من حياة مملكة غرناطة في السّنوات التي عاشها أبو الحُسين فيها[1].

ح- وفاته:

لمّا تُوفّي الملك يوسف الثّالث عام (820) كان ابن فُركون قد بلغ من العمر تسعة وثلاثين عامًا، وفي العام ذاته كان والده حيًّا وقد بلغ من العمر ثلاثة وسبعين عامًا، وآخر خبر ذكره أبو الحُسين عن والده في الدِّيوان قوله: «والشّيء بالشّيء يذكر، كان مولاي الوالد – أبقاه الله – قد سافر إلى موضع قضائه ... فكتب إليّ ما نصّه: أريت في آخر ليلة السّادس والعشرين من شوّال عام عشرين وثمانمئة ...»[2]. وهذا آخر خبر رواه أبو الحسين عن نفسه، ولا يشير إلى أمر نهايته، أو إلى ما وقع في غرناطة.

والرّأي في نهايته إمّا أنّه قُتل في الاضطرابات التي وقعت في عهد مُحمّد المُلقّب بالأيسر ابن يوسف الثّالث، الذي نُصّب وخُلع غير مرّة، وهو رأي ضعيف، وإما أنّه بقي في غرناطة واعتزل السّياسة والنّاس، ولزم داره وتفرّغ لجمع ديوانه، وإما أنّه رحل عن غرناطة مع مَنْ رَحل عنها إلى المغرب.

وبهذا الرّأي في تحديد نهاية ابن فُركون أكون قد رسمتُ الخطَّ الأخير من ملامح حياته، بالاستناد إلى الأخبار القليلة المتناثرة في ديوانه، وقد كان التّقدير سبيلي في عدد من الأحكام، فهي لا تبلغ درجة اليقين أو القطعيّة، حتّى تؤكّدها مصادر أخرى، قد يجود بها الزّمان.

• • •

= فُركون ليحفظ عنهما قصيدته، وهي منظومة على حروف المعجم، على التّرتيب التّالي: (أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و لا ي). انظر: الدِّيوان، ص233.

(1) انظر ملحق الجداول: جدول ترتيب الأحداث التي وثّقها ابن فركون في ديوانه ومظهر النّور.

(2) ابن فُركون: الدِّيوان، ص384.

جاء الفصل الأوّل من هذه الدّراسة، ليعرض في القسم الأوّل منه جوانبَ من الحياة السّياسيّة، والاجتماعيّة والاقتصاديّة، والفكريّة والثّقافيّة في مملكة غرناطة، موطن الشّاعر ابن فُركون، موضوع هذا البحث.

وجاء القسم الثّاني من هذا الفصل ليرسم خطوط حياة ابن فركون التي عملت على رسم ملامحها استنادًا إلى المعلومات القليلة الموجودة في الدّيوان.

ويأتي الفصل الثّاني من هذه الدّراسة ليتناول بالعرض والدّرس أغراض شعر ابن فُركون، التي نظم فيها القول.

الفصل الثاني
أغراضُ شعرِ ابنِ فُركون

1 - المدح
2 - الشّعر السّياسيّ
3 - الوصف
4 - الغزل
5 - الإخوانيّات
6 - الهجاء
7 - الرّثاء
8 - أغراض أخرى

الفصل الثاني
أغراض شعر ابن فُركون

كثر الشّعر في مملكة غرناطة وتنوّع، ونَظَم شعراء المملكة أشعارهم في أكثر الأغراض، فحاكوا قصائدهم بمناسبة أو بغير مناسبة، «إلاّ أنّ نوعًا من التّباين يبدو فيما بينهم، عند التّعامل مع غرض ما، من حيث الإكثار منه أو الإقلال»[1].

وقد وصلنا شعر غرناطيّ كثير عن طريق المصادر، التي تحدّثت عن حقبة قيام مملكة غرناطة، غير أنّ هذه المصادر لم تتحدّث عن الشّاعر أبي الحُسين بن فُركون، ولم يشر أيّ منها إلى ديوانه، أو أيّ شيء من شعره، ولعلّ هذا بسبب الاضطراب السّياسيّ الذي عاشته غرناطة في الحقبة التي عاش فيها ابن فُركون، وهذا أدّى إلى ضياع مصادرها، وإهمال ذكر أعلامها.

وكان من حُسن الحظّ أن ظهر إلى الوجود ديوانُ ابن فُركون، وتلاه في الظّهور كتابُه «مظهر النّور»، فعرفنا شعره المجموع في هذين المصدرين.

وقد تناول ابن فركون في شعره عددًا من الأغراض، ووزّعتُها في هذا الفصل بحسب أهمّيّتها، ومدى عناية ابن فركون بكلّ واحد منها، وجاء ترتيبها على هذا النّحو: المدح، الشّعر السّياسيّ، الوصف، الغزل، الإخوانيات، الهجاء، الرّثاء، المديح النّبويّ، الحكمة، الفخر.

1 - المَدْحُ

يُعدّ غرض المدح أضخم أبواب الشّعر العربيّ[2]، وهو ينبعث من الرّغبة التي هي إحدى

(1) الحسيني، قاسم: الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ، موضوعاته وخصائصه، الدّار العالميّة للكتاب–الدّار البيضاء، والدّار العالميّة–بيروت، ط1، 1986، ص65.
(2) البدويّ، أحمد أحمد: أسس النّقد الأدبيّ عند العرب، دار نهضة مصر–القاهرة، 1979، ص212.

مثيرات العاطفة، ومهما قيل عن هذا الغرض من سلبيّات؛ فإنّ من جوانبه الإيجابيّة التي لا يُمكن إنكارها أنّ الشّاعر في مديحه، إنّما يصوّر ما ينبغي أن يكون عليه الممدوح من الجلال والعظمة، وكأنّه يسعى من خلال ذلك إلى تجسيد المُثُل العُليا التي يؤمن بها، «وربّما كان لهذه المُثُل العُليا، أثرُها في نفوس قرّائها، وفي هداية النّاس إلى العمل بما يصل إلى تحقيقها، فإنّ للشّعر أثره في هزّ النّفوس وتحريكها»[1].

وليس كلّ شعر المديح باعثه التّكسّبُ وطلبُ النّوال فقط؛ إذ منه ما يكون مبعثه الإعجاب بالممدوح وبطولاته، كما هو الشّأن في «سَيفيّات المُتنبّي» و«ثغريّات أبي تمّام والبحتريّ»، وما قاله الشّعراء في المناسبات الخالدة كالفتوح ونحوها، ممّا كان في العصر العبّاسيّ[2].

والمديح في القصيدة العربيّة هو الوثيقة الباقية الدّالّة على ما كان في العرب من كرم الشّمائل والخصال، و«الشّاعر الكاذب يقف كذبه عند حقيقة ممدوحه، ولكنّه من الوجهة الاجتماعيّة صادق كلّ الصّدق، لأنّه يصوّر ما يشتهي ممدوحه أن يتّصف به من كرائم الخلال»[3].

وفي ضوء التّصوّر الصّحيح لحقيقة غرض المديح؛ ما يُسهم في كبح جماح الاتّجاه الذي يدعو إلى الحطّ من شأن هذا الغرض في الشّعر العربيّ، بتهمة أنّه شعر كاذب مُتملّق، وهو خطأ نقديّ نشأ بسبب الأحكام العامّة، التي تفتقد عنصر الموضوعيّة.

ولم يكن الشّعر الأندلسيّ بعيدًا عن انتهاج طريق المديح، وذلك لتشابه الظّروف السّياسيّة والاجتماعيّة، التي تساعد على نموّ هذا الفنّ وتطوّره، ولهذا فقد نظم الأندلسيّون المدائح وأكثروا منها، ولم يختلف الأمر كثيرًا لديهم عمّا لدى المشارقة، فقد نسجوا مدائحهم على منوالهم، فهي «من حيث المضمون أو المحتوى، لها جانبان: جانب يرسُل الصّفات التي يخلعها الشّعراء على ممدوحيهم، وهذه لا تخرج عادة عن الصّفات التّقليديّة التي يطيب للعربيّ أن يوصف بها، كصفات المروءة والوفاء والكرم والشّجاعة وما أشبه، أمّا الجانب

(1) البدوي: أسس النّقد الأدبيّ عند العرب، ص214.
(2) انظر: بدويّ، عبده: دراسات في النّصّ الشّعريّ (العصر العبّاسيّ)، دار قباء–القاهرة، 2000، ص40.
(3) طبانة، بدوي: التّيّارات المعاصرة في النّقد الأدبيّ، دار الثّقافة–بيروت، 1405/1985، ص156.

الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تعدّ نصرًا للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك أحيانًا وصف جيوشهم ومعاركهم الحربيّة»[1]، وبذلك فقد استطاعت المدحة الأندلسيّة أن تجسّد «القيم العربيّة الكبرى في معاني المدح... وطُبعت هذه القصيدة بطابع البيئة الأندلسيّة، من خلال ذكر الأماكن الأندلسيّة في مُقدّمات تلك القصائد، بالإضافة إلى أنّ طبيعة الأندلس عنصر فعّال في إكساب هذه القصيدة هُويّة أندلسيّة مُميّزة»[2].

أمّا من حيث الصّياغة «فقد تأنّق الأندلسيّون في صياغتها غاية التّأنّق، ونوّعوا في أساليبها بين الجزالة والفخامة والرّقّة والسّهولة، طبقًا لما تقترحه عليهم طبيعة المعاني»[3]، وبذلك «التقى الأندلسيّون في بناء قصيدة المدح مع القُدماء في تعدّد الموضوعات، وخالفوهم في نوعيّتها إلى حدّ ما، لأنّ لكلّ زمان موضوعاته التي يستطيع الشّاعر أن يحوز الإعجاب، ويستميل ممدوحه للعطاء أو نيل الحظوة عنده»[4].

وتابع الغرناطيّون مسيرة سابقيهم في المدح، وأكثروا منه؛ حيث وجد المدح في مملكة بني الأحمر بيئة خصبة للنّموّ والتّطوّر، فكان من أهمّ الأغراض في شعر المرحلة[5]، حيث دعت الضّرورة إلى وقوف الشّعراء إلى جانب الملوك والأمراء لتقوية مراكزهم في الحُكم وتدعيمها؛ إمّا بدافع الحبّ والإخلاص، وإما لنيل الحظوة والجاه لديهم، فمدحوهم بقصائد متعدّدة تؤكّد شرعيّة خلافتهم ورضا النّاس عنها[6]، فبرزت أسماء مجموعة من الشّعراء الموظّفين لهذه الغاية[7].

---

(1) عتيق، عبد العزيز: الأدب العربيّ في الأندلس، دار النّهضة العربيّة–بيروت، 1976، ص183.

(2) الموسى، فيروز: قصيدة المديح الأندلسيّة بين التّجديد والتّقليد، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، 1992، ص448.

(3) عتيق: الأدب العربيّ في الأندلس، ص186.

(4) السّابق، ص187.

(5) سرميني: خصائص الشّعر الأندلسيّ في عصر غرناطة، رسالة ماجستير، جامعة حلب، 1406/1986، ص28، وضيف، شوقي: عصر الدّول والإمارات، الأندلس، دار المعارف–مصر، (د.ت)، ص186، والحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص65، والواتيّ، رعد ناصر: الشّعر الأندلسيّ في عهد بني الأحمر، صور جهاديّة بطوليّة، مركز عبادي للدّراسات والنّشر–صنعاء، ط1، 1412/2000، ص42.

(6) انظر: الواتيّ: الشّعر الأندلسيّ في عهد بني الأحمر، ص42–43.

(7) انظر: روبيرا متي، ماريا خيسوس: الأدب الأندلسيّ، ترجمة أشرف علي دعدور، المجلس الأعلى =

واتّقدت جذوة هذا الشّعر نتيجة الصّراع الذي كانت غرناطة تعيشه مع جيرانها الإسبان[1]، فقد كان ملوك غرناطة بحاجة حقيقيّة لهذا الغرض، فكانوا حريصين على جذب الشّعراء، وتحفيزهم على قول الشّعر فيهم وتمجيدهم، ووصف معاركهم وذكر مآثرهم، فاهتمّوا بهم وشجّعوهم، فعُرف منهم ابن الجيّاب (749)، وابن الخطيب (776)، وابن زمرك (796)، وابن فُركون.

ولم يتخلّف ابن فُركون عن الجري في هذا المضمار، بل إنّه كان من السّبّاقين المُبرّزين، ووقف مدحه على يوسف الثّالث، مليكه ووليّ نعمته تقرّبًا منه، وهذا سبيله وسبيل من أراد من الشّعراء أن يصل إلى المجد الأدبيّ والمكانة الاجتماعيّة[2]، وهكذا نال ابن فُركون بغيته عندما ألحق بديوان الكتابة، ثمّ صار شاعر الحمراء في عصره.

ولمّا كان نصيب شعر ابن فُركون المدحيّ أوفى وأوفر، وأغزر وأشهر، كان من المُناسب أن يُخصّ بدراسة واسعة، يُفتتح بها الكلام على أغراضه الشّعريّة[3].

فالمدح عند ابن فُركون أهمّ أغراض شعره، وهو موقوف على الملك يوسف الثّالث، لم يتحوّل بهذا الغرض عنه إلى غيره من الملوك والأمراء[4].

وظهرت المدْحة عنده مُتّصلة بحياته اتّصالاً وثيقًا، وحدّدت ملامحها، وأبرزتها في صورة واضحة المعالم. واتّصالُها هذا دعا إلى تقسيمها من حيث زمان نظمها إلى مرحلتين: بدأت الأولى مع تولّي يوسف الثّالث أمورَ الحُكم في غرناطة عام (811)، وكان ابن فُركون

=الثقافة - القاهرة، 1999، ص151، وما بعدها.

(1) انظر: عتيق: الأدب العربيّ في الأندلس، ص120.

(2) انظر: غومس، غارسيا: الشّعر الأندلسيّ، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، 1956، ص105.

(3) يعدّ المدح أهمّ غرض عند كلّ من ابن الجيّاب ولسان الدّين وابن زمرك. انظر: النّقراط، مُحمّد عليّ: ابن الجيّاب الغرناطيّ، حياته وشعره، الدّار الجماهيريّة للنّشر والتّوزيع والإعلان-ليبيا، ط1، 1984، ص137-138، وابن الخطيب: الدّيوان، مقدّمة المُحقّق، 1/31-32، والحمصيّ، أحمد سليم: ابن زمرك الغرناطيّ، سيرته وأدبه، مؤسّسة الرّسالة-بيروت، ودار الإيمان-طرابلس، ط1، 1405/1985، ص123-124.

(4) مدح ابن فُركون مُحمّدًا وليّ العهد في قصيدة واحدة جمعت المدح والرّثاء، وهي لا ترقى إلى مستوى مدائحه في يوسف الثّالث. انظر: الدّيوان، ص382.

وقتئذ فتًى طامحًا إلى المعالي يتحيّن فرصته المناسبة؛ فوجّه إلى الملك قصيدة هنّأه فيها بمنصبه الجديد، قال في مطلعها(1):

إليكَ تباشيرُ البشائرِ مُقبِلَةْ ... تلوحُ بآفاقِ الهُدى مُتهلِّلَةْ

وأشار ابن فُركون في هذه القصيدة إلى امتلاك يوسف زمام الأمور في غرناطة، فهنّأه ودعا له، ووصفه بالعدل والهدى، فقال(2):

فهُنِّئتَ ما استقبلتَ يا ملكَ الهُدى ... من العزِّ لا زالتْ سعودُكَ مُقبِلَةْ

لقدْ قلَّدَ الرَّحمنُ أمرَ عبادِهِ ... إمامًا لهُ في العدلِ أرفعُ منزِلَةْ

إمامُ هُدًى قدْ شرَّفَ المُلكَ باسمِهِ ... كما شرَّفَ السَّيفَ اليمانيُّ مَحمِلَهْ

وبعد أن أسبغ ابن فُركون على الملك الجديد كثيرًا من الصّفات العظيمة لمّح إلى طلبه، ونبّه على حاجته(3):

فعبدُكَ يُهديها إليكَ رسالةً ... أبى اللهُ أنْ تُلفى بجودِكَ مُهمَلَةْ

أليسَ أتتهُ رِفدُ ما قدْ وعدتَهُ ... قديمًا ويبلغُهُ الذي منكَ أمَّلَهْ

نداكَ غمامٌ والأنامُ حديقةٌ ... بهِ قدْ غدتْ أدواحُها مُتهدِّلَةْ

وما يميّز بين المرحلتين ويدعو إلى هذا التّقسيم من حيث الموضوع مسألةُ «الطّلب» في المدْحة، وهي ظاهرةٌ في هذه القصيدة، وظاهرةٌ كذلك في قصيدة ثانية شفع بها الأولى، قال فيها(4):

بحقِّكَ يا مولايَ لا تنسَ عهدَ منْ ... يُحادثُ مولاهُ بأفكارِهِ سِرّا

فكمْ باتَ في جمرِ الغضى مُتقلِّبًا ... وذكرُكَ يُذكي في جوانحِهِ جمْرا

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص103.
(2) السابق: ص103.
(3) السابق: ص104.
(4) السابق: ص106.

إلى أن رأى ذاك المحيا فأصبحت ... صدورُ القوافي تشرحُ القلبَ والصدرا

ولعلّ ابن فُركون ذكّر مولاه الملك في هذه القصيدة بأمرٍ كان بينهما، ولمّح إليه قبل أن ينهي مدحته، فقال مُشيرًا إلى مقصدها[1]:

وَمَقصِدُها مِنكَ القَبولُ فَجُدْ بِهِ ... لِعَبْدٍ مُحِبٍّ أَخلَصَ السِّرَّ والجَهْرا

وكان ابن فُركون يطلب في إلحاحٍ وإلحافٍ، فإن تأخّر الجواب أعاد الطّلب بتذلّل ورجاء، فقال [2]:

وَلكِنَّ يا مَولايَ أَمرُكَ نافِذٌ ... فَما بالُهُ في مَطلَبِ العَبْدِ يُبطِئ؟[3]

إِذا لَمْ يُوَصِّلْ مِنْ جَنابِكَ مُنْجِحًا ... إِلى أَيْنَ يا مَولى الخَلائِقِ يَلْجَأُ؟

وَلَمْ يَجْنِ مِنْ رَوضِ المُنى زَهْرَ رِفْدِهِ ... فَأَيُّ ظِلالٍ لِلنَّدى يَتَفَيَّأُ؟

وتحقّق لابن فُركون ما سعى إليه، فحاز المنصب ونال الحظوة، وأظلّه الملك بظلّه، وأسبغ عليه من نواله الغمر، فأشار إلى هذا قائلا[4]:

بَلَغْتُ لَعَمْري بِما نِلْتُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ لي مِنْ بَعدِها مَطْلَبُ

فَلا بِحَبيبِ النَّومِ لي مَقْصِدٌ ... وَلا صارِمٌ زَنْدُهُ يَغْضَبُ

وعاد ابن فُركون فأكّد ذلك في قصيدة أخرى، فقال[5]:

وَها أَنا يا مَولايَ قَصْدي مُبَلَّغٌ ... بِما كُنْتُ أَرْجوهُ وَتَجْري رابِحُ

وَرِزْقي مُقَدَّرٌ وَأُفْقي نَيِّرٌ ... وَرَوضي مَمْطورٌ وَزَهْري نافِحُ

وبتحقّق مسعى ابن فُركون ونيله ما أراد انتهت المرحلة الأولى من المدحة، وإذ اختفت

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص106.

(2) السابق، ص125.

(3) ضبط محقق الديوان صدر البيت كالآتي: «فلكنْ يا مولاي أمرك نافذٌ»، وهذا خطأ واضح.

(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص109.

(5) السّابق، ص111.

منها في المرحلة الثّانية مسألة «الطّلب»، ولم يظهر فيها مطلب واضح مُحدّد يرفعه إلى الملك، وغدت المدحة نوعًا من الاعتراف بالولاء للملك والطّاعة له، واتّخذت شكلها النّهائيّ في هذه المرحلة، وهي كسابقتها نُظمت في مناسبات.

كانت المدحة ذات صلة بحياة ابن فُركون، فأبانت جوانب منها، وظهر من خلالها ما أشار إلى اهتمام الملك يوسف بشاعره، وحرصه على صحبته، ودعوته إلى مرافقته في زياراته ورحلاته. وفي المقابل كان ابن فُركون مُهنّئًا بمليكه، فلم يدع عيدًا يمرّ إلا أنشده شعرًا يمدحه فيه[1]، ولم يترك مناسبة شخصيّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة أو حربيّة إلاّ ونظم للسّلطان فيها مدحة طنّانة»[2]، فكان ينتهز الفرص ليقدّم له الشّكر فيها على هديّة أو كسوة، أو يدعو له بالشّفاء من مرض ألمّ به[3].

ويمكن دراسة المدحة عند ابن فُركون وشعراء غرناطة بوصفها صورة جهاديّة بطوليّة في غايتها العامّة، من دون أن تخفى غاياتها، ومطالبُ الشّعراء من ورائها؛ فقد سعى شعراء غرناطة - ومن بينهم ابن فُركون - إلى «إماطة اللّثام عن الوجه المشرق لصفات الممدوحين المعنويّة منها والحسّيّة، التي وُظّفت هي الأخرى لتدعيم مفهوم الجهاد، والإشارة إلى أنّها الميزان، الذي يُقاس عليه مدى نُبلهم، وصحّة معتقداتهم»[4]، فوصفوهم بصفات كثيرة، هي في مجملها الصّفات ذاتها التي يتغنّى بها المادحون.

وأهمّ هذه الصّفات التي أسبغها ابن فُركون على ممدوحه الشّجاعة؛ وهي أُولى الصّفات التي تغنّى بها أبو الحسين بن فُركون في ممدوحه، فهو يعرف قيمتها وقيمة المدح بها،

---

(1) نظم ابن فُركون عيديّات هنّأ فيها الملك بعيدي الفطر والأضحى، بلغ عددها تسع عشرة عيديّة في عشرة أعوام، من عام (811) إلى عام (820)، وهي مرحلة حكم يوسف الثّالث، نظم ابن فُركون في كلّ عام عيديّتين: واحدة في عيد الفطر وواحدة في عيد الأضحى، ماعدا العام الأخير (820)، فعيديّة واحدة في عيد الفطر، نظمها لتهنئة الملك بالعيد ولم ينشدها، لأنّ الملك طالته يد الموت.

عدد أبيات أطول عيديّة 94 بيتًا، وعدد أبيات أقصرها 43 بيتًا. وهي في حقيقتها مدائح نظمها الشّاعر بمناسبة العيد، وهي تتخذ شكل المدحة ومضمونها. (انظر ملحق الجداول: جدول العيديّات).

(2) ضيف: عصر الدّول والإمارات، الأندلس، ص187.

(3) انظر ملحق الجداول: جدول ترتيب الأحداث التي وثّقها ابن فُركون في ديوانه ومظهر النّور.

(4) الواعي: الشّعر الأندلسي في عهد بني الأحمر، ص44.

وهي تمثّل إحدى الفضائل التي يجب على الشّاعر أن يمدح بها، فقد قصَر قدامة بن جعفر (337) معاني المديح، التي يجب أن يمدح بها الشّاعر على الفضائل النّفسيّة، وأصولها عنده: العقل والشّجاعة والعدل والعفّة وما يتفرّع عنها، ويؤكّد أنّ جودة المدح تقتضي من الشّاعر أن يمدح بتلك الفضائل الأربع، فإن مدح بغيرها كان مُخطئاً(1).

ومن الطّبيعي أن تكون صفة الشّجاعة أُولى صفات الملك، أو أُولى ما يجب أن يتحلّى به ملك مملكة مثل غرناطة، يُحدق بها الخطر من كلّ ناحية وفي كلّ حين، فإذا مدح الشّاعر مليكه بالشّجاعة تجلّت في شعره صورة القائد الشّجاع والبطل المظفّر، الذي يشنّ الغارات على أعدائه، فيملك أرضهم(2):

سَتَنْهَضُ لِلْغاراتِ خَيْلاً مُغيرةً ... تَطيلُ ارْتِياحاً وَهيَ ما لازَمَتْ خَمْرا

وَما ذاكَ إلاّ حَيْثُ أَنْتَ مَليكُ ... قَواعِدَها طَوْعاً وَكُفّارُها قَهْرا

فَلَّ عَلَيْهِمْ في لَظى الحَرْبِ مُرْهَفاً ... فَتُورِدُهُمْ مِنْهُ عَلى ظَمَأٍ نَهْرا

احتلّت هذه الصّفة المكانة الأولى في عصر الشّاعر، فالزّمان زمان حروب وحصار، وفي مدحه بهذه الصّفة تعزيز لقوّة الملك وإثارة لحماسة المقاتلين، الذين يجدون في شجاعة الملك وشدّة بأسه ما يُخضع الأبطال له، وهذا من باب تصوير الشّجاعة بتصوير شجاعة الخصوم، وإلى مثل هذا أشار بقوله(3):

وَهَلْ تَخْضَعُ الأَبْطالُ إلاّ لِيُوسُفٍ ... إذا هُوَ يَوْمَ الرَّوْعِ جَرَّدَ مُنْصُلَه

الشّجاعة هي أهمّ صفة أعجبت ابن فركون في ممدوحه، فسعى إلى ملء نفوس سامعيه بقدرته، وشغل عقولهم ببراعته، وكان إذا مدح الملك بالشّجاعة في المعارك صوّر المعارك ووثّقها، وبيّن فعل سيف الملك وجنده بأعدائه(4):

(1) انظر: قدامة بن جعفر (337): نقد الشّعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي–القاهرة، ط3، 1978/1398، ص66.
(2) ابن فركون: الديوان، ص105.
(3) السّابق، ص103.
(4) السّابق، ص157.

وسيفك سيف الله إذ حلّ ربعها ... أباح به جمع العدا وأبادهُ

وجندك جند الله قد حلّ حوزة ... يسلّ ظُباهُ أو يهزّ صعادهُ

وتردّدت أصداء الشّجاعة في مدائح ابن فُركون كلّها، مُشيرًا فيها إلى قوّة الملك المُسخّرة للدّفاع عن غرناطة.

وكلّما أراد ابن فُركون إثارة حميّة الملك ذكّره بأرومته الطّيّبة، ومَحْتده الكريم، وعراقة نَسبه[1]، فقد وجد ابن فُركون في نسب بني الأحمر، سبيلاً إلى مدح الملك سليل الأنصار، فهو[2]:

مِنَ النّفرِ الغُرِّ الّذينَ زعيمُهُمْ ... لإكبارها تعنو النّسورُ مكمّلهْ

وقد أكّد ابن فركون في مدائحه، أنّ انتساب الملك يوسف الثّالث إلى الأنصار مجدٌ عظيمٌ تليدٌ، أصّله منذ سنين جدّه قيس بن سعد[3]:

لكَ المجدُ في الأملاكِ يُروى حديثُهُ ... وقيسُ بنُ سعدٍ في القديمِ تأثّلَهْ

وانتماء الملك إلى الأنصار الخَزْرجيّين مصدر فخره، الذي يُفاخر به أعظم قبائل العرب، وإلى هذا أشار ابن فركون بقوله[4]:

للخزرجيّينَ الأُلى لكَ نسبةٌ ... طاولتَ بها ذُبيانَها أوْ عبسَها

إنّه الملك يوسف الثّالث، ابن الأنصار المؤيّدين بكلام الله في مُحكم تنزيله، ذوي الفضل العظيم في حمل راية الإسلام، ونصرة النّبيّ الكريم ﷺ[5]:

---

(1) أعادت المصادر نسب بني الأحمر إلى الصّحابيّ الجليل سعد بن عبادة سيّد الأنصار. (انظر: ابن الخطيب: اللمحة، ص22، والإحاطة، 92/2، والمقّري: نفح الطّيب، 447/1). وكان للأنصار شأن عظيم في تأييد الدّعوة الإسلاميّة وحمايتها ومؤازرتها في المدينة، نزل في حقّهم قوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف، 157).

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص104.

(3) السّابق، ص104.

(4) السّابق، ص146.

(5) السّابق، ص104.

فآباؤكَ الأنصارُ جاءتْ بذكرِهِمْ ... لنا سُوَرٌ في مُحكَمِ الذِّكرِ مُنزَلَةْ

هُمُ أوضحوا نهجَ الهدايةِ للورى ... وهُمْ نصروا دينَ الإلهِ ومُرسِلَهْ

ولعلّ ابن فُركون قد سعى من وراء هذا التّذكير إلى غاية تتمثّل في «بعث الهمم الرّاكدة لقتال الأعداء، والدّعوة إلى الاقتداء بسيرة السّلف في حسن صُنعهم، وتمسّكهم بدينهم»(1)، فلم يغفل عن ذكر قوم الملك، وما كان لهم من جهاد عظيم في وقائع الإسلام الكبرى الحاسمة(2):

شِيَمٌ لأنصارِ الرّسالةِ تنتمي ... إنْ عُدِّدَتْ لا ينقضي تعديدُها

فآثارٌ لهمْ ومآثرٌ ... يَبلى الزّمانُ ولا يزولُ جديدُها

فبهمْ أُبيدَتْ في اليمامةِ أُمّةٌ ... غمضتْ بهمْ طوعَ الضّلالةِ بِيدُها

وليومِ بدرٍ بادروا فاستأصلوا ... فئةً تمادى كفرُها وجحودُها

كان ابن فُركون يذكّر في مدائحه بأصل الملك وانتسابه إلى «طيبة» مدينة النّبوّة، وهو يعرف موقعها في نفوس المسلمين، وأثر ذكرها في تحريك مشاعرهم، وكان هذا سبيله إلى الفوز بتعاطف سامعيه مع الملك، وتأييدهم له(3):

رأى المصطفى منْ سعيهمْ أنّ نقلَهُ ... بمكّةَ يُغني عنْ كثيرٍ ويُجزئُ

كفى بكتابِ اللهِ تمدحًا لأسرةٍ ... بطيبةَ منهمْ طابَ أصلٌ ومنشأُ

وكما كان هذا «التّوكيد على نسب الممدوح من أُولى موجبات الحثّ على الجهاد»(4)، كان أيضا شيئًا لدعائم الدّولة وتمكينًا لأسسها، وتوطيدًا للنّظام الاجتماعيّ القائم ومكانة الملك على قمّته، فحاول خلق الإحساس باستمرار الأسرة الحاكمة وبقائها، وصار ذكر نسب الممدوح لازمةً موسيقيّةً مرافقةً، غايتُها تأكيدُ حقّ الأسرة الحاكمة في الخلافة، وطبع

(1) الواثلي: الشّعر الأندلسي، ص57.
(2) ابن فركون: الدّيوان، ص218.
(3) السّابق، ص125.
(4) الواثلي: الشّعر الأندلسي، ص57.

هذا الحقّ بطابع القدسيّة والشّرعيّة.

وظلّ ابن فُركون يذكر أمجاد الآباء والأجداد ليستكمل صورة الشّجاعة، فلم يغفل عن مدح شجاعة قوم الملك، ولم ينس الإشارة إليها كلّما سنحت له الفرصة، وظلّ يؤكّد أنّ الملك شجاع، ينتمي إلى أسرة لها من المحامد ما أشاد الله تعالى بذكره في كتابه العزيز، وقومه كما يراهم ابن فركون شجعان بسلاء، فهم أسود في الحرب، وأراقم في السّلم[1]:

مَنْ ذا يُضاهي في المكارم أسرةً | في الذّكر قد ذكر الإلهُ خلالَها؟
قومٌ إذا لبسوا الدّروعَ حسبتَهم | أُسْداً حَمَتْ في غيلها أشبالَها
وإذا نضوها عنهم فأراقمٌ | ألبستْ على أجسامهم أشكالَها

وممّن أشاد ابن فُركون بذكرهم الغنيُّ بالله مُحمّد الخامس جدُّ الملك، الذي كان من أعظم ملوك بني الأحمر، فأشار إلى شجاعته وشدّة بأسه، فقال[2]:

وكفى بمولانا الغنيّ بربّه | أسداً يُجدّل في الوغى أبطالَها
كم أنسر للكفر قد ذلّلها! | ومعاقل للشّرك حلّ عقالَها!

كما أشاد ابن فُركون بذكر يوسف الثّاني والد الملك، الذي أذلّ الكافرين، فحلّت مشيئة الله على يديه، فقال فيه[3]:

أوليس والدك المنيف بصولة | حمدَ الكُماة دفاعَها وصيالَها؟
خضعت رقابُ الكافرين لملكه | فالله شاء بعزّه إذلالَها

ولم يُغفل ابن فُركون ذكر مَنْ يحيط بالملك يوسف الثّالث من أسرته، فقد وجد في أخيه معزّ الدولة بطلاً يدافع عن غرناطة إلى جانب أخيه الملك، فقال فيه[4]:

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص117.
(2) السّابق، ص117.
(3) السّابق، ص117.
(4) السّابق، ص119–120.

وَلْيَنْهَضَنَّ بِمَالِكَ الَّذِي أَوْلَيْتَهُ ... مِنْ أَنْعُمٍ مُدَّتْ عَلَيْهِ ظِلالُهَا

حَتَّى تُجَرَّدَ فِي رِضَاكَ صِفَاحُهَا ... بِيَدِهِ وَتُرْسَلَ فِي الوَغَى أَسَالُهَا

وقال فيه أيضًا مؤكّدًا حسن بلائه، ومبرزًا مواقفه البطوليّة في مواجهة أعداء المملكة الطّامعين فيها(1):

وَمُعِزُّ دَوْلَتِكَ الكَرِيمَةِ لَمْ يَزَلْ ... يُرْدِي بِآسَادِ العَرِينِ نِقَادُهَا(2)

يُرْضِي عُلاكَ الَّتِي عَتَادُهَا ... كَبَتَتْ بِسَيْفٍ عَلَيْهَا حُسَّادُهَا

وإذا كان آباء يوسف وأجداده المجاهدون قد رحلوا؛ فإنّ يوسف سيحمل راية الجهاد من بعدهم ويتمّ ما بدؤوه، فهو خليفتهم فيه، وإلى هذا أشار ابن فُركون بقوله(3):

وَإِنْ فُجِعُوا قَدْ خَلَّفُوا مِثْلَكَ نَاصِرًا ... غَدَا الدِّينُ لِلنَّصْرِ العَزِيزِ يُمِدُّهُ

لِيَعْلَمَ أَهْلُ الشِّرْكِ أَنَّكَ فِيهِمُ ... تُجَاهِدُ حَتَّى يُوهِنَ الكُفْرَ جُهْدُهُ

وَإِنَّ العُلا مِنْ بَعْدِهِمْ بِكَ شُيِّدَتْ ... مَعَالِمُهَا وَالفَتْحُ أَنْجَزَ وَعْدَهُ

وتظهر في مدح ابن فُركون صبغة دينيّة يعلي بها شأن ممدوحه؛ فهو لا يكتفي بوصفه بصفات الشّجاعة؛ بل عمد إلى الدّين فأضفى عليه منه الكثير، وبالغ في تلوين لوحاته المدحيّة بألوان الجلال والهيبة مبالغة كبيرة.

وصورةُ ممدوحه الّذي يبذل قصارى جهده مدافعًا عن الدّين كثيرةُ الورود في مدائحه، فتظهر صورة البطل الّذي تملأ روحه الرّغبة في الجهاد، وخوض غمار المعارك نُصرةً للإسلام ودفاعًا عنه.

وتتمثّل في اهتمام الشّاعر بإضفاء صفة التّديّن على الممدوح: الرّغبةُ في إقناع النّاس بهذه الشّخصيّة، حذرًا لأيّ نزاع على السّلطة، قد يسبّبه ضعف شخصيّة الحاكم الدّينيّة،

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص227.

(2) النّقاد والنّقد: جنسٌ من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجوه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ن ق د)، والفيروز آبادي، محمّد بن يعقوب (718): القاموس المحيط، مادّة (ن ق د).

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص135.

فلازم مدح ابن فركون تركيزه على جانب الدّين عند الملك، فقد لاحظ الشّاعر أهميّة الجانب الدّينيّ في دولة يقوم أساس بنائها على تدعيم هذا الجانب، فراح يُرجع الانتصارات إلى تأييد الله لجنده المُرابط في سبيله.

وتمثّل مدحُ ابن فركون لمليكه بالجانب الدّينيّ في اتّجاهين اثنين: تصوير تأييد الله وإعزازه للممدوح وجنده، والإشادة بأعمال الممدوح وتوجيهاته الدّينيّة والجهاديّة، ومن هذا قوله(1):

أقَمْتَ شعائرَ دينِ الهُدى ... لَدَيْهِ وقُمْتَ بفرضِ الجهاد

تَمُدُّ الكتائبَ في أزحِهِ ... ملائكةٌ فوقَ سبعٍ شِداد

إلى أنْ تُعيدَ دِيارَ العِدا ... ضلالاً إلى الضّالاتِ الجِهاد

وكثيرًا ما مَدَحَ ابن فركون الملكَ، مُذكّرًا إيّاه نصرَ الله له(2):

لِنُصرةِ مُلكِهِ الأعلى تجلّتْ ... ملائكُ ترتقي السّبعَ الشّدادا

وقد أفاض ابن فُركون في هذا الجانب وردّده كثيرًا في مدائحه.

وفي الجانب الآخر من مدائحه ذات الصّبغة الدّينيّة: رأى ابن فُركون ممدوحه صاحب حرب ومحراب، فكان يوسف الثّالث مثال الملك الذي يمضي وقته في الحروب دفاعًا عن أرضه وبلاده ودينه، وإذا مال إلى السّلم أمضى وقته في العبادة(3):

مَنْ مِثلُ مولانا الخليفةِ يوسفٍ ... مَلِكٌ صفاتُ كمالِهِ لمْ تُجهَلِ

مَلِكٌ يُقسِّمُ حزمَهُ أوْ سِلْمَهُ ... بَيْنَ الكتائبِ والكتابِ المُنزَلِ

وكان ابن فُركون يختم مدائحه بالدُّعاء للملك دائمًا ليكون حاميًا للدّين(4):

---

(1) ابن فركون: الدّيوان، ص140.

(2) السّابق، ص146.

(3) السابق، ص196.

(4) السّابق، ص104.

فَيا ناصِرَ الدِّينِ الحَنِيفِ وَكَهْفَهُ ... وَمَلْجَأَهُ في الحادِثاتِ وَمَوْئِلَهُ

وإلى جانب هذه الصّفات كان ابن فُركون يمدح يوسف بصفات أخرى، يُبرز فيها جماله وجُوده ومقامه ورفعته[1]:

فَحَيّاكَ عَنْهُ مَطْلَعُ الصُّبْحِ مُشْرِقٌ ... وَكَفُّكَ فيها عارِضُ الجُودِ مُمْطِرُ

ومنها أفادَ الرَّوْضُ بالعَرْفِ والجَنى ... فَمِنْكَ أَوْ كَفّاكَ أَعْطى وَأَمْطَرُ

وَمَنْ رامَ مَرْأَى الشَّمْسِ نُورًا وَرِفْعَةً ... فَمَرْآكَ أَوْ مَرْقاكَ أَبْهى وَأَبْهَرُ

وهذه الصّفات في معظمها تقليديّة، طالما ردّدها المادحون قبل ابن فُركون، وجاء فأسبغها على مليكه في مدائحه، وكثيرًا ما كان يكيل من هذه الصّفات كيلاً، ويجمعها في موضع واحد من غير تفصيل، ومن هذا قوله[2]:

مَلِكٌ صَلاتُهُ صِلاتُهُ وَعَلاؤُهُ ... شَمْسٌ تُزِيلُ عَنِ النَّواظِرِ لُبْسَها

حَزْمٌ وَإِقْدامٌ وَعَزْمٌ في تُقًى ... في جُودِ كَفٍّ قَدْ أَلِفْتَ خَمْسَها

ولهذا فقد وجدت فيه الخلافة الجدارة والاستحقاق؛ فوهبت نفسها له، فقام هو بحقّها خير قيام[3]:

إِنَّ الخِلافَةَ إِذْ رَأَتْهُ وَلِيَّها ... وَهَبَتْ لَهُ طَرْفًا وَطَوْعًا نَفْسَها

كَفَّ العُداةَ فَلَمْ تُرَوِّعْ سِرْبَها ... وَكَفى الخُطُوبَ فَلَمْ تُكَوِّرْ شَمْسَها[4]

وبتكامل صفات الملك المعنويّة والماديّة تكون شخصيّته قد اتّصفت بمكارم الأخلاق، ومحامد الشّيم، وشريف الخصال، وهنا يصحّ ما سلف ذكره من أنّ غاية الملوك من إحاطة أنفسهم بالأدباء والشّعراء هي تعزيز وجودهم الخارجيّ والدّاخليّ، وهي ليست سنّة في بلاط بني الأحمر فحسب.

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص151.

(2) السّابق، ص145.

(3) السّابق، ص145.

(4) في هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ ﴾. (التكوير، 1).

وخلاصةُ القول أنّ المدح غرض شعريّ قديم، وهو من أهمّ أغراض الشّعر في غرناطة، أسهم فيه ابن فُركون بنصيب وافر من شعره، خصّ به يوسف الثّالث ملك غرناطة الثّالث عشر، الّذي صوّره ابن فركون بصورة بهيّة، بما أسبغه عليه من صفات كثيرة، هي في مجملها الصّفات التي يتغنّى بها المادحون جميعًا.

2 - الشّعر السّياسيّ

كانت لغرناطة منذ قيامها علاقاتٌ مع جيرانها القشتاليّين والمغاربة، ولم تنتظم هذه العلاقات بين الجيران، ولم تتّخذ منذ قيامها شكلاً واحدًا، بل اضطربت بين حرب وسلم وصلح وهدنة، ولم تستقرّ أمورها على حال واحدة، ولم تخفَ مطامع الدّولتين بمملكة غرناطة، وظلّتا مُتحيّنتين الفرصة للنّيل منها والإيقاع بها[1].

وقد عمّت الأندلس خلال المدة الثّامنة أحداثُ مواجهة بين المسلمين والنّصارى، منها ما سجّله التّاريخ ومنها ما أهمله، إضافة إلى ما شهدته تلك المرحلة من علاقات مع دول الشّمال الإفريقيّ، وأحداث داخلية لها أهمّيّتها الكبيرة في تحريك سياسة البيت النّصريّ، ونتائجها التّاريخيّة.

وأسهم الشّعر في توثيق الأحداث المهمّة التي عاشتها غرناطة، ورصد كثيرًا من مواقفها[2]. وكان لشعر ابن فُركون نصيب وافر من هذا الإسهام، فغدا وثيقة تاريخيّة وسياسيّة مهمّة، ترصد الأحداث التي عاشها ابن فُركون في كنف الملك يوسف الثّالث، فقد سجّل الوقائع الحربيّة والمناقسات السّياسيّة، التي جرت بين ملك غرناطة وبين المغاربة والقشتاليّين.

---

(1) انظر: الطّوخي: مظاهر الحضارة في مملكة غرناطة، ص31، والعبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص446–447، والحجّي: التاريخ الأندلسيّ، ص535، وما بعدها.

(2) انظر: ابن الخطيب: الدّيوان، تحقيق مُحمّد مفتاح، دار الثقافة – الدّار البيضاء، 1989، جزآن، 1/53 وما بعدها، يوسف الثّالث: الدّيوان، المُقدّمة، ص (غ)– (ل)، والنّقراط: ابن الجيّاب، ص152–153، والحمصي: ابن زمرك، ص144–145، وبارجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص123، وما بعدها.

ولم يكن ابن فُركون بعيدًا عن حياة غرناطة السّياسيّة، بل إنّه كان في خضمّها، يعايشها ويرصد مواقف منها، ويصوّر جوانب من حياة قطب الرّحى فيها، وهو يوسف الثّالث الذي قرّب شاعره، وولّاه خطّة القراءة عام (811)[1].

وفي قصائد ابن فُركون إشارات مهمّة تزيد التّاريخ وضوحًا وتفصيلًا، وتتدارك أحيانًا ما أهمله من حقائق ومعلومات دقيقة[2]، وهو ما يؤكّد القيمة التّاريخيّة للقصيدة الشّعريّة، ويجعل وضعها في عداد الوثائق التّاريخيّة المُساعدة أمرًا غير قابل للاعتراض، بل قد يتوافر من الأسباب، ما يجعل القصيدة وثيقة أصيلة في موضوعها.

ويبدو من شعر ابن فُركون أنّ غرناطة كانت على أُهبة الاستعداد لمواجهة أيّ خطر يهدّد سلامة أراضيها، وكان لها جيشها المُستعدّ دائمًا للدّفاع عنها، وكان يوسف يستعرض قوّاته باستمرار، وهذا من إشارة الشّاعر في قصيدة له مَدَحَ فيها يوسف الذي حلّ بمالقة عام (811)، واستعرض الجيش فيها، فقال ابن فُركون في مطلعها[3]:

بِنُورِ بِنُوَرِ بِمُحَيّا المَلْكِ راقَ طُلُوعُها ... فمالقةٌ قدْ أشْرَقَتْ ورُبُوعُها

وممّا قاله ابن فُركون هذه القصيدة، مُشيرًا إلى استعراض يوسف جيشه المرابط في مالقة[4]:

تَوافَتْ إلى الفَيْنِ السّعيدِ وُفُودُها ... فَراقَتْ على تِلْكَ البِطاحِ جُمُوعُها

وناصِرُ دِينِ اللهِ يَطْلُعُ وَجْهُهُ ... كَشَمْسِ الضُّحى يَغْشى العُيُونَ طُلُوعُها

ولا يتّخذ هذا الشّعر الطّابع التّسجيليّ المباشر، إنّما فيه من الفنّ ما يُظهره بصورة فنّيّة رائقة، فهو غنيّ بالصور الفنّيّة «مالقة أشرقت وربوعها»، و« يطلع وجهه كشمس الضّحى»، التي تبعث فيه الحركة والحياة، بما يوظّفه الشّاعر من علاقات مجازيّة بين الأشياء.

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص124.

(2) انظر: ملحق الجداول: جدول ترتيب الأحداث التي وثّقها ابن فُركون في ديوانه ومظهر النّور.

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص120.

(4) السّابق، ص121.

وكانت زيارة يوسف هذه لمالقة واحدةً من زيارات عدّة، كان يطوف فيها أرجاء مملكته. ولابن فُركون قصيدة أخرى أنشدها عام (819)، وهو بين يدي الملك، «وتضمّنت وصف المُيَز وعُرْض جُنده قبل العيد، وما تَظاهر به من السِّلاح والخيول والعُدَد»[1]، وفي هذا ما يشير إلى استعداد يوسف الدّائم لأيّ مواجهة.

كان هذا الاستعداد ضرورة، يفرضها موقع غرناطة بين جيرانها وعلاقاتها بهم، وقد ورث يوسف عرش غرناطة، وسعى إلى المحافظة عليه من الانهيار، «وذلك بمحاربة المغاربة الطّامعين بغرناطة، ومصالحة القشتاليين في أغلب الأحيان لدرء خطرهم عن المملكة، فبهذه السِّياسة الحُققة، استطاع أن يطيل عمر مملكته، المُهدّدة بالسّقوط والانهيار»[2].

كانت سياسة يوسف الثّالث تجاه قشتالة تُراوح بين الحرب والسّلم والمجاهدة والمهادنة، فقد اعتلى عرش غرناطة في أعقاب هدنة، عقدها سَلَفُه مع فرناندو عمّ ملك قشتالة خوان الثّاني الوليّ عليه، الذي سيصبح ملكاً على أرغون أيضاً، وهو يُدعى في شعر يوسف وشعر ابن فُركون بـ (الإفَنْت AL INFANTE)، ومعناها الولد، وهو اصطلاح أندلسيّ مغربيّ يُطلق على المُرشّح لوراثة الملك[3].

وكان هذا الإفَنْت قد استولى قبل الهدنة على حصن الصّخرة في ناحية رُندة، ولمّا بويع يوسف الثّالث كان أوّل أمر باشره هو أمر الهدنة، وفي الأشعار التي قيلت في تهنئة الملك بمناسبة اعتلاء عرش المملكة وفي المناسبات التي تلتها، ما يشير إلى قضيّة الهدنة وتعدّد الرّأي فيها[4]، وقد توزّع الرّأي بين الجهاد والمهادنة، وكان رأي ابن فُركون اتّباع سياسة

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص375.
(2) بازجي: منث غرناطة يوسف الثّالث، ص28.
(3) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة، ص60، 157، ومظهر النّور، ص16، ويوسف الثّالث: الدّيوان، ص27. وقد وردت هذه الكلمة في اللغة الإنكليزيّة «Infant»، وفي اللغة الفرنسيّة «Enfant»، وهي بمعنى الطّفل أو الصّبيّ، أو الولد. انظر:

Oxford Wordpower Dictionary; Oxford University Press ،2006 ، p406 ;

وعبد النّور، جبّور، وإدريس، سهيل: قاموس المنهل، فرنسيّ–عربيّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1983م، ص384.
(4) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة، ص61–62.

المهادنة والمصالحة، فقال(1):

نأتي وفود الروم تخطب سلمه ... فيكفّ كفّ القادر المتعفّف

ورسولهم يخشى فيردف رسله ... إرسال جيش بالملائك مردف

أعِد الجواب بها على ظمأ لها ... تنقع جوى المتحرّق المتشوّف

واجنح إليها منعمًا متفضّلاً ... لا زلت أكرم واهب متعطّف

كان هذا رأي ابن فُركون، أمّا رأي الملك نفسه فقد أعلن أن لا سبيل سوى الجهاد، فقال(2):

لهفَ نفسي على الثغور تخلّت ... فهي صفرٌ من الكُماة الحماة

وأناسٍ على المعاصي جهارًا ... قد أباحوا حريمنا للعداة

لستُ للمجد من خلائف نصرٍ ... يوم لُذنا بسلم تلك العُتاة

ونفهم من المدائح التي قيلت أنّ الإفنت هو طالب الهدنة، كما نفهم من شعر يوسف أنّ الإفنت تلكأ في الاستجابة، ثمّ انقاد بعد إباء.

وفي ديوان ابن فركون وديوان الملك يوسف الثالث أخبارٌ وأشعارٌ في هذا الموضوع، ومنها الإشارة إلى الحملة التي قادها شقيق الملك الأميرُ عليّ معزّ الدّولة، متوجّهًا إلى شقورة في أرض أرغون عام (812)، فقد رفع ابن فركون إلى الملك قصيدةً، هنّأه فيها بالنّصر الذي حقّقه الأمير معزّ الدّولة، وصوّر فيها لقاءه بالإسبان، والبلاء الحسن الذي أبلاه، حتّى تحقّق له النّصر عليهم، وممّا قاله في هذه القصيدة(3):

لمّا التقى الجمعان في أرض العدا ... ورميت جمعهم ببأس معجِل

نادى بأبطال الجهاد ألا انفروا ... وأجال فيهم نظرة المتأمّل

(1) ابن فركون: السابق، ص130.
(2) يوسف الثالث: الديوان، ص23.
(3) ابن فركون: السابق، ص197.

فتسارعوا ... إلى داعي الهدى   والرومُ عن سُبُلِ النجاة بمعزلِ[1]

ضاقت عليهم أرضُهم فتوقفوا   والماءُ يجمعُ نفسَه في الجدولِ

وتجمّعت فرقُ العدا لمّا التقت   ما بين مُنهزمٍ وبين مُجدَّلِ

سالت نفوسُهم نجيعًا بعدما   وقفوا وقوفَ الخاضعِ المتذلّلِ

وفي ديوان ابن فُركون وديوان يوسف أخبارٌ عن دخول الغرناطيين حصن الصّخرة[2]، وكان دخولهم هذا بكر الفتوح لعام (812)، فارتجل ابن فُركون بهذه المناسبة قصيدةً هنّأ الملك فيها، فقال[3]:

هو النصرُ قد أجرى لديك جيادَهُ   هو الفتحُ قد ألقى إليك قيادَهُ

أما هذه بِكرُ الفتوحِ التي بها   أتى النصرُ يُلقي العزُّ منك بعادَهُ

وفي هذه القصيدة عرّض ابن فُركون بالإفنت بقوله[4]:

وإنّ إفنتَ الرّومِ يجهدُ كلّما   أراهُ المقامُ اليوسفيُّ جهادَهُ

وأشار يوسف إلى هذه الحادثة في ديوانه[5]، فقال[6]:

بكرُ الفتوحِ وصُنعُ الله مرتقبٌ   تتلو عجائبَه الأيامُ والحقبُ

والمسلمون بما نالوا وما فعلوا   للسيف ما كتبوا والمحوِ ما كتبوا

ولم تشر المصادر التّاريخيّة إلى هذا الحدث، بينما أشار إليه كلٌّ من ابن فُركون وملكه يوسف[7].

---

(1) صدر البيت في الدّيوان مكسور، ولعله يوزن ويتمّ معناه بإضافة «طرًّا» أو «جميعًا» بعد «فتسارعوا...».
(2) انظر: بارجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص125-126.
(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص156.
(4) السّابق، ص157.
(5) انظر: بارجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص125-126.
(6) يوسف الثّالث: الدّيوان، ص6.
(7) انظر: بارجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص126.

وليوسف الثّالث قصائد أشار فيها إلى بعض الأمور السّياسيّة، كرفض القشتاليّين للمهادنة والصّلح، وإعلانهم الحرب على غرناطة، ودخولهم أراضيها، ونشرهم الخراب والفساد فيها، فَخَرَ يوسف في هذه القصائد بنفسه، وتوعّد فيها المُعتدين، فقال[1]:

أنا اليُوسُفيُّ الصِّدْقُ لا فَلَّ ساعِدي   إذا كانَ كَيْدُ الخائنينَ خَصيما

سَأَتْرُكُها نَجْلاءَ ما الرُّمْحُ بَعْدَها   يُغادِرُ نَحْرًا بالطِّعانِ سَليما

وهدّد يوسف في هذه القصيدة ملك القشتاليّين، الذي آثر الحرب على المهادنة والسّلم، وعرّض بالقشتاليّين وتحدّاهم[2]، فقال[3]:

لَئِنْ فاتَ في أمْسِ فَناءُ جُموعِهِمْ   سَيَلْقى غَدًا وَخْزَ العِقابِ أليما

وَسُحْقًا لَهُ حَيْثُ اسْتَخَفَّتْ حُلومُهُ   وَلَمْ يَرْجُ فَيّاضَ الهِباتِ حَليما

وَلَمْ يَتَّخِذْ لِلصُّلْحِ مِنْها وَسيلَةً   يُرَضّي خَصيمًا لِلعِدا وكَليما

وقد عرّض يوسف بملك قشتالة في مواضع كثيرة من ديوانه، وحذّره وأنذره من تعاليه وبطشه، فسوف يخضع للغرناطيّين وينال ملكهم من القشتاليّين، وتعالى في قصائده صوت فخره بشجاعته وشجاعة قومه، وفَخَرَ بقوّته وعزيمته وحُسن بلائه[4].

وفيما يبدو أنّ فرناندو لم يرضَ بالهدنة، ودخل أراضي غرناطة وعاث فيها، وحاصر مدينة «أنتقيرة»، فدافع أهلها عنها، وبذل يوسف جهودًا عظيمة لفكّ الحصار المضروب حول المدينة، غير أنّ ذلك كلّه لم يفلح، فقد سقطت المدينة بيد فرناندو، وكان ذلك عام (812)[5].

---

(1) يوسف الثّالث: الدّيوان، ص153.

(2) انظر: بازجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص129.

(3) يوسف الثّالث: الدّيوان، ص154.

(4) انظر: بازجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص130.

(5) انظر: ابن فركون: الدّيوان، المقدّمة، ص65، وعنان: نهاية الأندلس، ص153، وبازجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص28، 123.

وفي ديوان يوسف تخميس نظمه عند نزول العدوّ على ثغر أنتقيرة[1]، أثنى فيه على مَن استبسل في الدّفاع عن الثغر، واتّهم فيه بعضهم بالتّهاون في الدّفاع، فقال[2]:

ويا عجبًا من تاركٍ حقّ ربّه ... تعرّفت القضاء من كتبه

فلم ينتشق روح الرّضا من مهبّه ... ومهما دعا داعي الهدى لم يلبّه

فأنّى له بالنّصر والفوز بالأجر

ومن القصائد التي توثّق تلك الأحداث قصيدة في ديوان يوسف تشير إلى مواجهة مع القشتاليّين، حول حصن منشاقر وقعت والملك مريض عام (814)[3].

وقد وقفت حركة الجهاد، والمواجهة مع الإسبان عند هذا الحدّ، واتّجه الملك يوسف إلى تجديد الهدنة ليتفرّغ للجبهة المغربيّة، ليردّ خطرها عن بلاده[4]. ومع ذلك ظلّ ابن فُركون يؤكّد أن يوسف سيغزو أرض الشّرك، ويحرّرها ويسترجع ما أُخذ منها، غير أن مهمّة الملك يوسف الثّالث في المحافظة على عرش غرناطة دعته إلى إيثار الصّلح والمهادنة، فسادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودّة والاحترام المتبادل، ولم تشهد غرناطة من قبل عهدًا كعهد يوسف، ساد فيه الوئام بين الأمّتين المتخاصمتين»[5].

هذا ما كان من أخبار يوسف في تلك الحقبة مع جيرانه القشتاليّين، فقد وقفت حركة الجهاد ضدّهم عند هذا الحدّ، ولم تستمرّ طويلاً، وتفرّغ يوسف بعدها لاسترجاع جبل الفتح من المغاربة، ومحاولاته المتكرّرة لتقويض عرش بني مَرين.

والعلاقات بين بني الأحمر وبني مَرين قديمة، تبدأ مع قيام مملكة غرناطة، وكانت تقوى أحيانًا وتضعف أحيانًا أخرى، وقد كان لبني مَرين أثر كبير في قيام غرناطة، وكان

---

(1) انظر: يوسف الثّالث: الدّيوان، ص89، وابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة، ص66، وبازجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص125-126.

(2) يوسف الثّالث: الدّيوان، ص89-90.

(3) انظر: السّابق، ص156، وما بعدها.

(4) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة، ص68.

(5) عنان: نهاية الأندلس، ص154.

جهادهم واحدًا من أسباب ثباتها»(1). ومع ذلك فإنّ ديوان ابن فُركون يرسم صورة قاتمة عن العلاقات بين الدّولتين الجارتين، وبين الملكين المُتعاصرين»(2).

وكانت قضيّةُ جبل الفتح محورَ الخلاف بين يوسف وجيرانه المغاربة، ويبدو أنّها تجدّدت في عهد يوسف حين سعى كلٌّ من الطّرفين إلى السّيطرة على الجبل، نظراً للأثر المهمّ الذي كان له في الأحداث التّاريخيّة والسّياسيّة لذلك العصر، فسعت أطراف الصّراع كلّها للسّيطرة عليه، «بحكم موقعه الاستراتيجيّ والجغرافيّ الهامّ، فكان مَحطّ أنظار القشتاليّين النّصارى من جهة، والمرينيّين المغاربة من جهة أخرى، الذين حاولوا احتلاله واستلابه من الغرناطيّين، لكنّ محاولاتهم باءت بالفشل والإخفاق»(3).

ويُفهَمُ من ديوان ابن فُركون أنّ الصّراع على جبل الفتح بدأ بين الملكين عام (813)، ولم ينته إلاّ عام (817)؛ ففي ديوان ابن فُركون معلومات عن ثورة أهل الجبل، الذين قاموا بها عام (813)، وأعلنوا تبعيّتهم للمغرب. وكان هذا العام حافلاً بالأحداث، ففيه جهّز الملك يوسف السّعيدَ المرينيَّ، ووجّهه في أسطول إلى المغرب ليطالب بالمُلك، في محاولة منه لإسقاط حُكم أبي سعيد عثمان.

ويبدو أنّ يوسف كان يخاف من أبي سعيد على مملكته، شأنه في ذلك «شأن أسلافه من قبله في خوفهم من أسلاف أبي سعيد. وجرت بينهما منافسات على جبل طارق يشير إليها الدّيوان في كثير من قصائده»(4). وقد تكشّفت أطماع أبي سعيد في غرناطة عندما أرسل جيشًا بقيادة أخيه عبد الله بن أحمد المعروف بسيدي عبّو، إلى جبل طارق لاحتلاله بدعوى سَأم أهل الجبل من طاعتهم لبني الأحمر أصحاب غرناطة، وقد «تحقّقوا بأنّ المرينيّ أقوى منه شوكة، وأقدر على تخليصهم ممّا عسى أن ينالهم به الاصبنيولُ من حصار ونحوه، فبعثوا إليه يخطبون ولايته، ويعرضون عليه الدّخولَ في طاعته، إن هو أمدّهم بما يدفعون به

(1) انظر: الحجّي: التاريخ الأندلسي، ص511، 519-520، 536 وما بعدها.

(2) ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة، ص70.

(3) بازحي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص128.

(4) يوسف الثّالث: الدّيوان، المقدّمة، ص (غ).

في نحر ابن الأحمر»[1]، ولاقت هذه الفكرة قبول أبي سعيد، فسارع إلى تنفيذها بإرسال جيش بقيادة أخيه عبد الله، غير أنّ محاولته هذه باءت بالفشل[2].

ولم يكن يوسف غافلاً عمّا يُحاك له، فاستعدّ لهذا الأمر، وجهّز جيشًا يُرابط عند الجبل، وأشار ابن فُركون في ديوانه إلى المحلّة الغرناطيّة التي ظلّت محاصرة الجبل منذ عام (813)، إلى عام (817)، وقد انتقل يوسف مرارًا من غرناطة إلى الجيش المُرابط[3]، وكان أخوه عليّ معزّ الدّولة هو الذي دخل الجبل واستردّه بعد حصار برّيّ وبحريّ[4]، فصاغ ابن فُركون مدحة هنّأ فيها الملك، «عند وصول البشير من السّيّد الأمير أبي الحسن، وصل الله عزّه بدخوله جبلَ الفتح عصَمه الله»[5]. ووصفه ابن فُركون وصفًا مفصّلاً ونوّه بشجاعة معزّ الدّولة، وهنّأ مليكه بهذا الفتح، فقال[6]:

تَجَلَّى صَبَاحُ الفَتْحِ مِنْ جَبَلِ الفَتْحِ ... فَهُنِّئْتَهَا بُشْرَى تَجِلُّ عَنِ الشَّرْحِ

هُوَ الصُّنْعُ صُنْعُ اللهِ حَيَّاكَ لُطْفُهُ ... بِمَوْكِبِكَ فَتْحٌ طَالَمَا ضُنَّ بِالنُّجْحِ

وفي ديوان يوسف عدد من القصائد، ذكر فيها حصار جبل الفتح، وفَخَرَ باسترجاعه، ويُفهم من شعره أنّ أوّل ما استُرجع منه هو حصن القشتور، وفي هذا قوله[7]:

وَسَائِلْ بِهَا القَشْتُورَ إِذْ عَزَّ مَطْلَبٌ ... فَهَا هُوَ مِنْ أَسْرِ السُّمُوكِ عَتِيقُ

تَهَفَّتْنَا إِلَيْهِ بَعْدَ مَا هُزِمَ الدُّجَى ... وَنَادَى فَلَبَّيْنَاهُ وَهْوَ غَرِيقُ

وأكثر ابنُ فُركون من وصف أهل الجبل بالخيانة، وعرّض بهم في قصيدة هنّأ فيها الملك «بحلول ركابه العليّ بظاهر مالقة، بإثر مخالفة المارقين من أهل جبل الفتح، وهي السّفرة

---

(1) النّاصري: الاستقصا، 93/4.

(2) انظر: النّاصري، الاستقصا، 93/4، ويوسف الثّالث: الدّيوان، المقدّمة، ص (ف)، وبازجي: مملكة غرناطة يوسف الثّالث، ص29-30، 133.

(3) انظر ملحق الجداول: جدول ترتيب الأحداث التي وثّقها ابن فُركون في ديوانه ومظهر النّور.

(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص201.

(5) السّابق، ص180.

(6) السّابق، ص180.

(7) يوسف الثّالث: الدّيوان، ص184-185.

التي أجاز فيها السّلطان السّعيد إلى الغرب، ودخل مالقة في يوم الاثنين الثّالث لشعبان عام ثلاثة عشر وثماني مئة»[1]، فقال في هجائهم والتّعريض بهم[2]:

مـا جبـلُ الفتـحِ ومـن أهلُـهُ؟ إذ أصبحـوا قـد كفـروا الأنعمـا

كـأنّ بهـمْ والـزّيغُ في أرضِهـمْ يـأبى لشمـلِ الأمـنِ أنْ ينظمـا

كـأنّهـمْ قـد عـاد مرتـابُهـمْ مفتـرى بمـا أوليتـهُ مغرمـا

مرتفـلاً منـك لنصـرِ الهـدى مـولًى همـامًا باسـلاً منعمـا

أيـن التّقى والعقـلُ والفضـلُ مِنْ قـومٍ غـدا الجـورُ لهـمْ مغنمـا؟

ويـزدري بكثـرِ منهـمْ كـلُّ مَنْ أجـرى جيـادَ البغـيِ أوْ أجرمـا

وعرّض ابن فركون بأهل الجبل في قصيدة أخرى، قالها في العام نفسه، وممّا قاله فيها[3]:

جبـلَ الفتـحِ قـد ضللتَ لتيـهِ ذروةٍ قـد علـتْ مكانًا وجلّـتْ

ولأهليـهِ فـي الضّـلالِ نفـوسٌ بشيـاطيـنَ للضّـلالِ استـزلّـتْ

وصوّر في هذه القصيدة الكتائب، التي ترامت على هذا الجبل لتعيده[4]:

فتـراءتْ لهـمْ كتـائبُ عـزٍّ لـو رمتْهـا يـدُ الزّمـانِ لفلّـتْ

لـو تجاري الرّيـاحَ منهـا جيـادًا لانثنـتْ عـنْ مـدى السّبـاقِ وكلّـتْ

بهـوادٍ غـرُّ الفتـوحـاتِ أفنـتْ إذْ أظلّـتْ جمـوعَهـمْ وأصلّـتْ

كانت مهمّة يوسف الثّانية هي التّشغيب على أبي سعيد عثمان المرينيّ، وفي هذا شعر كثير في ديوان ابن فُركون وديوان مليكه، وهذا الشّعر مؤرّخ ومسبوق بمقدّمات تشرح مناسباته، وكانت أوّل إشارة إلى هذا قصيدة ابن فُركون التي هنّأ فيها الملك بوصوله إلى

(1) ابن فركون: الدّيوان، ص161.
(2) السّابق، ص162.
(3) السّابق، ص165.
(4) السّابق، ص165.

مالقة، وتجهيزه السّعيد وإرساله إلى المغرب(1).

وكانت رحلة يوسف هذه إلى مالقة ومنها إلى جبل الفتح؛ واحدة من رحلات يوسف إلى جبل الفتح الذين شقّوا عصا الطّاعة؛ بخروجهم على ملكهم حتّى أعاده إلى سيادته.

ويبدو أن يوسف كان يعدّ العدّة لإسقاط حكم الملك المغربيّ، فشجّع كلّ حركة معادية لحكم أبي سعيد، فأيّد حركة السّعيد المناهضة لحكم أبي سعيد عثمان، وكان يوسف يأمل أن يحقّق السّعيد نجاحًا(2).

والسّعيد هذا هو مُحمّد بن عبد العزيز بن أبي الحسن المرينيّ، الذي بويع بالمُلك بعد موت أبيه، وهو ابن خمس سنوات، غير أنّه خُلع وغُرّب إلى الأندلس، وعاد بعد سنوات للمطالبة بالمُلك ومنازعة أبي سعيد عثمان عليه(3)، دفعه إلى ذلك يوسف الثّالث انتقامًا من أبي سعيد لسعيه لاسترجاع جبل الفتح، وقبوله بيعة أهله.

جهّز يوسفُ حليفه السّعيدَ بالسّفن والفرسان والرُّماة، ووجّهه إلى المغرب، «وقد وردت الأخبار بحلول أجفانها(4) المؤيّدة بساحل المغرب، ونزول السّلطان السّعيد ببرّ العدوة بالفرسان والرُّماة، في آخر رمضان عام ثلاثة عشر»(5). وإلى هذا أشار ابن فُركون بقوله(6):

وَسُفْنُ غَـداةَ السَّفين منها بِقادحٍ   لَدى مُلْتَقى الهَيْجاءِ يَتْرُكُهُمْ صَرْعى

وَكَـمْ مِـنْ يَـدٍ بَيْضـاءَ طَوَّقْتَها فَتًى   إلى مَنْزِلِ البَيْضاءِ قَدْ أَعْمَلَ الرُّجْعى

رَمـى دارَةَ البَيْضـاءِ أَعْنـاقًا بِثـأْرِهِ   بِما قَدْ رَمى سَيْفُ بنُ ذي يَزَنٍ صَنْعا

---

(1) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص161.

(2) انظر: يوسف الثّالث: الدّيوان، المقدّمة، ص (ك)، ورازجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص30، و134.

(3) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة، ص79.

(4) الأجفان: نوع من السّفن، وإحدى قطع الأسطول البحريّ الغرناطيّ، وهي نوعان: الأولى غزويّة، والثّانية تُستخدم لنقل الخيل. (انظر: القوصيّ، أحمد ثاني: الحياة الاجتماعيّة في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر، المجمع الثّقافيّ–أبو ظبي، 1425/2004، ص227).

(5) ابن فُركون: الدّيوان، ص163.

(6) السّابق، 163.

وقال يصف السّفن[1]:

وَلَهُ مِنْهَا مُنْشَآتٌ قَدِ ارْتَمَتْ عَلَى اللُّجِّ رَفْعًا حِينَ أَحْكَمْتَهَا وَضْعَا

سَرَتْ وَظِلالُ الأَمْنِ وَالْيُمْنِ فَوْقَهَا فَأَحْسِنْ بِهِ مَسْرَى وَأَنْجِحْ بِهِ مَسْعَى

دَوَّتْ بِهِ فِي صَدْرِ كُلِّ مُعَانِدٍ سِهَامُ الْمَنَايَا نَحْوَهُ أَحْكَمَتْ وَقْعَا

أَتَتْكَ بِهَا الْبُشْرَى صَبِيحَةَ مُنْعَمٍ حَبَاهُمْ بِهَا وِتْرًا وَعَادَتْ لَهُ شَفْعَا

وذكر ابن فركون أنّ توجيه السّعيد نحو المغرب لم يكن إلاّ نزولاً عند رغبة آل مرين، الذين دعوا يوسف لإنقاذهم، فما كان منه إلاّ أن لبّى تلك الدّعوة[2].

ونظم يوسف بهذه المناسبة قصيدةً، خاطب فيها أولياءه من بني مرين، ونعت فيها أبا سعيد بالشّؤم، واتّهمه بالتّعاون مع النّصارى، والتّفريط في الثّغور، ودعا أولياءه إلى تأييد حليفه السّعيد[3]:

قُومُوا إِلَى نَصْرِ السَّعِيدِ حَمِيَّةً فَالدِّينُ إِنْ لَمْ تَجْمَعُوهُ يُبَدَّدُ

وَتَمَسَّكُوا فِي فَاسَ مِنْ عُثْمَانِهَا وَاسْتَبْصِرُوا بِنَا الْحَقِيقَةَ وَاهْتَدُوا

وادّعى يوسف أنّ هذا لم يكن إلاّ لأنّ عثمان تحالف مع أعدائهم الإسبان، وتنزل لهم عن البلاد، وإلى هذا أشار فقال[4]:

أَوَلَيْسَ قَدْ أَعْطَى الْعُدَاةَ بِلادَنَا إِعْطَاءَ مَنْ يُرْضِي الْكَفُورَ وَيُرْفِدُ

لَمْ يَتَّقِ الرَّحْمَنَ فِي الْوَطَنِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قَدْ عَاثَ فِيهِ الْمُلْحِدُ

توّجه السّعيد نحو المغرب، ووصل الخبر إلى يوسف أنّ السّعيد دخل مدينة تازة، وكان

---

(1) ابن فركون: الدّيوان، ص163.

(2) انظر: السّابق، ص164.

(3) يوسف الثّالث: الدّيوان، ص65–66.

(4) انظر: السّابق، ص66.

يوسف وقتها بظاهر جبل الفتح[1]، فنظم ابن فُركون قصيدةً، جاء فيها[2]:

وَلَقَدْ جَاءَتِ البَشَائِرُ حَتَّى   أَعْلَنَتْ سُورَةُ السُّرُورِ وَأَمْلَتْ

بِفَلاحِ السَّعِيدِ مُلْكُكَ أَرْضٌ   لَكَ أَلْقَتْ مَا عِنْدَهَا وَتَخَلَّتْ[3]

ولم يكن السّعيد وحده في حركته هذه، فقد اشترك معه فيها ولدان له، أشار ابن فُركون إليهما في قوله[4]:

نَصَبْتَ عَلَى الأَعْدَاءِ مِنْهُ مُشَهَّرًا   وَأَرْسَلْتَ مِنْ نَجْلَيْهِ سَهْمَيْنِ فُوِّقَا

فَلا أَتِيحَ الرَّحْمَنُ مَسْعَى مُعَانِدٍ   إِذَا خَفَقَتْ أَعْلامُ نَصْرِكَ أَخْفَقَا

وهذان الولدان هما عامر والمسعود، أمّا عامر فقد تمكّن في ذي القعدة عام (813) من فتح طَنجة ودخول قصبتها، وذلك بوساطة السّفن الأندلسيّة، وفي هذا قال ابن فُركون[5]:

هَذِهِ فَاسُ الجَدِيدُ تَمَكَّنْتَ   فَأَنَلْتَ السَّعِيدَ مِنْهَا اعْتِبَارَهْ

وَابْنُهُ عَامِرٌ مِنَ الرِّيفِ يَبْنِي   عَامِرًا رَبْعَهُ المَنِيعَ وَدَارَهْ

ومن المُرتجلات في مثل ذلك قصيدة نظمها ابن فُركون عند عودة الأجفان المنصورة من فتح طنجة، وحصول ولد السّعيد في قصبتها[6]، ومما قاله في وصف السّفن[7]:

وَأَتَتْكَ الأَجْفَانُ مِنْهَا بِبُشْرَى   كُلُّ وَجْهٍ يُبْدِي لَهَا اسْتِبْشَارَهْ

وَالعِدَى أَقْبَلَ العِنَادُ ذَلِيلًا   قَدْ أَبَى النَّصْرُ أَنْ يُقِيلَ عِثَارَهْ

خَانَهُ النَّصْرُ فَارْتَقَى الفَخْرُ مِنْهُ   مُرْتَقًى حَطَّ فِي الوَرَى مِقْدَارَهْ

---

(1) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص164.

(2) السّابق، ص165.

(3) في قوله هذا اقتباس من الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ ﴾، الانشقاق، 3-4.

(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص203.

(5) السّابق، ص166.

(6) انظر: السابق، ص166.

(7) السّابق، ص166.

وأمّا المسعود فقد ذكره ابن فُركون في قصيدة، هنّأ فيها الملكَ بولادة أصغر أولاده، وقد وصل الخبر والملك في مالقة[1]، وممّا قاله فيها[2]:

وقَبْلَهُ وافَتِ الأجْفانُ مُهَنِّئَةً　　بُشْرى بها فَوْقَ لُجِّ البَحْرِ قَدْ سَبَحَتْ

بُشْرى أتَتْكَ مِنَ المَسْعُودِ قائِلَةً　　هذي الصِّفاحُ دَمَ الأعْداءِ قَدْ سَفَحَتْ

فَمِنْ مَطالِعِ أنْوارٍ بِها انْفَتَحَتْ　　وَمِنْ مَيادِينِ آمالٍ بِها انْفَسَحَتْ

وكان يوسف يروم من وراء هذا كلّه أن يتغلّب السّعيدُ على فاس وعلى أبي سعيد، ويبعثه مقيّدًا إلى غرناطة، وفي هذا قال يوسف[3]:

خُبْثُ عُثْمانَ قَدْ غَدا　　قارِعًا سِنَّ نادِمِ

عَنْ قَريبٍ يَزورُنا　　في قُيودِ الأداهِمِ

كان يوسف يأمل أن يحقّق السّعيد انتصاره؛ غير أنّ السّعيد لم يحقّق ما كان يوسف يتمنّاه، فقد لحقت بالسّعيد هزيمة بظاهر فاس واختلف أتباعه، فخاب أمل يوسف، وقد أشار ابن فُركون إلى هزيمة السّعيد في عدنيّة وجّهها إلى يوسف، فقال[4]:

وَكَيْفَ تَنْدَفِعُ عَنْ فاسٍ أُسُودُ وَغًى　　وَما ضَراغِمُها إلاّ ضَراغِمُها

إنْ أجْفَلَتْ فِئَةُ التَّوْحيدِ حامِيَةً قَدْ　　عادَتْ تُنازِلُ فيها مَنْ يُنازِعُها

وَقائِعٌ مَحَّصَ اللهُ العِبادَ بِها　　حَتّى تَبَيَّنَ عاصيها وَطائِعُها

إنْ كانَ ضُيِّعَ حَزْمٌ عِنْدَما افْتَرَقَتْ　　فَإنَّ جُودَكَ حاميها وَجامِعُها

ويبدو أنّ أبا سعيد قد رغب في صلح يعقده يوسف بينه وبين السّلطان السّعيد على قسمة البلاد المغربيّة بينهما، ولم يكن أمام يوسف إلاّ أن استجاب لطلب الصّلح[5]، فأنشد ابن

(1) انظر: ابن فُركون: الديوان، ص174.
(2) السّابق، ص175.
(3) يوسف الثالث: الدّيوان، ص147.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص210.
(5) السّابق، ص213.

فُركون الملكَ عبديّة، ألمّ فيها بذكر هذا الصّلح، فأشار إليه بقوله[1]:

فيا ناصرَ العلياء والملكَ الذي ... به سنّةُ الإسلام كُفّت عُداتُها

تَرومُ مُلوكُ الأرض شأوك في العلا ... وقد قصُرَت عن نيلِه خُطواتُها

ولمّا توالتْ فتنةُ الغربِ واغتدتْ ... على أهلِه في كُلّ حيٍّ طُغاتُها

وما اتّفقتْ إلاّ على صحّة الرّدى ... كما اختلفتْ آراؤها ولُغاتُها

دعتكَ لعقدِ السِّلم بينَ مُلوكِها ... أكارمُ حيٍّ في يديكَ حياتُها

فأصدرتَ للأملاكِ منكَ أوامرًا ... إذا نَطقتْ في الحفْل طالَ صُماتُها[2]

والظّاهرُ أنّ صلحًا آخر عُقد بين الملكين يوسف وأبي سعيد[3]، فنظم يوسف بهذه المناسبة قصيدة، قال فيها[4]:

هيَ بُشرى دعتْ جميعَ العبادِ ... للتّنادي على صريحِ الودادِ

قد قضتْ خيرَ مقدمٍ بعدَ جهدٍ ... فاستقلّتْ بها رُسومُ الجهادِ

ولقدْ عنّ ختامُها عن كتابٍ ... صادرٍ عن يدٍ وعزِّ أيادِ

غير أنّ مبلغ هذا الصّلح من الصّدق غيرُ معروف، وغيرُ معروف كذلك ما آل إليه، فليس في ديواني الشّاعرين ما يشير إلى ذلك.

وبقي في ديوان ابن فُركون إشارته إلى وفادة بني مرين على الملك يوسف في عيديّة الفطْر عام (816)[5]، فقال[6]:

---

(1) السّابق، ص215.

(2) ضبط محقّق الدّيوان صدر البيت كالآتي: «فأصدرتَ...»، وهذا خطأ بيّن، والصّواب ما أثبتّه، وبه ينضبط الوزن، ويتمّ المعنى.

(3) انظر: ابن فركون: الدّيوان، المقدّمة، ص83–84، وبازجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص139.

(4) يوسف الثّالث: الدّيوان، ص50.

(5) انظر: ابن فركون: الدّيوان، المقدّمة، ص84، و219.

(6) السّابق، ص219.

يا ناصِرَ الدِّينِ الَّذي أَنْداؤُهُ ... يُهْدي وَيُهْدى قَصْدُها وَقَصيدُها(1)

وَقَفَتْ بِبابِكَ مِنْ مَرينَ أُسْرَةٌ ... طَوْعَ الوَفاءِ، فَما تُضاعُ عُهودُها

والفَضْلُ لا تُنْسي أَعِنَّةَ سَيْرِها ... وَرَجاؤُها، إذْ يَمْتَطيكَ، يَقودُها

فَأَنِلْتَ ما شاءَتْ مِنَ النِّعَمِ الَّتي ... يُرْجى، وَإنْ عَظُمَتْ لَدَيْكَ، مَزيدُها

وأشار ابن فُركون إلى هذه الوفادة ـ أو وفادة أخرى غيرها ـ في عيديّة الأضحى من العام نفسه، والتي أنشدها الملك «بالمشوَر السّعيد من حمرائه العليّة، وقد ورد على بابه الكريم جملة وافرة من أكابر بني مرين، وسواهم من القبائل، بعد الحادثة على السّلطان السّعيد، لائذين بعزّ جنابه، متمسّكين بأوثق أسبابه، فأولاهم أيّده الله مواهب أنعمه، وآواهم، ووفّر نزلهم عند وفادتهم، وكرّم مثواهم، فاطمأنّت بهم الدّار، وقرّ بحضرته القرار»(2). فقال يشير إلى هذا(3):

كَواكِبُ عِزٍّ في ذُراكَ حُلولُها ... طُلوعٌ وَلكِنْ لَيْسَ يُخْشى أُفولُها

وَجاءَتْ مَرينٌ مِنْ أَقاصي بِلادِها ... فَكانَ لَدى مَوْلى المُلوكِ حُلولُها

تَحُلُّ مَطاياها بِها مِنْ جَنابِهِ ... مَنازِلَ عِزٍّ لَيْسَ يَشْقى نَزيلُها

ويبدو أنّ أسباب الخلاف بين الملكين قد انتهت، ومع ذلك فقد ظلّ يوسف الثّالث يستقبل وفود المرينيّين اللاّجئين إليه، ثم إنّه ظلّ يتدخّل في شؤون العدوة المغربيّة(4)، واستمرّ في محاولاته لإسقاط حكم خصمه أبي سعيد، وكان آخرها في مرضه الأخير؛ قبل وفاته بأيّام(5).

لقد كان لهذا الصّراع بين الملكين أثره الكبير في إضعاف الدّولتين، وتسبّب بضياع

---

(1) جاء في الدّيوان «ويهدي ويُهدى...» وبه يكسر وزن البيت.

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص220.

(3) السّابق، ص220.

(4) انظر: السابق، المقدّمة، ص84-85، 374-375، 387.

(5) انظر: السّابق، ص379.

كثير من مدنهما[1]، فقد استولى القشتاليّون على أنتقيرة واستولى البرتغاليّون على سبتة[2]، ولعلّ هذا كان سببًا في ضعف الدّولة المرينيّة، وانحدار مملكة غرناطة نحو السّقوط.

وخلاصة القول أنّ الشّعر وثّق الأحداث السّياسيّة المهمّة في غرناطة، وكان لابن فركون نصيب وافر من هذا الشّعر، رصد فيه الحياة السّياسيّة في حقبة ضنّت بها المصادر، وفي هذا تظهر القيمة التّاريخيّة لديوان ابن فركون، في دَرْسِ حقبة دقيقة غامضة من تاريخ المغرب والأندلس، وذلك بسبب ضياع مصادرها الأصليّة.

3 - الوَصْفُ

الوصف من أغراض الشّعر العربيّ التّقليديّة، وهو كثيرٌ كثرةً واضحة، ويرى ابن رشيق (456) أنّ «الشّعر، إلاّ أقلّه، راجعٌ إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه»[3].

ويظهر الشّاعر في هذا الغرض فنّانًا يصف بكلماته ما يرسمه المصوّر بألوانه، وهما يتّخذان من المناظر التي يريانها موادّ يبدعان صورها، ويتفنّنان في تجويد رسمها، فيغدو الفنّ أجمل من الحقيقة، ويصير الخيال أحلى من الواقع.

وقد لقي الوصف اهتمامًا كبيرًا وعناية بالغة من قبَل الشّعراء الأندلسيّين، فأبانوا فيه عبقريّة نادرة، ولاسيما عندما تعرّضوا لوصف جمال الطّبيعة، ووصف العمران ومجالس اللّهو والطّرب[4]، وهذا ما جعل شعر الوصف أكثر أغراض الشّعر الأندلسيّ وأجوده.

وسار الغرناطيّون سيرةَ سابقيهم من شعراء الأندلس في تناولهم غرض الوصف، ولم

(1) انظر: ابن فركون، الديوان، ص70-71.
(2) انظر: السّابق، ص87، و331.
(3) ابن رشيق القيروانيّ، الحسن (456): العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة-بيروت، ط1، 1408/1988، جزآن، 1059/2.
(4) انظر: الركابي، جودت: في الأدب الأندلسيّ، دار المعارف-القاهرة، ط3، 1970، ص120، وشلبي، سعد إسماعيل: الأصول الفنّيّة للشّعر الأندلسيّ، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر-مصر، (د.ت)، ص222، 223، والدّقاق، عمر: ملامح الشّعر الأندلسيّ، منشورات دار الشّروق-بيروت، (د.ت)، ص206.

يكن هذا اللّون من الشّعر طارئا على الأدب في عهد بني الأحمر، إذ شكّل امتدادًا زمنيًا وفنّيًا لما سبقه من العهود الأندلسيّة، التي استمدّت بدورها مكوناتها الفنّيّة من مشرق الأمّة الإسلاميّة، مع بعض التّميّز في دقائق الأمور، أو في تعنيق الفنّ الشّعريّ إلى فنون أدقّ»[1]، فكثر الوصف في شعر الغرناطيين وتنوّع[2]. وكان ابن فُركون واحدًا من هؤلاء الشّعراء الذين أسهموا في شعر الوصف، فكثر في ديوانه ولاح في أثناء قصائده، كما استقلّ بقصائد ومقطوعات بذاتها.

تناول الغرناطيّون الطّبيعة في شعر الوصف[3]، متأثرين ببيئتهم متجاوبين معها، وكان الشّاعر الأندلسيّ بصفة عامة أكثر تجاوبًا مع بيئته الجديدة وطبيعة بلاده الجميلة؛ فقد «فُتن محدثو الأندلس بحديث الطّبيعة، فأكثروا منه ومزجوا حديثهم عنها بمشاعرهم، ونظروا إليها من خلال ذواتهم، والتفتوا إلى وصف المظاهر الطّبيعيّة الدّقيقة، فكان لهم قدر عظيم من شعر الطّبيعة، عُدّ من أبرز مناحي التّفرّد الأدبيّ الأندلسيّ»[4].

وقد وصف ابن فُركون الطّبيعة ومظاهرها، وكان له تعلّق شديد بها، فقد نشأ في أحضان غرناطة الجميلة، وترعرع بين ربوعها، غير أنّها لم تمثّل موضوعًا مستقلاً، ولم تحظ بقصائد خاصّة، إنّما جاءت في تضاعيف قصائد أخرى لعدد من الأغراض. ومن هذا ما جاء في قصيدة طويلة، أنشدها عام (814)، فقال يصف الطّبيعة[5]:

وَرِيَاضٍ جَالَ النَّسِيمُ لِنَفْحِهِ ... فَثَنَى فِيهِ لِتَلَقِّيهَا أَغْصَانَهُ

وَأَدَارَتْ كَأْسَ السَّحَابِ شُمُولَهَا ... رَدَّدَ الطَّيْرُ عِنْدَهَا أَلْحَانَهُ

مَا الغُصْنُ النَّشْوَى وَقَدْ مَالَ زَهْوًا ... لَوْ أَمَالَتْ رِيحُ الصَّبَا نَشْوَانَهُ

---

(1) الواثلي: الشّعر الأندلسيّ، ص119.
(2) سرميني: خصائص الشّعر الأندلسيّ، ص61.
(3) السّابق، 61.
(4) رجب باشا، جمانة: الشّعر الأندلسيّ بين طريقة العرب ومذهب المحدثين، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، 1424/2003، ص68.
(5) ابن فُركون: الدّيوان، ص177.

أتُرى السُّحْبُ أَمْ دُمُوعِي جَادَتْ   رَبْـعَـةً فَـانْـثَـنَـتْ بِهَـا رَيَّـانَـة؟

لا وَلَـكِـنْ جُـودُ الخَلِيفَـةِ لَمَّا   جَـادَهَـا أَمْـسَـكَ الحَيَا مَنَّانَة

ردّد ابن فُركون النّظر في هذه الطّبيعة الجميلة، واستعار لعناصرها من الصفات الإنسانيّة ما بعث فيها الحياة والحركة، ووصف فيها النّسيم والأغصان، والسّحاب والطّير، وتخلّص من وصف هطول المطر إلى مدح الملك، الذي فاق بجوده مطر السّحاب.

وقال في مدحة نظمها عام (817)، يصف فيها الطّبيعة، وخرج منها إلى مدح الملك[1]:

فَـإِذَا مَـا الـغَـمَـامُ جَـادَ بِـمَـاءٍ   حَلَّتْ فيها الرِّمَالُ وَهْيَ مَفَايِسُ

أُفُـقٌ نَـبْـسِـمُ الـبَـوَارِقُ فِـيـهِ   لِـدُمُـوعٍ مِـنَ الـغَـمَـامِ بَوَاجِسْ

وَكَـذَا يُـونَـقُ لَـدَى الرَّوْعِ يُلْفَى   بَاسِمُ الثَّغْرِ وَالوُجُوهُ عَوَابِسْ

وعرض ابن فُركون في إحدى قصائده إلى ذكر السّبيكة، وهي من الأماكن الجميلة في غرناطة، فقال[2]:

هَـذِي السَّبِيكَـةُ مَلْعَبُ الخَيْلِ الَّتِي   أَلْـقَـتْ بِـأَفْـئِـدَةِ الـعُـدَاةِ خَبَالَهَا

غير أنّ ابن فُركون لم يطل الوقوف على وصفها، ووصف الأماكن الجميلة في غرناطة، وما فيها من حدائق وجنان وأنهار، وكانت تستحقّ منه أكثر من مجرد ذكرها.

وكما تغنّى الأندلسيّون بوصف طبيعة الأندلس الحيّة والصّامتة، فقد تغنّوا بوصف الطّبيعة المصْنعيّة، «لأنّها شكّلت منحًى خاصًّا في الشّعر الأندلسيّ في وصف الطّبيعة، ولأنّها من الكثرة إلى حدّ جعلها تستأثر باهتمام الشّعراء والوشّاحين آنذاك»[3]، فنالت القصور حظًّا وافرًا من شعر الوصف، لأنّها الفنّ المعماريّ الخالص، الذي يجعلها تسلب أفئدة الشّعراء، ولأنّها قصور الممدوحين، فيصفها الشّعراء في معرض مدحهم[4].

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص184.

(2) السّابق، ص119.

(3) دياب: في الشّعر العربيّ الأندلسيّ والمغربي، ص292.

(4) انظر: السّابق، ص292.

وتُعدّ غرناطة من أهمّ المراكز الفنّيّة، التي بلغ فيها الفنّ العربيّ الإسلاميّ ذروة ازدهاره، وهي ما تزال «تحتفظ أكثرَ من أيّة قاعدة أندلسيّة أخرى، ببقيّة حسنة من خُططها ومعالمها وآثارها الأندلسيّة»(1)، ويعدّ قصر الحمراء أهمّ آثار غرناطة، وهو يزخر بالنّقوش والزّخارف الهندسيّة والأبيات الشّعريّة، التي تزيّن الجدران والأبواب والأقواس والنّوافير والحمّامات، وللشّاعرين ابن الجيّاب (749)، وابن زمرك (796) النّصيب الأوفى من هذه النّقوش(2).

وجاء ابن فُركون فسار على نهج سابقيه في تزيين جدران الحمراء، فتابع منجزات يوسف وسجّلها بشعره، فعندما شرع الملك في إعلاء المبنى الماثل أمام باب الدّار الكبيرة(3) أمره أن ينظم أبياتًا تُكتب دائرةً بالطّبقة الثّانية منه، فقال قصيدة تُباهي فيها بيوسف(4):

بِأَمرِ الَّذِينَ مَولَى الخَلْقِ لِي شَرَفُ   فَلَيسَ عَنِّي لِلأَبصَارِ مُنْصَرَفُ

---

(1) عنان: الآثار الأندلسيّة الباقية، ص132.

(2) انظر: النّقراط: ابن الجيّاب، ص279–285، غومس: الشّعر الأندلسيّ، ص41، وقون شاك، أدولف فريدريش: الفنّ العربيّ في إسبانيا وصقلية، ترجمة الطّاهر أحمد مكي، دار المعارف– القاهرة 1980، ص166–186، وعنان: الآثار الأندلسيّة الباقية، ص163–185، الحمصيّ: ابن زمرك، ص26–41، وفارس، عيسى: ابن زمرك الأندلسيّ، حياته وأدبه، رسالة ماجستير، جامعة تشرين 1987، ص90–92، وماريا مني: الأدب الأندلسيّ، ص159–161.

(3) نستنتج من حديث ابن فُركون عن هذه الدّار، من خلال الأبيات التي نظمها في وصفها، أنّها كانت مؤلّفة من طبقتين: طبقة سُفلى: نظم فيها 18 بيتًا: وطبقة عُليا، مؤلّفة من ثماني طيقان، وزّع شعره عليها كالآتي:

- الطّاقة الكبرى (11 بيتًا)
- الطّاقة المشرفة على الحمراء المقابلة للكبرى (8 أبيات)
- الطّاقة الثّالثة التي ليمين الكبرى (8 أبيات)
- الطّاقة الرّابعة التي تُشرف على الصّهريج (8 أبيات)
- الطّاقة الخامسة الصّغرى (5 أبيات)
- الطّاقة السّادسة الصّغرى (5 أبيات)
- الطّاقة السّابعة (5 أبيات)

..... – الطّاقة الثّامنة وهي في موضع المدخل، نظم الملك يوسف الثّالث أبياتًا كُتبت فيه.

وزّع ابن فُركون شعره بدقّة على سبع طيقان بما يتناسب مع حجم كلّ طاقة، وترك الثّامنة لينظم الملك يوسف أبياتًا تُكتب فيها. (انظر: ابن فركون: الدّيوان، ص271–275).

(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص271.

لله مبنًى سَنيٌّ حُسْنُ بهجتِهِ　　لِكُلِّ قلبٍ إذا حيّا به شَغَفُ

ومَصْنَعٌ مُعْجِبٌ بالصُّنْعِ مُتَّصِلٌ　　بالعِزِّ مُنْفَرِدٌ بالحُسْنِ مُتَّصِفُ

كأنَّ مِنْ جنّةِ الفِرْدَوْسِ مَنْشَأَهُ　　فَهَذِهِ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفُ

ولشدّة إعجاب ابن فُركون بهذا المبنى، جعل منشأه من جنّة الفردوس، مُتمثّلاً الآية الكريمة: ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]، ووجد ابن فركون سبيله إلى التخلص إلى مدح الملك بعد أن وصف المبنى وبهجته، فقال[2]:

هذا وناصرُ دينِ اللهِ أبْدَعَني　　كما عَلِمْتَ وذاكَ العِزُّ والشَّرَفُ

مَوْلى الوُجُودِ عَميدُ المُلْكِ يُوسُفُهُ　　ومَنْ عُلاهُ لَما راعَهُ الشَّلَفُ

وكان ابن فُركون يسير في وصفه هذه المباني على نمط واحد، وهو التّخلّص إلى مدح الملك، ومن هذا قوله يصف الطّاقة الكبرى من المبنى[3]:

هذا هُوَ النّاصِرُ المَوْلى الهُمامُ فَدَعْ　　ذِكْرى أَمينٍ ومَأْمُونٍ ومُؤْتَمَنِ

لا زالَ والنَّصْرُ مِنْ عَلْيائِهِ مُقْتَبَسٌ　　مُبَلِّغَ الوَطَرِ المَرْجُوِّ في الوَطَنِ[4]

استخدم الشّاعر في وصفه التّشخيص، فأنطق الجمادات بألسنة تلهج بمدح الملك وتخلّد ذكرها[5]، وأراد من وراء ذلك كسب رضا الملك وإعجابه بمقدرته على نظم ما يأمره به، ومن هذا ما قاله في وصف القُبّتين الرّائقتي الشّكل خلف الدّار الكبرى لمّا شرع

---

(1) الزّمر، 20.

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص272.

(3) السّابق، ص273.

(4) جاء عجز البيت في الدّيوان كالآتي: «مُبْلِغُ الوطر المرجوّ في الوطن»، خطأ، ولعلّ الصّواب ما أثبتُه.

(5) هذا الأسلوب مُستخدم عند ابن الجيّاب وابن زمرك وعبد الكريم القيسيّ. انظر: المقراطي: ابن الجيّاب، ص282، والمعصوميّ: ابن زمرك، ص27–30، والقيسيّ، عبد الكريم (ق9): الدّيوان، تحقيق جمعة شيخة، وعبد الهادي الطرابلسي، المؤسّسة الوطنيّة للتّرجمة والتّحقيق والدّراسات «دار الحكمة»، تونس، 1988، ص220، 221، 222، 223، وغيرها، غير أنّ القيسيّ أنطق الجمادات من غير مدح.

الملك في تجديدهما عام (815)، فقال في وصفهما وكأنهما ماثلتان للعيان[1]:

أنا قُبّةٌ للصُّنعِ إذْ ... أنا للمشرّفة موضعُ

لانت محاسنُ فاتنت ... في نيل وصفي تطمعُ

وترى البحيرة بيننا ... مرآة حسنٍ تلمعُ

وبنحوه راحة يوسف ... هي للظماء المترعُ

والخصّة العليا بها ... كأسٌ بكفٍّ ترفعُ

والماء في جنباتها ... متدفّقٌ متدفّعُ

فكأنها الملك الذي ... نيل المكارم يجمعُ

بعث الشاعر الحياة في هذه القبّة، فأنطقها ليعبّر عن جمالها وروعتها، وليعبّر عن ولائه وخدمته للملك. ويرى قدامة بن جعفر (337) أنّ أبرع الشعراء في الوصف «من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوفُ مركّبٌ منها، ثمّ بأظهرها فيه وأولاها، حتى يحكيه بشعره، ويمثّله للحسّ بنعته»[2].

وعلى النّسق نفسه نظم مقطوعات بأمر الملك عام (816)، لتُكتب في طيقان مَحْكيّة بالجصّ، قال فيها[3]:

لولا الحياء من ابن نصرٍ لم أجزْ ... منعَ السّؤال الغمر عن قُصّاده

فكأنني لم صامتٍ عن نطقه ... أو جفنُ عينٍ هائمٍ برقاده

وقطعُ هذا اللون من شعره كثيرة ملوّنة، مزيّنة بما يتخيّره لها من جميل الصّور وحسن المفردات، ومن جملة ما كتبه قطعٌ أمرهُ الملكُ بنظمها لـ «تُكتب في قوس اتُّخذت لمقامه

(1) ابن فركون: الدّيوان، ص276.
(2) قدامة: نقد الشّعر، ص119.
(3) ابن فركون: الدّيوان، ص281.

الكريم أسماه الله»[1].

ومن جميل وصفه أبياتٌ ارتجلها في وصف حائطيّ[2]، قال فيه[3]:

حَلَلْتُ كَما أَبْهَى بِأَسْعَدِ مَنْزِلِ	فَما أَنا عَنْ شُهْبِ السَّماءِ بِمَعْزِلِ
تَفَتَّحَتِ الأَلْوانُ مِنّي أَزاهِرًا	تُلاعِبُها أَيْدي جَنوبٍ وَشَمْأَلِ
فَلَمْ تَرَ مِثْلي في الزُّهْرِ وَالزَّهْرِ في الرُّبا	فَمَنْ مُخْبِرٍ بِأَنّي عَلى إِثْرِ مُجْمَلِ
تَكامَلَتْ إِحْسانًا وَحُسْنًا فَمُبْصِري	بِرَغْمِ الأَعادي في سُرورٍ مُكَمَّلِ
فَيا مُبْصِرًا مِنّي المَحاسِنَ وَالحُلى	أَعِدْ في جَمالي نَظْرَةَ المُتَأَمِّلِ
إِذا احْتَفَلَ النّادي وَراقَتْ صُدورُهُ	فَلي رُتْبَةُ التَّصْديرِ في كُلِّ مَحْفِلِ
إِذا سُدِلَتْ حَوْلي السُّتورُ بِمَنْزِلٍ	نَظَرْتُ لَها وَالشُّهْبُ دوني مِنْ عَلِ

رسم الشّاعر في هذه الأبيات صورةً جميلة، تحكي روعة الحائطيّ وجماله، وفيها مدح للملك، وهذا ما سار عليه في كلّ هذا اللّون من الشّعر، وتبدو الصّنعة واضحة في هذا النّوع من الوصف، لأنّ ابن فُركون كان مُلزمًا أحيانًا - بحُكم وظيفته وموقعه في البلاط النّصريّ - أن يخلّد بشعره آثار الملك ومنجزاته. وبهذا يكون واحدًا من المشاركين في متابعة بناء غرناطة ومعالمها، فأضاف مادّة جديدة تكوّن مع ما تركه ابن الجيّاب وابن زمرك موضوعًا لدراسة، تبرز القيمة الجماليّة والتّاريخيّة لهذه الأشعار، التي زيّنت جدران قصر الحمراء، فجعلتْ منه موطن إعجاب واستحسان[4].

وممّا تناوله الأندلسيّون بالوصف الخمرةُ ومجالسها، فأخذوا «الصّفات المعروفة للخمر، من حيث القدم واللّون والإشراق والطّعم والرّائحة، وأضافوا إليها روح البيئة

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص278.

(2) الحائطيّ ستار يكون على الجدار الدّاخلي للقبّة أو الغرفة. انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص286، حاشية253.

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص286.

(4) انظر: فرحات: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، ص201-240، والطّوخي: مظاهر الحضارة، ص60-65.

الأندلسيّة»[1]، فصارت خمريّاتهم «تبدو مُستحدَثة مُبتكَرة مُتّشحة بوشاح الأندلس، ورقّة شعراء الأندلس»[2]، وتفنّن الأندلسيّون «بعقد مجالس الشّراب في الرّياض والمُتنزّهات، وحتّى في الزّوارق التي تتهادى في نهر الوادي الكبير وغيره»[3]، وكانوا إذا وصفوا الخمرة ومجالسها، مزجوا كثيرًا بينها وبين المرأة والطّبيعة[4].

واستمرّ هذا الغرض في مملكة غرناطة، غير أنّ عناية شعراء غرناطة في هذه المرحلة بالخمريّات لم تكن ذات شأن بالقياس للمراحل السّابقة، ومع ذلك فإنّ ما وصل من شعرهم الخمريّ القليل «يدلّ على إتقانهم وإجادتهم لوصفها وتصوير آنيتها، فضلاً عن الدّقّة والبراعة التي أبدوها في رسم مجالس الأنس والسّاقي»[5].

ولم يستقلّ شعر الخمرة لدى شعراء غرناطة «عن الأغراض الشّعريّة الأخرى باستثناء مقطوعات محدودة ليوسف الثّالث»[6]، واشترك معه في هذا شاعره ابن فُركون، «وما عدا ذلك فقد جاء توطئات ومقدّمات»[7].

وقد خصّ أبو الحُسين الخمرةَ في شعره، بثلاث قصائد وبعدد من الأبيات المفردة، وَصَفَ فيها مجالسها وأثرَها، وذَكَرَ أسماءها، مع أنّ في ديوانه ما يعبّر عن نبذها، وعن موقفه الرّافض لها، انطلاقًا من التّحريم الدّينيّ لها، فقد صدرت عنه أبيات في مدح يوسف الثّالث، وقد حلّ بمالقة حيث «أَمَرَ، أيّده الله، بإراقة الخمور وتغيير المُنكَر وإذاعة أفعال البِرّ»[8].
ووجد ابن فُركون في عمل يوسف جانبًا من جوانب مدحه وتأكيد صفة تديّنه، فكانت

---

(1) العوسي، فيروز: الخمرة في الشّعر الأندلسيّ حتّى نهاية عصر الطّوائف، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1987م، ص226.
(2) السّابق، ص223.
(3) سماكة، باقر: التّجديد في الأدب الأندلسيّ، مطبعة الإيمان-بغداد، ط1، 1971، ص49.
(4) انظر: ضيف: عصر الدّول والإمارات، الأندلس، ص293، الدّقّاق: ملامح الشّعر الأندلسيّ، ص210.
(5) الحسينيّ: الشّعر الأندلسيّ، ص284.
(6) السّابق، ص284. يبدو أنّ الحسينيّ توصّل إلى هذه النّتيجة دون أن يطّلع على ديوان ابن فُركون، ففيه قطع مستقلة في وصف الخمرة.
(7) السّابق، ص284.
(8) ابن فُركون: الدّيوان، ص120.

إشارته إلى إراقة الخمور في قوله[1]:

أسلفتُ ثَمّ المنقودَ في الله مُظهِرًا   لأفعالِ برٍّ في الوجودِ لمحوِها

وموقفه هذا من الخمرة هو موقف عدد من شعراء الأندلس، الذين حفلت دواوينهم «بقصائد تُبيّن أحداث إراقة الخمرة، وتتحدّث عن منعها وتحريمها»[2].

وعلى أيّة حال فإنّ ابن فركون قد وصفها ووصف مجالسها، ووجد في اللّيل الوقت الآمن المناسب لشربها، فتحدّث عنها في معرض وصفه لعشيّة من عام (815)[3]، ولعلّها واحدة من كثيرات نعِمَ فيها بصحبة الملك ومنادمته، قال في مطلعها[4]:

شمسُ العشيّةِ آذنتْ بغروبِها   كالكأسِ راقَ بها لنا مشروبُها

وتجسّدت الشّمس امرأةً في وصف جميل في صور مُتتابعة، ظهرت الشّمس فيها شاحبةً عليلةً أضناها فراق من تحبّ، فحزنت وهزلت، وألقت على الأفق شحوبها، ورحلت الشّمس وحلّت العتمة، فتلألأ المكان بنور الخمرة الحمراء المتّقدة كالنّار[5]:

فابنْ مُحيّاها بنورِ مُدامةٍ   حمراءَ تُبدي النّارَ من تلهيبِها
ما اعتلّتِ الأجسامُ إلاّ قبلَ أنْ   نفحتْ على الأرواحِ كفُّ طبيبِها[6]

وما أن غابت شمس العشيّة حتّى أشرق القمر وأرسل أضواءه الرّخيّة، فأضاء مجلس الشّاعر في جنّات غرناطة السّاحرة، وضاع طيب خمرته المعتّقة ممزوجًا بروائح الزّهر[7]:

إنْ غابتِ الشّمسُ المنيرةُ أطلعتْ   بدرًا ينوبُ سناهُ عن محجوبِها
خَلَفًا مُعتّقةً على الرّوضِ الذي   تُهدي أزاهرُهُ نواسمَ طيبِها

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص121.
(2) العوسي: الخمرة في الشّعر الأندلسي، ص129.
(3) ابن فركون: السابق، ص254.
(4) السابق، ص254.
(5) السابق، ص254.
(6) جاء في الدّيوان: «مصححة»، ولعلّ الصواب ما أثبتّ.
(7) السابق، ص254.

ولا يكتمل مجلس الشّرب إلاّ بوجود السّاقي، الذي يبعث البهجة والسّرور في نفوس الشَّرْب بجمال شكله ورشيق حركاته[1]:

مـنْ كـفِّ مُـبادِ المَعاطفِ ساحرٍ   غَـزِلِ النّواظرِ مُنتهى مَطلُوبِها

يَشفي نُفوسَ العاشقينَ منَ الجوى   فيزيلُ ما تَلقاهُ منْ تَعذيبِها

فإذا ناولهم كؤوس خمرتهم جلس إلى عوده تداعب أنامله الأوتار، يُبهج السّاهرين بحسن صوته ويسرّهم ببديع عزفه، فيرتشفون خمرتهم على الحالة[2]:

والعودُ يُسمِعُ صوتَهُ في كفِّهِ   ما شاءتِ العُشّاقُ منْ مَرغوبِها

باحتْ بمكنونِ الهوى أوتارُهُ   فشفَتْ فؤادَ غريبِها بغريبِها

بأناملٍ لمْ ترقَ منبرَ عودِها   إلاّ أباحَ الشُّرْبَ وَعظُ خطيبِها

وكأنَّ يُمناهُ تخطُّ لكلِّ منْ   تركَ الخلاعةَ: آنَ وقتُ وجوبِها

ومجلس الخمرة هذا هو المكان الذي يُلقي فيه الشّاعر عن كاهله همومَ النّهار وعنائه، ويجد فيه الرّاحة والسّرور، حيث الغناء والحبّ والغزل[3]:

فاعجبْ لآياتِ السُّرورِ وجِدَّ في   ترتيلِها وانظرْ إلى ترتيبِها

نطقتْ فقلْ لا بالذي أيقنتهُ منْ   مكتومِها المشروحِ أوْ مكتوبِها

وكان لابن فركون مجلس آخر، وساعات أمضاها مع مليكه، سرقها في غفلة من عين الزّمان، هي ساعات من اللّيل، وجد فيها أبو الحسين الرّاحة والأنس، وألفى فيها الهدوء من صخب النّهار[4]:

كأنَّ الدُّجى يَلقى لديهِ منَ الضُّحى   خبيئٌ إذا أوضحتَهُ عادَ مُبهَما

(1) ابن فركون: الديوان، ص254.
(2) السّابق، ص254-255.
(3) السّابق، ص255.
(4) السّابق، ص258.

في قلب الظّلام تشرق خمرته، فهي مصدر أنسه وراحته، ويتلألأ شعاعها ليهدي من ضلّ إلى حمى الأنس، ولينير الدّرب إليه[1]:

عجبت لهُ يخفي حمى الأنس عامدًا   ونشرةُ الصّهباء تغلبه معلما

وهذي كؤوس الرّاح يجلو شعاعُها   ولولاهُ لمْ تُهدَ السّبيل إلى الحمى

ويمتزج مجلس الخمرة بالطّبيعة، فيغدو حباب الخمر زهرًا ودرًا، وتغدو الكؤوس نجومًا متألقة أقرب إلى اليد من نجوم السّماء، فلا داعي إلى تأمّل نجوم السّماء البعيدة، ما دامت كؤوس الخمرة قريبة المنال، وهي تُغني عنها لبعدها[2]:

حبابٌ يريك الزّهر فوق غصونه   أو الدُّرّ في مثنى العُقود مُنظّما

أتزهى على البُعد النُّجوم وبيننا   كؤوسٌ لنا تبدو على القرب أنجما

وتظهر المرأة في مجلس آخر ساقية ومُغنيّةً، تسحر الشّاعرين وتسلب عقولهم، وتمتزج بالطّبيعة فتغدوان معًا أنس المجلس وبهجته، تلك بزهرها وطيبها، وهذه بصوتها وحسنها[3]:

وغانيةٍ تريك الشّعر حقًا   بمجمع العين والألحان والرّوح[4]:

فكمْ في الرّوض من زهرٍ نضيرٍ   وحسنك الأزاهر من زهاها

خلالًا ليس بالشّعر الملمّم   فتنثني كلما حنّت صباها

وكمْ في اللّفظ منْ دُرٍّ نظيمٍ   تنغّمُ كيف شئتَ بها، وقال لي:

نعم ابن فُركون في مجلس الخمرة بأحلى   بما تهديه منْ طيبِ النّسيم

أوقاته، وكأنّه في الجنّة التي حُدّثت عنها.   صحيح الوجد يروي عنْ سقيم

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص258.
(2) السابق، ص258.
(3) السابق، ص255.
(4) السابق، ص255.

فيه من الزهر والخمر والسحر، ما   فهل الجنات جنات النعيم؟

ويظهر مجلس الخمرة عالمًا قائمًا بذاته، هو عالم خاصّ بالشاعر وندمائه، فيه البهجة والسّرور والمتعة، ولا همّ فيه ولا نصب، اجتمع فيه الأصحاب ليلاً لينسوا هموم النّهار.

وخلاصةُ القول أنّ الوصف غرض تقليديّ، أسهم فيه شعراء غرناطة، فوصفوا الطّبيعة والحياة الاجتماعيّة، وكان ابن فُركون واحدًا منهم، أسهم معهم في شعر الوصف، فوصف الطّبيعة ومظاهرها، ووصف الأبنية التي أنشأها يوسف الثّالث في غرناطة، ووصف من الحياة الاجتماعيّة مجالس الأُنس التي كان يحضرها.

4 - الغَزَلُ

وهو غرض تقليديّ في أدبنا العربيّ، أجاد فيه الشّعراء وأكثروا منه، وقد زخر ديوان الشّعر الأندلسيّ بشعر الغزل، وكثر وتنوّع «وكأنّما أصبح النّاس جميعًا شعراء، ينظمون في الغزل والحبّ، وبيان دقائقه ومشاعره»[1].

والغزل الأندلسيّ واحد من أغراض شعر المذهب القديم، الذي برزت فيه ملامح طريقة العرب المتمثّلة «بالنّزوع العذريّ، الذي جنح إليه كثير من الشّعراء، وبالطّابع البدويّ، الذي وسم أجواء هذا الغزل على مختلف العصور الأندلسيّة»[2].

وقد طرق الشّعراء في غرناطة أغراض الشّعر كلّها، «وكان الغزل أقربها إلى نفوسهم، وكانوا يُنشدونه تعبيرًا عن عواطفهم، وافتتانهم بالجمال، وترويحًا عن أنفسهم، وتنفيسًا عن همومهم وآلامهم، إذ وجدوا في المرأة السّكينة والرّاحة والاستقرار»[3]. وشجّعت على النّظم في هذا الغرض أحوال المجتمع الغرناطيّ، وما فيه من ترف وولع بمباهج الحياة

(1) ضيف: عصر الدّول والإمارات، الأندلس، ص256.
(2) رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص46.
(3) بازجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ في ظلّ بني الأحمر، شراع للدّراسات والنّشر والتّوزيع-دمشق، ط1، 1995، ص63.

واختلاط، دون خروج على حدود الأخلاق والدّين[1]، فترك الغرناطيّون غزلاً كثيرًا، ظهر في شكل مُقدّمات للمدائح، وفي قصائد أخرى مستقلّة[2]، وكان لابن فُركون نصيب وافر من هذا الشّعر، توزّع بين غزل بالمرأة في مُقدّمات المدائح، وفي قصائد مستقلّة، وغزل بالمذكّر.

افتتح ابن فُركون معظم مدائحه بمطالع غزليّة على عادة الشّعراء قبله، وكثرت لديه هذه الافتتاحيّات لكثرة المدح الذي «طغى على أغراضه الأخرى، فاشتمل على ثلثي الدّيوان تقريبا»[3].

ومن المعروف أنّ افتتاح المدائح بالغزل عادة قديمة، جرى عليها الشّعراء، وقد نوّه المتنبّي (354) إلى هذه العادة، مُنكرًا على الشّعراء هذا التّقليد، حين قال[4]:

إذا كانَ مَدْحٌ فالنَّسِيبُ المُقَدَّمُ   أَكُلُّ فَصِيحٍ قالَ شِعْرًا مُتَيَّمُ؟

ومع ذلك فإنّ الشّعراء ظلّوا يفتتحون مدائحهم بالغزل، مُدركين أنّ هذا مجرّد تقليد ساروا عليه، غير أنّهم لم يرغبوا في الخروج عليه.

ويبدو أنّ ابن فُركون قد وَجد في أساليب القدماء ما يكفيه مؤونة البحث عن أساليب جديدة، فردّد ما قالوه في مقدّماتهم الغزليّة، فذكرَ الأماكن التي ذكروها، ومن هذا قوله في مقدّمة مدحة، نظمها عام (811)[5]:

أَمِنْ بارِقٍ أعلامَ نَجدٍ بِصالِحٍ   تَذَكَّرْتَ عَهْدًا بالحِمى وَهْوَ نازِحُ؟

---

(1) انظر: بازجي: الغزل في الشعر الأندلسي، ص63.
(2) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسي، ص126.
(3) بازجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ في ظلّ بني الأحمر، ص92.
(4) المتنبّي، أحمد بن الحسين (354): ديوان المتنبّي بشرح أبي البقاء العكبريّ (616) المسمّى بالتّبيان في شرح الدّيوان. ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياريّ وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة-بيروت، د.ت، 4 أجزاء، 3/221. وقد شرح العكبري بيت المتنبّي، بقوله: «...ما كلّ فصيح عاشق، ولا كلّ منسب متيّم، ولكنّ آخرهم في ذلك يتلو أوّلهم حتّى كان ما يتواصفونه من الحبّ قد جعلوه خاتمة الشّعر» 3/221.
(5) ابن فُركون: الدّيوان، ص110.

يلوح بآفاق الثّنايا كأنّه ... تصافي وداد بالسّلام تصافح

كلفتُ على بُعد المزار بجيرة ... جوانحنا وَجْدًا إليهم جوانح

لقد فتنة الأبصار حسنُ أوانس ... لهنّ قلوبُ الهائمين مسارح

عمد ابن فركون في مقدّماته إلى إظهار وجده وأساه، وكان يعيش في جوّ الذّكرى، ذكرى الحبيبة الرّاحلة، ومن هذا قوله في مقدّمة مدحة رفعها إلى الملك، وقد كان ركابه في ظاهر جبل الفتح عام (813)، تحدّث في هذه المقدّمة عن الظّعائن التي رحلت، فقال(1):

سلْ ركاب الحمى غداة استقلّتْ: ... مَنْ حوتْ في رحالها وأقلّتْ؟

وتنادت للسُّرى فؤادي لولا ... أنّ هداها برقُ الثّنايا لضلّتْ

وشبّه ابن فُركون الظّعائن بالسّفن، والسّراب بالبحر، والفتيات المُحتجبات في الخدور بالبدور التي غربت(2):

أهي السُّفن في بحارِ سرابٍ ... أم مطايا لدى الكثيب أطلّتْ؟

غربتْ في خدورهنّ بدورٌ ... أفلتْ، لا بل غَرْبُ صبري فلّتْ

تتبّع ابن فُركون في عدد من مقدّمات مدائحه الأساليب القديمة، فخاطب الخليلين على عادة الشّعراء القدماء، فقال(3):

ألا يا خليليّ انزلاها تعاهدا ... ومرّا عليها بالرّكاب وعرّجا

ووجد في خطاب الخليلين السّبيل إلى النّجوى، وبثّ الشّكوى، فقال(4):

خليليّ هل أبصرتما عاشقًا مثلي ... يحنّ كما حنّ الغريبُ إلى الأهلِ

خليليّ كفّا عن ملامة هائمٍ ... مسامعُهُ لم تصغِ يومًا إلى العذلِ

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، 164–165.

(2) السّابق، ص165.

(3) السّابق، ص193.

(4) السّابق، ص265.

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي تَمَلَّكَنِي الهَوَى ... فَوَاللهِ مَا أُمْسِي بِغَيْرِ الهَوَى شُغْلِي

وقد نهج في عدد من مُقدّمات مدائحه أسلوبًا قصصيًا أسماه المقاولة، ومنه قوله في مقدّمة مدحة[1]:

وَرُبَّ لائِمَةٍ تُلْقِي السَّلامَ عَلَى ... حُبِّ الَّتِي وُدُّها طَبْعٌ وَمُكْتَسَبُ

قالَتْ: لِمَا هِمْتَ مِنْ بَعْدِ السُّلُوِّ بِها؟ ... فَقُلْتُ: كُلُّ فَتًى قَدْ هَزَّهُ الطَّرَبُ

قالَتْ: تَمَتَّعْ بِبَدْءٍ مِنْ مَحاسِنِها ... فَقُلْتُ: قَدْ سُدَّتْ مِنْ دُونِها الحُجُبُ

وتحدّث في مقدّماته عن الطّيف، الذي أتاه ليلًا[2]:

أَمِنْهَا سَرَى طَيْفٌ إِلَيَّ حَبِيبُ؟ ... وَلَيْسَ سِوَى نَجْمِ السَّمَاءِ رَقِيبُ

أَتَى وَظَلامُ اللَّيْلِ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ ... وَلِلْبَرْقِ ثَغْرٌ فِي دُجاهُ شَنِيبُ

وتناول ابن فَركون في مُقدّماته الغزليّة كثيرًا من المعاني، التي تناولها الشّعراء من قبل، كالعذول والواشي[3]:

زَعَمَ العَواذِلُ أَنَّ قَلْبِيَ عاشِقٌ ... صَدَقُوا وَلَكِنْ لا يُرِيدُ سِواها

وركّز ابن فَركون في غزل المقدّمات على أوصاف المرأة الحسّيّة، فمحبوبته التي وصفها جميلة، ولها من صفات الحُسن ما جعله يشبّهها في إحدى قصائده بالظّبي والقضيب والبدر، فقال[4]:

هِيَ الظَّبْيُ جِيدًا وَالقَضِيبُ تَأَوُّدًا ... لِنَفْسِيَ مُلْكًا دُونَ شَرْطٍ وَلا اسْتِثْنا

بِمَنْظَرِ مَرْآها وَحُسْنِ قَوامِها ... إِذا ما تَبَدَّتْ تُخْجِلُ البَدْرَ وَالقَنا

وبالغ في وصف جمالها، فشبّهها في قصيدة أخرى بالشّمس، التي فاقت بحُسنها

---

(1) ابن فَركون: الدّيوان، ص147.

(2) السّابق، ص154.

(3) السّابق، ص168.

(4) السّابق، ص126.

وبهائها الكواكبَ والنّجومَ التي حولها[1]:

هيَ الشّمسُ تتجلّى سناها وقدْ غدا   لها البدرُ والجوزاءُ قرطًا ودُملجا[2]

ولشدة إعجابه بطيبها بالغ في الحديث عنه وتصويره[3]:

لو أعصرتِ القبولُ عرفًا وطيبًا   لمْ يهبّ النّسيمُ إلاّ عليلا

ويبدو أنّ طيبها قد أثّر في نفسه، فتحدّث عن هذا الأثر، فقال[4]:

عهدي بها والطّيبُ يذكي عرفَهُ   منها، فأحيا النّفسَ إذْ حيّاها

ومع أنه ركّز في غزل المقدّمات على الجوانب الحسّيّة في وصفه، فقد ظلّ عفَّ اللّفظ طاهر القول، وجاءت هذه المُقدّمات في بداية مدائحه، يُمهّد بها للدّخول إلى غرضه الرّئيس، ليخلص ببيت يصل به إلى الممدوح، «وقد ظهر اهتمامه، كغيره من شعراء عصره، جليًا بالمخالص»[5]، ومن هذا قوله في مدْحة رفعها إلى مولاه الملك يوسف الثّالث[6]:

وما طابَ عرفُ الزّهر إلاّ لأنّهُ   تمازجهُ منْ ذكرهنّ نوافحُ

وما راقَ نظمُ الشّعر إلاّ لأنْ غدتْ   لناصر دين الله فيه المدائحُ

وقوله في مدْحة أخرى[7]:

فلولاها لما همْنا غرامًا   ولا ملْنا إلى الذّكرى ودادا

ولولا ناصرُ الدّين ابنُ نصرٍ   لما نلْنا منَ الدُّنيا مُرادا

---

(1) ابن فركون، الدّيوان، ص193.

(2) الدّملج: دَملج الشّيء إذا سوّاه وأحسن صنعته، والدُّمْلُج: المفضّض من الحُليّ. انظر: ابن منظور، مادّة (د م ل ج).

(3) ابن فركون: الدّيوان، ص160.

(4) السّابق، ص168.

(5) بارجي: الغزل في الشعر الأندلسي، ص96.

(6) ابن فركون: الدّيوان، ص110.

(7) السابق، ص113.

وقوله في مدحة ثالثة(1):

وأجبتُ من قد لامني في ذكرها: دارُ الحبيبِ أحقُّ أنْ تهواها

هي حضرةُ المولى الخليفةِ يوسفٍ   شرفُ الملوكِ إمامُها مولاها

أمّا غزل القصائد المستقلّة عند أبي الحسين بن فُركون فقد أفرد له في ديوانه قسمًا، قال في أوّله: «ومن النّسيب وما يتّصل به، والغزل المتّبع قويم مذهبه»(2). وهو غزل قليل وهو لا يختلف حقًا عن غزل المقدّمات، ففيه الرّحيل وتوقّع البين، والعيش في جو الذّكرى، وفيه وصف للمرأة، وذكر ما كان له من مواقف معها، وهو في ذلك كلّه لم يعدُ نسق الغزل التّقليديّ المشرقيّ، ممّا أوقعه هذا في التّكرار أحيانًا، ومن هذا قوله(3):

وذكّرتني عهدنا بالحمى   منازلُ لاحَ بالأبرقينِ

وإنْ أطلعتْ وجهها مشرقًا   طلوعَ الصّباحِ من المشرقينِ

نعمتُ بها تحت عفوِ الظّلالِ   نعيمَ المُهنّا بالجنّتينِ

وما خمرةُ الكأسِ ما بيننا   بأعذبَ من خمرةِ المرشفينِ

ولم يُغفل ابن فُركون الحديث عن الطّبيعة، فجمع بين الطّبيعة والغزل على عادة الشّعراء الأندلسيّين(4)، فذكر الحبّ بين أحضان الطّبيعة، فلوّن هذا الغزل بألوان الطّبيعة الغرناطية الجميلة(5):

أيّ ليلٍ نعمتُ فيه بليلى   وعلينا من النُّجوم رقيبُ؟

وسْطَ روضٍ حكى الشّمائل منها   إنْ هفتْ شمألٌ وهبّتْ جنوبُ

فهي تحكيه إذ يروقُ جمالاً   زهرةٌ أو يميلُ منهُ قضيبُ

---

(1) ابن فركون، الديوان، ص168-169.
(2) السّابق، ص254.
(3) السّابق، ص256.
(4) انظر: الشّكعة: ملامح الشّعر الأندلسيّ، ص207.
(5) ابن فُركون: الديوان، ص257.

وكرر الصفات التي ذكرها في غزل المقدّمات، فصوّر في محبوبته أشياء كثيرة، فقد دقّق النّظر في وجهها، فإذا ابتسمت صوّر ابتسامتها[1]:

وَلَهَا ثَغْرٌ رَاقَ مِـنْ ثَغْرِهَا الَّذِي   سَقَانِي كُؤُوسَ الحُبِّ حِينَ تَبَسَّمَا

ولم يَفُتْه أن يتحدّث عن طيبها، وهو من جملة ما أحبّه فيها[2]:

إِذْ لَهَا بَهْجَةٌ وَحُسْنٌ عَجِيبٌ   وَجَمَالٌ بَادٍ وَعَرْفٌ وَطِيبُ

ومع أنّه وصف في هذا الغزل المرأة ومفاتنها، فإنّ الطّابع العامّ لغزله ظلّ طابع الغزل العذريّ العفيف، حيث ردّد معاني العذريّين التي ردّدوها في أشعارهم، فكانت معانيه لا تخرج عن تصوير المعاناة والألم، وما يحسّه من لواعج الحبّ وتباريح الغرام، وتصوير الألم والحرمان، وبهذا اقترب ابن فركون من العذريّين، فقد صوّر ما يعتريه من أهوال الحبّ[3]:

أَنَا الَّذِي حِينَ تَقْصِينِي أُقَرِّبُهَا   وَإِنْ أَسَاءَتْ بِإِحْسَانٍ أُجَازِيهَا

إِنْ كَانَ يَمْنَعُ طَرْفِي أَنْ يُشَاهِدَهَا   فَلَيْسَ يَمْنَعُ قَلْبِي مِنْ تَمَنِّيهَا

أَلْقَى هَوَاجِرَ لَا أَلْقَى ظَهِيرَتَهَا   أَرْعَى نُجُومَ لَيَالٍ لَا أُرَاعِيهَا

وأعلن الخضوع للمحبوبة فهو يرضى بما ترضاه، فكان يتقبّل منها أقسى المواقف على قناعة تامّة منه، وصوّرها متكبّرة معرضة عن حبّه تتمنّع وتبخل[4]:

تَتِيهُ مَائِلَةً عَنِّي وَقَائِلَةً:   أَنْتَ الَّذِي قَدْ أَلِفْتَ الهَجْرَ وَالتِّيهَا

ومع أنّها عذّبته بهجرها وصدّها، فإنّ هذا العذاب كان يرضيه[5]:

قَالَ: قَدْ عَذَّبَتْكَ هَجْرًا وَصَدًّا   قُلْتُ: فِيهَا يُسْتَعْذَبُ التَّعْذِيبُ

وعلى الرّغم من محاولة ابن فركون إبراز مشاعره في غزله، فإنّ فيه فتورًا وجمودًا، ولم

(1) ابن فركون: الديوان، ص 261.
(2) السابق، ص 257.
(3) السابق، ص 260.
(4) السابق، ص 260.
(5) السابق، ص 257.

ينبع من قلبٍ مُحبٍّ عاش التّجربة حقيقة، إنّما يظهر فيه مُقلداً مترسّما خطى السّابقين من الشّعراء.

وكان لابن فُركون إلى جانب غزله بالمرأة غزلٌ بالمُذكّر، ظهر في شعره في قصائد ومقطوعات، تغزّل فيها بمُحمّد وفارس وهلال، وهم فتية كانوا يقومون على خدمة الملك، كما تغزّل بعازف العود والسّاقي، فيما نظمه من وصف مجالس الأنس.

والغزل بالمذكّر ظاهرة برزت في الشّعر الأندلسيّ «عنصرًا جديدًا من عناصر الشّعر المجونيّ، وقد شاعت هذه الظّاهرة في الشّعر المشرقيّ المُحدَث، بدءًا من العصر العبّاسيّ، فحاكاها مُحدَثو الأندلسيّين»(1)، كما أنّ البيئة الأندلسيّة المُتحضّرة اقتضت «وجود هذه الظّاهرة، بما شرع يضطرب فيها من مجالس اللّهو والشّراب، وما يتّصل بها من سُقاة وغلمان، مع ضعف الوازع الدّينيّ والخُلقيّ بين تلك الفئات، واستسلامها إلى رغباتها الشّاذة المُنحرفة»(2).

وعُرف الغزل بالمُذكّر في غرناطة، وشارك فيه شعراء العصر جميعًا، ولم يتورّعوا عن إنشاده والتّظرّف به(3)، فلم يأتِ هذا الشّعر مُعبّرًا عن سلوك وواقع عمليّين، وما جاء إلّا «بدافع التّظرّف، وإبراز المقدرة على النّظم في هذا الفنّ، وقصد المُداعبة والتّندّر في مجلس الأنس»(4).

وقد أسهم ابن فُركون في النّظم في هذا الغرض، غير أنّه لم يُكثر منه، وأشار إلى أنّ مثل هذا الشّعر قُصدَ منه المُداعبة والانبساط(5)، ومن نظمه في هذا الغرض قصيدة تغزّل فيها بمُحمّد، كُلّفَ بنظمها عام (799)، فقال فيها(6):

---

(1) رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص63.

(2) السّابق، ص63.

(3) انظر: بلاجي: الغزل في الشعر الأندلسيّ، ص246-247.

(4) رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص63.

(5) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص241، 353.

(6) السّابق، ص262. وقع مُحقّق الدّيوان في الوهم، حين أشار إلى أنّ يوسف هو الذي كلّف ابن فُركون بهذه القصيدة، غير أنّ ابن فُركون لم يَعْيَّن كاتبًا إلّا في عام (808)، ولم يكن يوسف ملكًا في هذا العام. انظر: ابن فركون: الدّيوان، ص262، حاشية234ج.

كَلِفتُ بِظَبيٍ رائِعِ الحُسنِ لَم يَزَل   يُـرَوِّعُ قَلبي بِالنَّوى وَهوَ آنِسُ

إِذا هُوَ أَبدى لِلعُيونِ جَمالَهُ   أَراكَ ضُحى الشَّمسِ وَاللَّيلُ دامِسُ

وَمَهما بَدَت يَومًا ذَوائِبُ شَعرِهِ   أَرَتكَ ظَلامَ اللَّيلِ وَاليَومُ شامِسُ

أُولع ابن فُركون بهذا الظّبي فائق الجمال، الذي جمع من صفات الحُسن وجهًا أبيض مُشرقًا كالشّمس، وشعرًا أسود فاحمًا كالّليل، فبهر العيون، وشغل القلوب.

وتتابعت أبيات ابن فُركون في الغزل بهذا الظّبي الجميل، وأعلن فيها حبّه له وهيامه به، وأضفى عليه من صفات الجمال أبهاها، ثمّ ما لبث أن صرّح باسمه، فناداه بقوله[1]:

مُحَمَّدُ يا مَن هامَ قَلبي بِحُبِّهِ   وَمَن لي فُؤادي مِن هَواهُ مُقايِسُ

لَئِن غِبتَ عَن عَيني وَطَيفُكَ زائِرٌ   فَلا الوَصلُ مَمنوعٌ وَلا القَلبُ آيِسُ

ولابن فُركون قصيدة أخرى تغزّل فيها بهلال[2]، الذي كان له نصيب من الحُسن والجمال، فأغرم به الشّاعر، وعاش مُعذّبًا بين نعيم قربه، وجحيم بُعده[3]:

يا هِلالَ الجَمالِ يا بنَ هِلالٍ   يا هِلالاً يُزري بِأُنسِ الهِضابِ

عَذَّبَ القَلبَ إِذ نَأَيتَ وَأَضحى   ذا نَعيمٍ إِذا أَتَيتَ غِبَّ إِيابِ

واتّصل جانب من هذا الغزل بمجالس الأنس؛ فقد أنشد ابن فُركون قصيدة في مجلس أنس أقامه الملك في قرية «نُبله» خارج غرناطة؛ حيث كان يؤمّها للاصطياف عام (815)، دعا الشّاعر نُدماءه في هذه القصيدة إلى شرب الخمرة وانتهاب الملّذات، وحثّهم على تناول الكأس من كفّ السّاقي، الذي هو متعة للنّظر وراحة للنّفس[4]:

مِن كَفِّ مَيّادِ المَعاطِفِ ساحِرٍ   هُوَ لِلنَّواظِرِ مُنتَهى مَطلوبِها

---

(1) ابن فُركون: الديوان، ص262.

(2) للمنتبه يوسف الثّالث قصيدة في التغزّل بهلال. انظر: يوسف الثّالث: الديوان، ص122–123.

(3) ابن فُركون: الديوان، ص263.

(4) السّابق، ص254.

يشفي نفوس العاشقين من الجوى ... فيزيل ما تلفاه من تعذيبها

فإذا تناول منه الشاهرون كؤوس خمرتهم جلس إلى عوده تداعب أنامله الأوتار، يُبهج الساهرين حوله بحسن صوته، ويسرّهم ببديع عزفه، فينهلون ويعلّون من خمرتهم، مُستمتعين بسماع ألحانه[1]:

بأنامل لم ترق مثبر عودها ... إلا أباح الشُّرب وَهْدَ عطيبها
وكأنما يشدو لنا لكن من ... ترك الخلاعة: إذ وقت وجوبها

سلب هذا الفتى بجمال شكله وبديع عزفه عقول الساهرين فأقبلوا على الشُّرب، وقد فتنهم وسحرهم، وأعلن لهم أنَّ وقت السهر والمتعة قد حان، فعليهم المبادرة.

وشبيه بهذا قصيدة ارتجلها ابن فُركون في مجلس، حضره الملك عام (816)، واسترسل فذكر الفتى فارسًا، متحدثًا عن شكله وحركاته وغنائه[2]:

أتستقبل البدر المنير وفارس ... إذا ما تبدى خلت بدرًا منمما
جميلٌ قد القاه الجمال لأمره ... وحكّمه في نفسه فتحكما

ولهؤلاء الغلمان من سمات الجمال وصفات الفتنة ما يجعلهم متعة النظر ومطلب القلب، ففارس[3]:

جميلٌ قد ألقاه الجمال لأمره ... وحكّمه في نفسه فتحكما

وقد جمع فارس من سمات الجمال سحرَ اللحظ، وتمنّع الغزال، وتنعّم الغصن[4]:

حكى السحرَ لحظًا والغزالَ تفلتًا ... كما أشبه الغصن النضير تنعّما
يُديرُ من الأكواب خمرًا ولفظُهُ ... يُديرُ كؤوس الحب منهما تبسّما

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص254.
(2) السابق، ص258.
(3) السابق، ص258.
(4) السابق، ص258.

وسمات الجمال هذه سمات أنثوية، ردّدها الشّعراء في وصف محبوباتهم والتّغزّل بهنّ، ووصف بها ابن فُركون الغلمان الذين تغزّل بهم، غير أنّه لم يتخطّها إلى ما فيه الفحش، إنّما ظلّ في غزله هذا كغزله بالمرأة، عفّ اللّفظ طاهر القول.

وخلاصةُ القول أنّ الغزل غرض تقليديّ، وكان أقرب أغراض الشّعر إلى نفوس الغرناطيّين، فأكثروا منه في شعرهم، وقد أسهم معهم ابن فُركون فيه بنصيب وافر من شعره، وتنوّع عنده بين غزل بالمرأة، وغزل بالمذكّر.

5 - الإخوانيّات

تضمّ الإخوانيّات بين جناحيها مجموعةً من الموضوعات، كالعتاب والاعتذار، والشّكر والهديّة، والتّهنئة والتّعزية، وغيرها، و«سُمّيت القصائد والمجموعات الدّائرة في فلك هذه الموضوعات بالإخوانيّات، نسبةً إلى الإخوان، ويُقصد بهم هنا مُطلق الأقارب والأصدقاء على السّواء»[1]، وهي صورةٌ من الشّعور الإنسانيّ النّبيل، إنّها في الحقيقة الشّعر الذي ينبع من أعماق النّفس، لا سعيًا وراء مغنم، ولا رغبةً في عطاء أو منزلة، ولا طمعًا في الحصول على جاه وسلطان[2].

وقد نشطت في عصر مملكة غرناطة المُطارحاتُ الإخوانيّة بين الشّعراء وأصدقائهم وأساتذتهم وأقاربهم لما بينهم من صلات قويّة وعلاقات وثيقة، وتناولت أغراضًا متنوّعة كالعتاب والشّكر والتّهنئة، والمداعبة والشّكوى، وغير ذلك[3].

وشغلت الإخوانيّات جانبًا من شعر ابن فُركون، فأفرد له قسمًا في ديوانه، جمع فيه مكاتباته مع عدد من أعلام عصره[4]، الذين كانت لهم علاقات طيّبة معه، وهذا لوجودهم

---

(1) الملا، محمّد عثمان: الإخوانيّات في الشّعر العباسيّ، نادي المنطقة الشّرقيّة الأدبيّ - الدّمّام 1412/1992، ص5.

(2) انظر: حميد، بدير متولّي: قضايا أندلسيّة، دار المعرفة-القاهرة، ط1، 1964، ص133.

(3) انظر: النّقراط: ابن الجيّاب، ص220، وبلزجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص109.

(4) انظر: ابن فركون: الديوان، 287-321.

في بيئة أدبيّة خصبة، ولما تمتّع به ابن فركون من مركز مرموق، في بلاط بني الأحمر، فكان من الطّبيعيّ أنْ يردّ علىَ مُراسلات تلك الشّخصيات، التي بادرت إلى مراسلته، أو أن يبدأها هو بالمُراسلة.

وإخوانيّاته هذه مُوجّهة إلى الأعيان والقُضاة والفقهاء والوزراء، وهذا أمر طبيعيّ لرجل مثل ابن فُركون، هو شاعر الملك وكاتبه. وكان أوّلَ مَنْ كاتبهم أبو الحسين بن فُركون الفقيه أبا بكر بن الأيسر، الذي اطّلع على محاولات أبي الحسين الأولى في نظم الشّعر، وأراد ابن الأيسر أن يختبره، فكتب قطعة يطلب إليه فيها أن يجيبه بشعر، وكان ذلك عام (799)، فقال[1]:

أَجِبْ بِشَيْءٍ مِنَ المَنْظُومِ تُتْحِفُهُ ... فِي اليَوْمِ جَزْلٍ كَمَا أَنَّ الفَنِيقَ رَعَا[2]

البَدْءُ وَالوَزْنُ مِنْهُ وَالرَّوِيُّ كَذَا ... فَكُلُّ مَصْنَعٍ لَهُ تَنْحُو الصَّوَابَ مَعَا

الشَّمْسُ أَنْتَ وَمَنْ جَارَاكَ نَجْمُ دُجَى ... يَخْفَى إِذَا نُورُهَا مِنْ أُفْقِهِ بَزَغَا

فصابحه ابن فُركون برسالة، صدّرها بقطعة نظمها على الوزن والرّويّ، عبّر في مطلعها عن فرحه وسروره بقطعة أبي بكر بن الأيسر، فقال[3]:

أَهْلًا بِقِطْعَةِ شِعْرٍ رَاقَ مَنْظَرُهَا ... فَكُلُّ قَلْبٍ إِلَيْهَا قَدْ صَبَا وَصَغَا

عَقِيلَةٌ ذَهَبَتْ بِالعَقْلِ حِينَ غَدَتْ ... يُزْرِي سَنَاهَا بِنُورِ الشَّمْسِ إِنْ بَزَغَا

وأثنى فيها على صاحبها، وأشاد بفضائله مُعبّرًا بشيء من المبالغة عن عجزه عن ذكرها أو إحصائها، مدفوعًا بما تشير إليه الأبيات من حبّ وإعجاب بالفقيه أبي بكر[4]:

أَنَّى بِهَا أَوْحَدٌ أَضْحَتْ فَضَائِلُهُ ... تَكِلُّ عَنْ مُنْتَهَاهَا أَلْسُنُ البُلَغَا

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص287.

(2) الفنيق: هو الفحل المُكرم من الإبل، الذي لا يُركب ولا يُهان لكرامته على أهله. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ف ن ق).

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص287.

(4) السّابق، ص288.

فلا بناني بمأبى حضرها أبداً ولا لساني إذا أثني عليه لغا

كانت علاقة أبي الحسين بن فُركون برجال غرناطة علاقةً طيّبة منذ صغره، وقبل تبوّئه أيّ منصب في البلاط النّصريّ، ولعلّ هذا يعود إلى مكانة والده في غرناطة، فكان إكرام أبي الحسين الفتى من إكرام والده، وكان من هؤلاء الشّريف أبو العبّاس الحسنيّ، الذي أطلعه ابن فُركون على قصائد من نظمه، فكتب له الشّريف أبو العبّاس[1]:

تبارك الله من نجلٍ قد اجتمعت محاسن الأب فيه وهو يزدادُ

فلا برحتُ أرى منك الذي علمت عن جده المنتقى مصرٌ وبغدادُ

فراجعه ابن فُركون بلزوميّة، بدأها بالمدح والثناء، منوّهًا بمقام السّادة الشّرفاء، وانتسابهم إلى النّبيّ الكريم[2]:

سَمْعًا فإنْ عُدّدتْ أوصافُ مَجدكُمُ لا يأخذُ الشُّهبَ إحصاءٌ وتَعدادُ

منّا الصّلاةُ عليكُمْ والسّلامُ إذا ما كانَ للذّكرِ في الأفواهِ تَرْدادُ

والحقُّ ...مُرتقي النّجمِ الطّباقِ لكمْ لا زُخْرُفٌ سادَهُ عادٌ وشدّادُ[3]

كان أبو الحسين بن فُركون وثيق الصّلة بهذا الشّريف، وبأخيه الشّريف أبي المعالي قاضي الجماعة في عهد مُحمّد السّابع أخي يوسف الثّالث، وبينهما مُطارحات شعريّة، منها ما كتبه الشّريف أبو المعالي لأبي الحسين عندما تقدّم عام (805) للعمل في الكتابة في البلاط النّصريّ، غير أنّ المسؤول عنها آثر غيره بها، فكتب إليه الشّريف أبو المعالي أبياتًا، خاطبه في مطلعها بقوله[4]:

أبا الحسين الذي أضحت محبّته لديّ خالدةً في جنّة الخلد

وواساه فيها بعاطفة أبويّة صادقة، وأكّد له فيها بحكمة أنّه سيحظى بما يريد عمّا قريب،

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص290.
(2) السّابق، ص290.
(3) صدر البيت في الدّيوان مكسور. ولعلّه يوزن بإضافة «في» بعد «والحق ...».
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص293.

فما عليه إلّا أن يصبر ويتأنّى(1):

واصبرْ لعلّ قريبَ آتٍ واردُ ما ... تهوى من العزّ عمرًا غيرَ ما نفد

ولا يهيضنك من تأخير نفعهمُ ... إنّ الفذالك تأتي آخرَ العدد

وكم جوادٍ جيادُ الخيلِ تسبقُهُ ... أولى الرّهان قد استولى على الأمد!

فجاوبه أبو الحسين ـ والسّعادة تغمر قلبه ـ بقصيدة عبّر فيها عن أثر هذه الأبيات في نفسه، وممّا قاله(2):

حسبي هديّةُ سبطِ المصطفى شرفًا ... تُهدي وتنقلُ من زندٍ إلى زندِ

ألا أجيدُ قريضي وهو لي عضدٌ ... لا ينهضُ الرّمحَ إلّا شدّةُ العضدِ

ألا أردُّ خصيمَ القوم إذ حسدوا ... وقد مضى عذلُه بالبغي والحسدِ

وقد تحقّق لأبي الحسين بن فركون ما بشّره به أبو المعالي، فارتسم «في كتّاب المقام العليّ، في اليوم الرّابع والعشرين لصفر، من عام ثمانية وثماني مئة»(3)، فكتب إليه مهنّئًا بذلك الفقيهُ القاضي أبو عبد الله الألبيريّ، بقوله(4):

هنيئًا يا سليلَ أولي النّجابة ... بما قُلِّدتَ من سامي الكتابة

ونهنيها لقد ظفرت بكفءٍ ... حوى من كلّ معلومٍ لبابه

أراك الله فيها ما تمنّى ... من النّعم الجسام المستطابة

وزادك بعدها جاهًا عظيمًا ... تنال به الحظاية والحجابة

فردّ عليه ابن فركون بأبيات، أعلن فيها حبّه له، وشوقه إليه، وإعجابه بأبياته(5):

---

(1) ابن فركون: الدّيوان، ص293.
(2) السّابق، ص294.
(3) السّابق، ص301.
(4) السّابق، ص301.
(5) السّابق، ص301-302.

فما خانني وهناً فرطُ تذلُّلي ... ولا شوقُ المزيد إلى خيانةْ

فلله منها بنتُ فكرٍ ... تُبلِّغُ كلَّ ذي أملٍ طِلابهْ

وبالله من أبدى خلالها ... تُشيرُ إلى معالي بالكتابةْ

وظلَّ الشَّريف أبو المعالي إلى جانب أبي الحسين بن فُركون، يأخذ بيده ويسدّد خطاه، فعندما توفيّ محمّد السّابع وبويع يوسف الثّالث أشار الشَّريف أبو المعالي على أبي الحسين أن يحتالَ لنفسه، ويتقدَّم إلى الملك الجديد بمدائحه، قائلاً له في قطعة(1):

فاحتلْ لنفسك فيما تَحتفلْ به ... كلّاً أو استرشد الأعلامَ تَهديها

وأوحى إليه بإشارة لطيفة أنَّ الملك صار في قصر الحمراء، وأنَّ الوقت مناسب ليخطو خطوته الأولى(2):

الشَّمسُ بالزّهرة الحمراء مُشرقةٌ ... كمْ نعمةٍ للهدى لا رَيبَ تُبديها

فأجابه أبو الحسين بقصيدة جاء فيها(3):

سِبطُ النَّبيِّ حباني من عقائله ... بنتَ فكرٍ يروقُ السَّمعَ شاديها

مُشيرةً بالتماس الرِّفد من علمٍ ... ما ضلَّت الخلقُ قصداً وهو هاديها

فهم أبو الحسين بن فُركون إشارة الشَّريف، واستطاع بذكاء أن يستفيد منها في مدح الملك، مؤكّداً له أنَّ الشَّمس التي أشرقت في قصر الحمراء لا يخفى نورها عن الأبصار(4):

قدْ لاح بالزّهرة الحمراء شمسُ هدًى ... فليس يخفى عن الأبصار باديها

فما قبضنا اللُّهى لولا مكارمها ... ولا بسطنا يداً لولا أياديها

وعمل أبو الحسين بنُصح الشَّريف، فوجّه مدائحه إلى الملك الجديد، وكان لها أن

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص296.
(2) السّابق، ص296.
(3) السّابق، ص297.
(4) السّابق، ص397.

لاقت القَبول عند الملك.

وغاية شعر الإخوانيّات تقويةُ الرّوابط بين الأصدقاء، واستمرار التّواصل بينهم، وليست المجاملة وتبادل المدح والثّناء فقط، وفي إخوانيّات ابن فُركون مثال رائع، فيه اعتذارٌ لطيفٌ، وتقرّبٌ من صديق له هو أبو الفضل بن جماعة، الّذي كتب إلى ابن فركون يخطب ودّه، فقال[1]:

وكَمْ رُمْتُ بثَّ الوُدِّ نحْوَك عاقني ... قصُوري فما أعْمَلْتُ في بثّه خطّا

ولمّا تناهى الوُدُّ بي واستفزّني ... وأوْرى زنادُ الشّوْق في مُهْجتي سَقْطا

خطَبْتُ بهذي منْك بكْرًا فريدةً ... جعلْتُ لها حفْظي وتكْرمتي شرْطا

وأبدى إعجابه بصديقه ابن فركون، وأشار إلى إبداعه في النّظم والنّثر والخطّ[2]:

فنظْمٌ تودُّ الزُّهْرُ ناصِعَ دُرِّه ... على نحْرِها سِمْطًا وفي أُذْنِها قُرْطا

ونثْرٌ يودُّ الزّهْرُ رَوْنقَ حُسْنِه ... إذا لقِيتْ منْ وابِلٍ هاطِلٍ قِسْطا

وخطٌّ يُباهي الرّوْضَ غِبَّ سَحابِه ... فإنْ خطَّ فالوشْيُ اليمانيّ قدْ خطّا

فبادر ابن فُركون إلى ارتجال قصيدة، كتبها على ظهر بطاقة صديقه ابن جماعة، أبدى فيها إعجابه بقصيدته التي وصلته منه[3]:

وإنَّ أباها في ذوي النّظْم أوْحدٌ ... فلوْ نظَموا عقْدًا لكانَ لهُ وُسْطى

وراضتْ بالاستحْقاقِ إعْلاءَ قدْرِه ... لما كانَ عنْ أعْلى المراتِبِ مُنْحطّا

أما هذهِ أبْكارُ أفْكارِه التي ... تجلّتْ فلمْ ترْضَ النُّجومَ لها رَهْطا

واستمرّت بينهما العلاقة وثيقة قويّة، فكتب إليه ابن فُركون يستدعي منه جوابًا لقريحته،

(1) ابن فركون: الديوان، ص309.
(2) السابق، ص309.
(3) السابق، ص310.

وطلب إلى صديقه أن يجيبه بأبيات، فقال[1]:

أبا الفضلِ بادرْ بالجوابِ ضحى غدٍ ... فإنّ بكَ الآدابَ وارٍ زنادُها

وزوّجْه بها من عذرِ فكرِك غادةً ... تروقُ جمالاً لا يُرامُ عنادُها

فإنّ المعاني كلّما زُفّت نظمُها ... ليسبقُ في شأوِ المعالي جوادُها

فكتب إليه ابن جماعة أبياتًا لا يبدو منها أنها الجواب عن قصيدة صديقه ابن فركون، وقد أثنى فيها عليه كثيرًا، وختمها بالدعاء له، بقوله[2]:

وبقيتَ تصعدُ والزمانُ مساعدٌ ... حتى تسامي الطرْفَ والجوزاءَ

فأجابه ابن فركون بقصيدة ظهر منها أنّ هناك من ساءه أن يكون هذان الصديقان على وفاق، فحاول التفريق بينهما، غير أنّ ابن فركون تدارك الأمر، فاعتذر إليه بشعر رقيق صادق وبأسلوب لطيف، منوّهًا بفضله، مشيدًا بمكانته وقدره[3]:

مهلاً أبا الفضلِ الذي في فضلِه ... ووداده تركَ الأنامَ وراءَ

ما ينبغي ذمُّ الصديقِ وإنّما ... لصديقِه شكرًا دائمًا وثناءَ

وإذا جفاني مَن وثقتُ بودِّه ... كان الجزاءُ الصفحَ والإغضاءَ

ما إنْ يعاملني بسوءِ قطيعةٍ ... إلاّ بذلتُ مودّةً ووفاءَ

وأكّد له أنّه لم يُسئ إليه، وأنّ من نسب إليه كلام الإساءة هو المُسيء[4]:

عجبًا يقال: أساءَ في منظومِه ... حاشا أنال خطيئةً ما شاءَ

مَن جاء ينسبُ لي كلامَ إساءةٍ ... فهو الذي قد قالَه وأساءَ

نظمي الذي طلبَ الجوابَ ضحى على ... جهةِ التأنّسِ لا التعنّتِ جاءَ

(1) ابن فركون: الديوان، ص311-312.
(2) السابق، ص312.
(3) السابق، ص313.
(4) السابق، ص313.

وهذه الأبيات على ما فيها من بساطة في التّعبير تبدو صادقة، غايتها التّقريب بين الأصدقاء وتقوية أواصر المحبّة بينهم. ولعلّ هذه الأبيات أجمل ما في شعره كلّه، ففيها تعبير عن معانٍ إنسانيّة عظيمة ومشاعر نبيلة وأخلاق سامية، ترسم ملامح ابن فُركون الحقيقيّة المزيّنة بالعقل الرّاجح والعاطفة الصّادقة.

وخلاصةُ القول أنّ الإخوانيّات غرض من أغراض الشّعر، أسهم فيه الغرناطيّون، وأسهم معهم فيه ابن فركون، وعبّر فيه عن قضايا خاصّة وأمور شخصيّة.

وتجلّى في إخوانيّاته صدق الإحساس وعمقه، فترجمه بكلمات عذاب، وعاطفة صادقة ولغة جميلة، بعيدة عن المبالغة، فلا تكلّف ولا اصطناع.

6 – الهجاءُ

الهجاء غرض شعريّ قديم، تطوّر تطوّرًا كبيرًا منذ العصر الجاهليّ، وصوّر عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء، سواء أكان في ذلك شخصيًا أم اجتماعيًا أو سياسيًا. وذكر قُدامة بن جعفر (337) أنّه ضدُّ المديح، و«كلّما كثرت أضدادُ المديح في الشّعر، كان أهجى له»(1).

وكانت سوق الهجاء في الأندلس رائجة «بخلاف ما توهّم كثير من الباحثين، فتنوّعت موضوعاته وتعدّدت، ولولا إعراض بعض نُقّاد الأندلس عن إثبات الهجاء في مؤلّفاتهم، لظفرنا بقدر كبير من شعر الهجاء»(2).

ولم يكن هجاء الأندلسيّين إلا امتدادًا لهجاء المشارقة، «مع اختلاف فيما بينهم، من

---

(1) قدامة: نقد الشّعر، ص92.

(2) عيسى، فوزي: الهجاء في الأدب الأندلسيّ، دار المعارف–مصر، 1982م، ص259. وانظر: ضيف: عصر الدّول والإمارات، الأندلس، ص222، والشّكعة، مصطفى: الأدب الأندلسيّ، موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين–بيروت، ط5، 1983م، ص55. غير أنّ الدّكتور جودت الرّكابي يرى أنّ الهجاء لم يجد له في ربوع الأندلس أرضًا خصبة تلائمه إذ لم «تقم له سوق رائجة فيها ولا سيّما الهجاء السّياسيّ لقلّة الأحزاب السّياسيّة». (الرّكابي: في الأدب الأندلسيّ، ص115).

حيث طول الهجاء وقصره، فالهجاء عند المشارقة تكثر فيه القصائد الطّوال، وتقلّ فيه الموضوعات، وهذا عَكْسُ ما يلحظه الدّارس في هجاء الأندلسيّين، حيث تكثر المُقطّعات وتكاد تنعدم الطّوال»[1].

واستمرّ الهجاء في الأندلس حتّى عصر بني الأحمر، فقد كان «شرر الهجاء يتطاير في إمارة بني الأحمر، ويكثر الشّعراء حينئذ من ذمّ الزّمان والنّاس»[2]. وكان ابن فُركون واحدًا من شعراء غرناطة الذين تركوا شعرًا في هذا الغرض، غير أنّه قليل لا يعدو بضعة مواضع، وهو هجاء سياسيّ، ولم يكن هجاءً شخصيًّا أو اجتماعيًّا، فقد كان ابن فركون في غنًى عن المُنازعات الشّخصيّة، فحياته في البلاط النّصريّ شغلته عمّا يختلف فيه النّاس ويتنازعون، ولم يكن في القصر مَنْ يُنازعه مكانته عند الملك.

ولم يستقلّ الهجاء لدى ابن فُركون بقصائد مفردة، إنّما ظهر موضوعًا من موضوعات المدحة، وظّفه الشّاعر في هجاء مَنْ ناصَبَ ملكه العداء، فكما كان مُوكلاً بمدحه كان عليه الدّفاع عنه وهجاء أعدائه، فهو إذا تعكّر صفو العلاقات بين الملك وجيرانه انبرى يدافع عن مليكه، وارتفع صوته بالهجاء.

وكان الإسبانُ أوّلَ الذين نالوا نصيبهم من هجائه، فصوّرهم أذلاّء ضعفاء، يسعون إلى طلب سلم يوسف تجنّبًا لمواجهته التي لا قِبَلَ لهم بها، فقال عام (812)[3]:

ثَنْيِ وُفُودُ الرُّومِ تَخْطُبُ سِلْمَهُ ... فَيَكُفُّ كَفَّ القَادِرِ المُتَعَفِّفِ

وَرُسُلُهُمْ يَخْشَى فَيُرْدِفُ رُسْلَهُ ... إِرْسَالَ جَيْشٍ بِالهَلَاكِ مُرْدِفِ

سلب ابن فُركون الرُّومَ صفةَ الشّجاعة، ورماهم بالجبن والتّخاذل، فظهروا مهزومين مُشتّتين، غير قادرين على الوقوف في وجه الأمير معزّ الدّولة، الذي انتصر عليهم في غزوة شقورة، فقال ابن فُركون يصف حالهم في قصيدته التي هنّأ فيها الملك بعيد الفطر عام

---

(1) الرّكابي: في الأدب الأندلسي، ص245.

(2) ضيف: عصر الدّول والإمارات، الأندلس، ص230. وانظر: الحسيني: الشّعر الأندلسي، ص239، 241 وما بعدها، والوائلي: الشّعر الأندلسي، ص148 وما بعدها.

(3) ابن فركون: الدّيوان، ص130.

(812)(1):

فتسارعوا ... إلى داعي الهُدى — والرُّومُ عَنْ سُبُلِ النَّجاةِ بمَعْزِلِ(2)

ضاقَتْ عليهِمْ أرضُهُمْ فتوقَّفُوا — والمَاءُ يجمَعُ نفسَهُ في الجدولِ

وتجمَّعتْ فِرَقُ العِدا ثُمَّ انْثَنَتْ — ما بينَ مُنهزِمٍ وبينَ مُجدَّلِ

شالَتْ نعامتُهُمْ سَريعًا بعدَ ما — وَقَفُوا وُقوفَ الخاضعِ المُتذلِّلِ

وكان لهذا الهجاء أثره الكبير في إثارة حماسة المقاتلين وتشجيعهم، فكان يصوّر الرّوم في كلّ مرّة يعرض فيها لذكرهم جبناء مهزومين ورماهم بالجبن، فقال في معرض وصفه لخيل يوسف الثّالث، التي تغير على الرّوم فترعبهم(3):

فإذا أحسَّ الرُّومُ منها غارةً — كادَتْ ملوكُهُمُ تُفارقُ حِسَّها

وهو حين مدح مليكه وذكر وقائعه الحربيّة، صوّر ما وصل إليه أعداؤه من ذلّ ومهانة وهلع، من جيش يوسف الثّالث وسيفه، فصوّر ملك الرّوم فرناندو «الإفنت» الذي استولى على حصن الصّخرة في ذي الحجة عام (812) (4):

وإنَّ إِفَنْتَ الرُّومِ يَجْهَدُ كُلَّما — أراهُ المقامُ اليوسفيُّ جِهادَهُ

وكانَ وَلِيُّ المُلْكِ والي مَطامِعًا — هَوًى ساقَهُ نحوَ الهوانِ وَقادَهُ

فَفازَ بها طَرْفًا وَخَلَّ يُقِلُّها — وأَلقى لديها ذُخْرَهُ وعَتادَهُ

وسارَ إلى أوطانِهِ وهوَ خائفٌ — لها لا إلى الأُخرى يُرَجّي مَعادَهُ

ووصف جيشه الذي يقوده، فنسبه إلى الضّلالة إمعانًا في النّيل منه، فقال(5):

---

(1) السّابق، ص197.

(2) صدر البيت في الدّيوان مكسور، ولعلّه يوزن ويتمّ معناه بإضافة «طُرًّا» أو «مسلمًا» بعد «فتسارعوا...».

(3) ابن فركون: الدّيوان، ص146.

(4) السّابق، ص157-158.

(5) السّابق، ص158.

يقودُ لها جيشَ الضّلالةِ قاصدًا   فحلّاه المقدارُ عنها وزادَهُ

وصوّر ما آلت إليه حاله بعد أن تصدّى له يوسف، واسترجع حصن الصّخرة منه رغمًا عنه[1]:

لذلك عدوُّ الدّينِ رُوِّعَ سِرْبُهُ   بحيثُ حكى خفقَ البنودِ فؤادُهُ

كأنْ بوليِّ الكفرِ قد خابَ سعيُهُ   وكفَّ الشّلاّقي بغيَهُ وعنادَهُ

كأنّي به قد سارَ والسّيفُ خلفَهُ   وخلّفَ للفتحِ المبينِ بلادَهُ

ولم يتّخذْ إلّا الفرارَ وقايةً   ولم يدّخرْ إلّا المذلّةَ زادَهُ

صوّر ابن فركون إقنت الرّوم بصورة مخزية، وهو يلوذ بأذيال الفرار بعد الهزيمة التي لحقت به وبجيشه، والتي لم يصمد فيها أمام يوسف.

وظّف ابن فُركون مع شعراء غرناطة الهجاء في الجهاد ضدّ الإسبان، «فكان الجبن أبرز صفة ذميمة، حاول الشّعراء التّركيد عليها في شعرهم الهاجي، علاوة على التّهكّم والتّشفّي، فرموهم بالرّهبة والفزع من القتال، حتّى قبل أوانه وقصورهم في معرفة فنون الحرب ودقائقها»[2].

ولم يكن جيرانُ يوسف الإسبان وحدهم هدفَ ابن فُركون، إذ لم ينجُ جيرانه المغاربةُ من سهام هجائه؛ فقد نشب صراع بين يوسف وأبي سعيد عثمان المرينيّ صاحب فاس، وساءت العلاقات بينهما بسبب جبل الفتح (أو جبل طارق)، وقد خرج أهل جبل الفتح عام (813)، على حكم يوسف بتحريض من أبي سعيد وتدبير من حاشيته[3]، فكان من الطّبيعيّ ألاّ يقف ابن فُركون ساكتًا، وهو يشهد منازعات يوسف مع جيرانه، لهذا انبرى يندّد بأعداء مليكه ويعرّض بهم.

وقد نال أهل جبل الفتح نصيبهم من هجاء ابن فُركون، فعندما هنّأ الملك بحلوله مالقة

(1) السّابق، ص158.
(2) الوائلي: الشّعر الأندلسيّ، ص149.
(3) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة، ص70، وما بعدها.

«بإثر مخالفة المارقين من أهل جبل الفتح»[1]، عرّض بهم وذمّهم[2]:

ما جبلُ الفتحِ ومن تحتهُ	إذ أصبحوا قد كفروا الأنعما
كأنّ بهم والرّوعُ في أرضهم	يأبى لشمل الأمن أن ينظما
كأنّ بهم قد عاد عُرْبانهم	مغرى بما أولته مغرما

سعى ابن فُركون إلى التقليل من شأن أهل جبل الفتح، الذي جحدوا نعمة الملك، وأنكروا فضله، وصوّرهم وقد سرى الرّوع فيهم، فانفرط عقد أمنهم.

واستمرّت محاصرة الجبل من عام (813 حتى 817)، انتقل فيها الملك يوسف الثالث مرارًا من غرناطة إلى المحلّة المُرابطة[3]، وظلّ ابن فُركون يذمّ أهل الجبل كلّما ذُكروا، فقال[4]:

جبلُ الفتحِ قد حللتُ لديه	ذروة قد علت مكانًا وجلّت
ولأهليه في الخلاف نفوسٌ	بشياطين للضّلال استزلّت

سعى ابن فركون إلى الكشف عن دخائل نفوس أهل الجبل، وفضح سرائرهم، وأشار إلى الذين حرّضوهم على فعلهم، وكنّى عنهم بـ «شياطين الضّلال».

وذكر ابن فُركون اسم «يحيى»، من بين الذين أسهموا في أحداث جبل الفتح، عام (817)، فقال [5]:

ويحيى الذي قد فرّق اللهُ جمعَهُ	فَفَرّ إلى أقصى البلادِ وفرّطا
وكانَ لمولاهُ حقوقٌ عظيمةٌ	عليه وجلّتْ أنْ تضاعَ وتُغمطا

(1) ابن فركون: الديوان، ص161.
(2) السابق، ص162.
(3) انظر: السابق، المقدّمة، ص71. انظر ملحق الجداول: جدول ترتيب الأحداث التي وثّقها ابن فركون في ديوانه.
(4) السابق، ص164.
(5) السابق، ص189.

وَلَكِنْ مَنْ تُرْجِبُهُ أَفْعَالُ غَدْرِهِ إِذَا رَامَ أَنْ يُرْضِيَ [بِهَا] اللهَ أَسْخَطَا[1]

فَلَا أَمَلٌ مِنْ قَبْلُ إِلَّا مُخَيَّبٌ وَلَا عَمَلٌ مِنْ بَعْدُ إِلَّا وَأُحْبِطَا

لَقَدْ غَادَرَتْهُ حَالُهُ وَاهِيَ القُوَى وَفِي وَحَلٍ مِنْ غَدْرِهِ مُتَوَرِّطَا

وذكر معه أخًا أو صديقًا له، فقال فيهما[2]:

وَنَادَى عَلَى بُعْدٍ أَخَاهُ فَجَاءَهُ وَحَلَّ حِمَاهُ بَعْدَمَا كَانَ أَحْلَطَا[3]

لَقَدْ غَبَطَا عَشْوَاءَ إِذْ خَبَطَا الَّتِي بِهَا كُلُّ شَرٍّ فِي الوُجُودِ تَأَبَّطَا

وطال ابن فُركون بهجائه أبا سعيد نفسه، وأكثر من نعته بوليّ الضّلال والبغي وظهير الكافرين، كقوله[4]:

وَوَلِيُّ الضَّلَالِ وَالبَغْيِ لَمَّا أَنْ غَدَا وَهْوَ مُظْهِرٌ طُغْيَانَهْ

ظَاهَرَ الكَافِرِينَ وَاعْتَزَّ حَتَّى أَظْهَرَ الحَقُّ وَالهُدَى بُرْهَانَهْ

نَكَثَتْنِي بِهِ وَقَدْ خَابَ سَعْيًا وَجَلَتْ دَعْوَةُ الرَّدَى بُهْتَانَهْ

وَسُيُوفُ الهُدَى تُحَكَّمُ فِيهِ قَدْ أَهَانَتْهُ كَيْفَ شَاءَتْ مَكَانَهْ

ولم يكن هجاؤه حادًّا؛ ومع ذلك فقد عبّر عن نفسه ونفس الملك، وتمتّع بشجاعة أدبيّة عظيمة؛ إذ استهدف شخصيّات مهمّة في أوج سلطتها، فهجاهم ولم يبال فكان بالغ الشّجاعة، فقال مشيرًا إلى علاقة أبي سعيد بفرناندو[5]:

وَحَلَّ عُرَى الإِسْلَامِ فِي عَقْدِ سِلْمِهِ هُدَاةُ الفَتَى طَوْعًا لَهَا وَهْوَ يَجْنَحُ

(1) عجز البيت مكسور في متن الدّيوان، ولعله هكذا كما صحّحه محقّق الدّيوان في الحاشية:

«إذا رام أنْ يرى رضا الله أسخطا»

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص189.

(3) أحلط: حلف ولجّ وغضب واعتزّ في الأمر أو نزل بدار مهلكة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (ح ل ط)، والفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة (ح ل ط).

(4) ابن فركون: الدّيوان، ص178.

(5) السّابق، ص205.

إلـى أنْ غـدا قـدْ أطْـفـأ اللهُ نـارَهُ وكـانـتْ لـنَصْـرِ الـمُـشْـرِكـينَ تَـلـوحُ

وكما عبّر الشّاعر عن غيظ مليكه وحقده على السّلطان المرينيّ أبي سعيد، فقد أصلت سيفه على حاجبه الطّريفيّ، فقال[1]:

تـاصِـرَ الـدّيـنِ خُـذْ إِلَـيْـكَ بِـشَـارَهْ قَـدْ كَـسَـتْـهَا الـفُـتُـوحُ أَبْـدَعَ شَـارَهْ

وَالَّـذي رَامَـكَ الـعِـنَـادَ ذَلِـيـلٌ قَـدْ أَبَـى الـدَّهْـرُ أَنْ يُـقِـيـلَ عِـثَـارَهْ

عَـانَـهُ الـدَّهْـرُ فَـارْتَـقَـى الـدُّهْـرَ مِـنْـهُ مُـرْتَـقَـى حَـطَّ فـي الـوَرَى مِـقْـدَارَهْ

وَالـطَّـرِيـفِـيُّ كَـانَ أَصْـلاً لِـهَـذَا الَّـ ـقَـصْـدِ لا نَـالَ مَـا ارْتَـضَـى وَاخْـتَـارَهْ

وخلاصةُ القول أنّ الهجاء غرض شعريّ قديم، استمرّ في الأندلس حتّى عصر بني الأحمر، فأسهم فيه شعراؤهم، وأسهم فيه معهم ابن فركون بقدر يسير، ومع ذلك فقد عكس جانبًا من الخصومات التي نشبت بين الملك وجيرانه، وكان الشّاعر يسعى إلى إثبات تفوّق ملكه على خصومه وجدارته في الوقوف في وجوههم. وجاء هجاؤه في معرض مدحه ولم يفصله عنه، إنّما امتزج به ليخدم غرضه العامّ من القصيدة.

7 - الرّثاء

الرّثاء من أغراض الشّعر العربيّ التّقليديّة ومن أهمّها، وللأمم كلّها مراثٍ، و«الأمّة العربيّة من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي»[2].

يعبّر الشّاعر في الرّثاء عن مشاعر الحزن والحسرة لوفاة الفقيد ورحيله عن الدّنيا، «وسبيل الرّثاء أن يكون ظاهر التّفجّع، بيّن الحسرة، مخلوطًا بالتّلهّف والأسف والاستعظام، إن كان الميّت ملكًا أو رئيسًا كبيرًا»[3].

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص166-167.

(2) ضيف، شوقي: الرّثاء، فنون الأدب العربي، الفنّ الغنائي، دار المعارف-القاهرة، 1979، ص5.

(3) ابن رشيق: العمدة، 805/2.

وتقوم المرثية على تَعداد محاسن الميّت، ولهذا رأى قدامة (337) «أنّه ليس بين المرثية والمدحة فصل، إلاّ أن يُذكر في اللفظ ما يدلّ على أنّه لهالك، مثل (كان، وتولّى، وقضى نحبه) وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأنّ تأبين الميّت إنّما هو بمثل ما كان يُمدح به في حياته»[1].

واتّخذ الرّثاء في الشّعر العربيّ منذ الجاهليّة ألوانًا ثلاثة[2]، هي النّدب والتّأبين والعزاء[3]، غير أنّ هذا التّقسيم لا يعني استقلال هذه الأنواع بعضها عن بعض، فقد تجمع المرثية الواحدة أكثر من نوع من هذه الأنواع.

وقد شغل الرّثاء حيّزًا كبيرًا من ديوان العرب في الأندلس، وتمثّلت فيه أنواع الرّثاء الثّلاثة[4]، فقد بكى الشّعراء موتاهم بدموع غزار، وتفجّعوا عليهم، وكثيرًا ما كان يشتدّ بكاؤهم أيّامَ الحروب والنّكبات.

وعلى الرّغم من كثرة رثائهم، فإنّه ظلّ يدور في فَلك المشارقة، مُحتفظًا بكثير من تقاليدهم فيه[5]، فلم يختلف عن رثائهم «من حيث التّفجّع على الميّت ووصف المصيبة وتعداد المناقب، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة، وكانوا يستهلّون مراثيهم بالحكم كالمشارقة، إلاّ أنّ حكمهم كانت ساذجة لا عمق فيها، ترتكز على الشّكوى من الأيّام، وكان رثاؤهم للممالك الزّائلة أكثر روعةً أحيانًا من رثاء شعراء المشرق»[6].

---

(1) قدامة: نقد الشّعر، ص100.

(2) ضيف: الرّثاء، ص12.

(3) النّدب: البكاء والنّواح على الميّت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة. انظر: ضيف: الرّثاء، ص12.

والتّأبين: ذكر فضائل الميّت تبيانًا لخسارة المجتمع فيه، وأصله الثّناء على الشّخص حيًا وميّتًا، ثمّ اقتصر استخدامه على الموتى فقط. انظر: ضيف: الرّثاء، ص54.

والعزاء: أصله الصّبر، ثمّ اقتصر استعماله في الصّبر على كارثة الموت، وأن يدرك من فقد عزيزًا، أنّ الموت سُنّة من سنن الكون، لا مفرّ منه ولا نجاة، وأن يرضى بما فاجأه به القدر. انظر: ضيف: الرّثاء، ص86.

(4) انظر: ضيف: عصر الدّول والإمارات، الأندلس، ص323.

(5) انظر: رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص50.

(6) الرّكابي: في الأدب الأندلسيّ، ص114.

واستمرّ الرّثاء في مملكة غرناطة غرضًا رئيسًا من أغراض الشّعر فيها[1]، فقد توالت الانهزامات والانكسارات والحروب، وسقط فيها كثير من المُجاهدين، وتهاوت في أيدي الإسبان مدنُهم وقواعد مُلكهم، فرثى شعراء غرناطة شهداءهم ومدنهم، و«وصل إلينا شعرهم الذي يصوّر مشاعرهم الرّقيقة، الصّادرة عن قلوب مكلومة، رُزئت بفاجعة الموت والانهيار»[2].

وأسهم ابن فُركون مع شعراء غرناطة في هذا الغرض، غير أنّه لم يهتمّ به اهتمامه بغيره من الأغراض، فلم ينل نصيبه الوافر من شعره؛ إذ لم يتجاوز أربع قصائد فقط، رثى في واحدة مولودًا للملك، وفي اثنتين أخا الملك عليًّا، وفي واحدة الملكَ نفسَه، ولم يرثِ أحدًا من أقاربه أو أصدقائه أو معاصريه، ولعلّ هذا يرجع أنّ في الدّيوان نقصًا[3].

وهذه القصائد على الرّغم من قلّتها قد تعطي صورة واضحة لرثاء ابن فُركون، الذي لا يختلف عن مدحه في اقتصاره على الملك وأسرته، وفي الصّفات التي وصفه بها.

استهلّ ابن فُركون مراثيه بمطالع تصوّر الخَطْب الذي حلّ، والمصيبة التي طرأت، فقد قال في رثاء مولود الملك مُبتدئًا بالقَسم[4]:

يَمِينًا لَقَدْ جازَ الأَسى مُنْتَهى الحَدِّ ... فيا لَيْتَ حُسْنَ الصَّبْرِ عَنْ مِثْلِها يُجْدي

نُعاتٌ بِهِ باتَتْ مِنَ الكُفْرِ غُضْرةً ... وَضَلَّتْ بِهِ الأَيّامُ عَنْ سَنَنِ الرُّشْدِ

وعلى الرّغم من محاولته إبراز أساه وجزعه بهذا المُصاب العظيم، فإنّ في مرثيته فتورًا في العاطفة، ولم تنبع من قلب جريح أدماه الألم[5]، ومع ذلك تابع يُنشد أمام الملك رثاءَ

---

(1) انظر: سرمني: خصائص الشّعر الأندلسيّ، ص50، الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص66، 173.

(2) الوائلي: الشّعر الأندلسيّ، ص87.

(3) أشار محقّق الدّيوان إلى وجود نقص في هذا الدّيوان، وقسم آخر مفقود. (انظر: ابن فركون: الدّيوان، المقدّمة، ص45).

(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص132.

(5) للسّلطان يوسف الثّالث قصيدة، رثى فيها هذا المولود، عبّر فيها عن عاطفة أبويّة صادقة. انظر: ديوان يوسف الثّالث: ص208-209، والحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص180، وسراب: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص66، 69.

المولود، مُبيّنًا أنّه لم يكن إلاّ نجمًا بزغ، وأنّ وجه الملك صبح منير، فليس من الغريب أن يغرب هذا النّجم في وضح النّهار[1]:

وَهَلْ كانَ إلاّ النَّجْمَ أَطْلَعَ نَيِّرًا ... وَوَجْهُكَ صُبْحٌ لاحَ في أُفُقِ المَجْدِ

فَلا تَعْجَبُوا لَمّا بَدا مِنْ غُرُوبِهِ ... أَيَلْمَعُ نَجْمٌ وَالضُّحى نُورُهُ يَهْدي؟

ومضى يعرض في هذه المرثية، ما شاهده في المولود من صفات النّجابة وعلائم النّباهة، التي بدت عليه، ولعلّ هذا ممّا اصطنعه ليُرضي الملك، لأنّ هذا المولود لم يطل عمره لتُعرف صفاته، ولهذا فإنّ «من أشدّ الرّثاء صعوبة على الشّاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة، لضيق الكلام عليه فيهما، وقلّة الصّفات»[2]، ومع ذلك فقد تابع ابن فركون تأبينه، فقال[3]:

وَكانَ كَما تَهْوى المَكارِمُ قَدْ بَدَتْ ... مَخايِلُ مِنْ قَيْسٍ عَلَيْهِ وَمِنْ سَعْدِ

وَكانَ كَما تَبْغي الخِلافَةُ قَدْ غَدَتْ ... عَلى وَجْهِهِ سِيما مِنَ الأَبِ وَالجَدِّ

سعى ابن فُركون في مرثيته إلى التّخفيف عن الملك، وفي الوقت نفسه وجدها سبيلاً إلى مدحه، وهو لا ينِي يؤكّد للملك أنّ هذا المولود لم يكن إلاّ سيفًا جُرّد فأُغمد، ورمحًا أُشرع فقُصِد النّحر، وغيثًا أقلع بعد أن سقى الدّيار، فليس أمامه إلاّ الصّبر على ما حلّ، ثمّ عبّر عن إيمانه بقضاء الله وقدره بقوله[4]:

جَرى قَدَرٌ فَاسْتَأْثَرَ اللهُ رَبُّهُ ... بِهِ وَتَخَلَّتْ مِنْ يَدَيْهِ مَهالَةُ المَهْدِ

وهكذا جرى ابن فُركون في رثائه في صوت هادئ حتّى وصل فيه إلى عزاء الملك، مُؤكّدًا حقيقةً أبديّةً هي أنّ كلّ ما في الوجود له نهاية، وأنّ الأجل يأتي في موعده[5]:

تَعَزَّ أَميرَ المُسْلِمينَ فَإِنَّنا ... نَرى كُلَّ شَيْءٍ في الوُجُودِ إِلى حَدِّ

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص132.

(2) ابن رشيق: العُمدة، 818/2.

(3) ابن فركون: الدّيوان، ص132.

(4) السّابق، ص132.

(5) السّابق، ص132.

تَأَسَّ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ فَإِنَّما ... هُوَ الفَخْرُ المَخْتُومُ جاءَ إِلى وَعْدِ

وفي نهاية مرثيته لم يجد السّبيل للحيد عن مدح الملك والدّعاء له تخفيفًا لآلامه وتهوينًا لمصيبته في فقده مولوده[1]:

بِأَفْعالِكَ الغُرِّ الكَرِيمَةِ يُقْتَدى ... فَجَمْعُ المَعالِي مِنْكَ في العالَمِ الفَرْدِ

فَلا زِلْتَ مِنْ رَيْبِ الحَوادِثِ آمِنًا ... تَنالُ المُنى فِيما تُعِيدُ وَما تُبْدِي

وما يُلاحظ في رثاء ابن فُركون خلوّه من العاطفة؛ لأنّه لم يصدر نتيجة معاناة الشّاعر، أو شعوره بالحزن والأسى لفقد الميّت، وهذا يُلاحظ أيضًا في المرثيّتين اللّتين رثى بهما أخا الملك الأميرَ عليًّا، وهو فارس غرناطة وأميرها، وسند ملكها وسيفه المسلول المُصلت على رقاب أعدائه، فقد وجد ابن فُركون أنّ أفضل ما يستهلّ به مرثيته هو تعزية الملك تخفيفًا له ممّا ألمّ به من جزع، فواساه في مصيبته مؤكّدًا له أنّ الموت مصير كلّ حيّ، وهي حقيقة يعرفها جيّدًا، ومُبيّنًا له أنّ بقاء الملك بينهم صبّرهم على ما حلّ بهم، فخاطبه قائلًا[2]:

عَزاءً فَإِنَّ الخَطْبَ قَدْ جَلَّ مَوْقِعا ... وَصَبْرًا وَإِنْ لَمْ يُبْقِ لِلصَّبْرِ مَوْضِعا

تَأَسَّ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ ... وُرُودُ سَبِيلٍ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقَّعا

تَعَزَّ إِمامَ الأَكْرَمِينَ فَإِنَّ فِي ... بَقائِكَ فِينا لِلْحَوادِثِ مَرْدَعا

وفي الحقيقة كان الأمير معزّ الدّولة عليّ قد أبلى في دفاعه عن غرناطة أحسن بلاء، وكانت له مواقع مشهودة في وقوفه في وجه الإسبان، فكان موته مصيبة في حياة الغرناطيّين، فعرض ابن فُركون لهذا الخَطب الجَلل، الذي دهاهم وحلّ بهم بموت عليّ، الذي علموا كماله وحُسن صفاته، فأبدى ابن فُركون حزنه على هذا الأمير، الذي كان نجم الهداية وغيث النّدى وبدر المكارم، والتفت إليه يخاطبه بحسرة وأسى، فقال[3]:

رَحَلْتَ فَما خَلَّفْتَ إِلّا مُرَوَّعا ... مَشُوقًا مُعَنًّى مُغْرَمَ القَلْبِ مُوجَعا

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص132.

(2) السّابق، ص358-359.

(3) السّابق، ص359.

نأيتَ فما ودَّعتَ إلاّ مُشيَّعًا   رهينَ أساةٍ مُستهامًا مُفجَّعا

فيا عثرةً جلَّتْ مَوالغَ خطبِها   ويا عثرةً ما إنْ يُقالُ لها: لَعا(1)

وعاد فأكّد علوّ شأن المرثيّ ورفعته وقدره، وعبّر عن حزنه وجزعه لفراقه، وبيّن أنّ عليًا تأهّب للقاء الموت دون خوف، وهو لم يكن من قبل يخشى الرّماح المُشرَعة، وعزّز ذلك بذكر ما كان له من مواقف بطوليّة في الذّود عن البلاد، والحفاظ عليها عزيزةً كريمةً، ونوّه إلى إيمانه بحسن الثّواب عند الله تعالى لهذا البطل الذي قضى بعد أن أدّى ما عليه من واجب الجهاد(2):

سيَلقى لدى الرّحمن فضلَ جهادِه   شفيعًا كما يَرضى النّبيّ مُشفَّعا

وعاد من جديد إلى الإشادة بذكره، وإبراز صفاته والإشارة إلى أفعاله حتّى أعلن تسليمه بقضاء الله وقدره مُحتسبًا الفقيدَ عند الله تعالى(3):

فإنّا إلى الله العظيمِ وإنّنا   لِرحمتِه نرجو نوالاً ومَرجِعا

وفي هذا دلالة إيمانيّة واضحة، وإشارة إلى قول الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾(4).

وبعد أنْ استنفد الشّاعر القولَ في رثاء الأمير التفت إلى الملك، ووجد في بقائه وسلامته العوضَ عن فقدان الأمير، وكأنّ الأيّام تعتذر عن ذنبها الذي اقترفته(5):

لأذنبتِ الأيّامُ فيما أتتْ به   ولكنّها أبقتْ إلى العُذرِ مَوضِعا

إذا هي أبقتْ ناصرَ الدّينِ يوسفًا   فقد صَنعتْ للدّينِ رُكنًا مُمنَّعا

---

(1) يُقال للعاثر: «لعًا لك» إذا دعوا له، و«لا لعًا له» إذا دعوا عليه، وشمتوا به؛ أي لا أقامه الله من سقطته. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ل ع و)، الميداني، أحمد بن محمّد (518): مجمع الأمثال، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الفكر، ط3، 1393/1972، جزآن، 2/225-226.

(2) ابن فركون: الدّيوان، ص360.

(3) السابق، ص360.

(4) البقرة، 156.

(5) ابن فركون: الدّيوان، ص360.

ومع أنّ هذا المعنى طريف وجديد فإنّ فيه ما يخالف العقيدة، فليس بقاء إنسان وطول عمره تعويضًا عن موت إنسان آخر، ومع ذلك فقد جاء بهذا المعنى، ليصل إلى الملك ويجد السّبيل إلى مدحه، والدّعاء له بطول العمر في آخر المرثية[1]:

مــــا أنـــــتَ للهِ الـبـقـــاءُ مُـخَـلَّـدُهُ وحاشـا وَكَـلا أنْ يَـخيـبَ مَـنْ دَعـا

ونظم ابن فُركون مرثيته الثّانية في الأمير نزولاً عند رغبة الملك في «نظم أبيات لتُكتب على تاريخ لحْد هذا الأمير، ثمّ ظهر له أن يكتب غيرها على لسانه»[2].

وكانت هذه عادة شاعت بين شعراء غرناطة، شجّعها ملوك بني الأحمر، فقد «كان الشّعراء يكتبون أبياتًا في رثاء ساكن الضّريح، يعدّدون فيها فضائله، ويشيدون بجهاده في سبيل حماية الدّين ورفع لوائه، وغالبًا ما كانت هذه الأبياتُ قريبةً من النّظم»[3].

ولا تختلف المرثية الثّانية عن الأولى، ولم تخرج في مضموناتها عن مضمونات سابقتها في الإشادة بذكر الفقيد، وإبراز محامده وفضائله، وفي تصوير المصيبة وهولها، ووصف حالة الحزن العامّة، والتّسليم بقضاء الله تعالى، والدّعاء للملك في ختامها.

وعلى الرّغم من ذلك كلّه لم يفلح الشّاعر في بعث الحياة في مراثيه، التي بدت فاترة العاطفة، باردة الإحساس[4]، وهذا ما اتّصفت به مرثيته الأخيرة التي رثى بها الملك نفسَه، وكان من المتوقّع أن يَسمع منها نشيجَه، وأن تُبلّل بدموعه حزنًا على صديقه ومليكه الذي أظلّه بوارف ظلّه، وأسبغ عليه من نواله الغَمْر ما دعاه أن يردّد في مدائحه أنّه «غرس نعمته».

اقتصر ابن فُركون في رثاء الملك على قصيدة واحدة، قالها بين يدي الملك الجديد،

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص360.

(2) السّابق، ص361.

(3) سرميني: خصائص الشّعر الأندلسي، ص56. وانظر: ابن الجيّاب، ص250، 260-261، والواثلي: الشّعر الأندلسي، ص88-89.

(4) للملك يوسف الثّالث مراثٍ بديعة، رثى في عدد منها أخاه عليًا، الذي أثّر فيه موته أبلغ تأثير، فرثاه بقصائد تفيض حزنًا ولوعة، وعبّر فيها بصدق عن أساه لفقده. انظر: بازجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص69-71.

جمع فيها الرّثاء والتّهنئة، وممن صحب الرّثاء أيضًا، جَمْعٌ تعزية وتهنئة في موضع[1]، وهذا النّوع من القصائد معروف عند شعراء غرناطة[2].

عبّر ابن فُركون في قصيدته هذه عن جزعه لوفاة الملك يوسف الثّالث، وهنّأ ابنه مُحمّدًا ملكَ غرناطة الجديد، فاستهلّها بمطلع جمع فيه تعجّبًا من خطْبٍ جَلَلٍ حلَّ، واستبشارًا نبأ عظيم طرأ، فقال[3]:

أَخَــطْــبٌ هَــوَى بِـالـنَّـيِّـرَاتِ مِـنَ العُلاَ　　　وَبُــشْــرَى بِـهـا وَجْـهُ الـزَّمَـانِ تَـهَـلَّـلا

وأشار إلى كريم أصل وليّ العهد، وجدارته بقيامه بأمور الحكم على الرّغم من صغر سنّه، ثمّ جرى مجرى المبالغة في استعظام الكارثة، التي سقطت على النّاس كالصّاعقة، فانقطع الغيث لوفاة الملك، ونضبت الغدران وصوّح المرعى، وما أن تولّى الأمرَ ابنُه حتّى عادت الحياة للنّاس والأرض من جديد.

وقد برع الشّاعر في الجمع بين الرّثاء والمدح في قصيدته، وبدت براعته في القدرة على تغيير الجوّ العامّ من الحزن المُمضّ والكآبة إلى صورة أخرى تفيض بالفرحة والبِشْر والتّفاؤل[4]:

لَـقَـدْ كَـانَ صُـبْـحُ الـيَـوْمِ أَغْـبَـرَ دَاجِـيًـا　　　فَـعَـادَ بِـمَـنْ أَبْـقَـى أَغَـرَّ مُـحَـجَّـلا

وفتح باب الأمل على مصراعيه، مؤكّدًا أنّ الخير باقٍ لا يزول من هذه الحياة[5]:

---

(1) ابن رشيق: العمدة، 2/819–820.

(2) هو في الحقيقة ظاهرة قديمة، فقد كان الشّاعر يقوم بين يدي الخليفة، يعزّيه في أبيه ويهنّئه بمكوثه ودولته، وما انتهى إليه من خلافة أو إمارة، وأوّل من فتح باب هذا الموضوع، وأظهر فيه براعة عبد الله بن همام السّلوليّ (100)، وتابعه أبو الشّيص (196)، وأبو تمّام (231)، وابن زيدون (463)، وأبو البقاء الرّنديّ (684)، وابن الجيّاب (749)، وغيرهم، وقفوا كلّهم مُعزّين ومهنّئين، ومُلمّين بفضائل السّابق واللاّحق، ومؤكّدين أنّ ميزان الدّولة لن يميل إذ تولّته يد أمينة عادلة. انظر: ضيف: الرّثاء، ص65–66، عصر الدّول والإمارات، الأندلس، ص327–328، والقراط: ابن الجيّاب، 258–260.

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص382.

(4) السّابق، ص382.

(5) السّابق، ص382.

فـإنْ غـابَ نـورُ البـدْرِ أوْ مَـنـعَ الحَيا   نـداهُ، فهَـذا البَـحْرُ والفَـجْرُ يُجْتلى

وإنْ غَـرَبَ النَّجْمُ الـذي كـانَ يُهْتَدى   بـه، فـسُحَيـا الصُّـبْحِ قَـدْ لاحَ مُقْبِلا

ومع قدرته على تغيير الجوّ العامّ للقصيدة، ظهرت قدرته على التّحوّل بالولاء من الملك إلى وليّ عهده، غير أنّه ما لبث أن عاد إلى الإشادة بذكر الملك الرّاحل فأثنى عليه، وذكر ما كان له من محامد ومناقب، وأشار إلى أفعاله وصفاته التي مُدح بها في حياته، وأعلن انفعاله مُستفهمًا مُنكرًا، وكأنّ المصيبة أفقدته صوابه[1]:

أَحَقًّا ثوى تَحْتَ الثَّرى مَلِكُ الوَرى   وأَوْدَتْهُ المِقْدارُ للحَتْفِ مَنْهلا؟

وألمّ في رثاء الملك بذكر ما عرفه فيه من علم وحلم، وتقى ودين، وشجاعة وإقدام، والتفت إليه يناديه، وكأنّه معه قريب منه[2]:

أيوسُفُ هَلْ مِنْ عَطْفَةٍ تُرْتَجى لأنْ   يَنالَ بِكَ الإسْلامُ ما كانَ أمَّلا؟

وتابع حديثه عنه بصُوَر يسترجع فيها شريط الذّكريات[3]:

كأنّي بِهِ قَدْ أرْسَلَ الخَيْلَ في الوَغى   فأَوْرَدَها بَحْرَ النَّجيعِ وأَنْهَلا

كان ابن فُركون في رثائه هادئ النّفس رزينًا، عدّد مناقب الملك ونعته بنعوت لطيفة، أنّه لم يعبّر في هذه المرثية ومراثيه السّابقة عمّا تكنّه نفسه إزاء المرثيّ، ولم تكشف مراثيه مشاعره الحقيقيّة في موقف عظيم هو موقف الموت.

ولم يكن ابن فُركون شاعر النّاس فلم يرث من قُتل أو استُشهد في المعارك ولم يشر إليهم، ولم يرث مدن الأندلس التي كانت تسقط بين أيدي الإسبان مع أنّ من معاصريه مَنْ رثوها، ولم تكشف الأبيات دخائل نفسه، ولم تعبّر بصدق عن ذاته.

وخلاصةُ القول أنّ الرّثاء واحد من أغراض الشّعر القديمة، واستمرّ في مملكة غرناطة

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص382.
(2) السابق، ص383.
(3) السابق، ص383.

غرضًا رئيسًا من أغراض الشّعر فيها، وأسهم فيه ابن فركون غير أنّه لم يهتمّ به اهتمامه بغيره من الأغراض، فلم يكثر عنده.

8 - أغراض أخرى

وفي شعر ابن فُركون أغراض أخرى ثانويّة، بالقياس إلى أغراضه السّابقة لم يسهم ابن فُركون في بعضها إلاّ بقصيدة واحدة كالمديح النّبويّ، ولا يعدو إسهامه في بعضها الآخر كالحكمة والفخر بعض الفكر والمعاني المتناثرة هنا وهناك، فهي لا تؤلّف فنًّا قائمًا بذاته له سماته الخاصّة، فآثرت أن أجمعها وأتحدّث عنها، في ما بقي له من أغراض:

أ- المديح النّبويّ:

تنوّعت حياة الأندلسيّين الاجتماعيّة، واختلفت فيها المذاهب والاتّجاهات الحياتيّة، وكما كان فيها اللّهو والمجون اللّذان بلغا حدّ التّطرّف أحيانًا كان فيها كذلك الزّهد والتّصوّف[1].

وقد ازدهر الزّهد، وذاع التّصوّف في المجتمع الأندلسيّ، «وتبع ذيوع التّصوّف في الأندلس، ذيوع المديح النّبويّ، لما بين التّصوّف وهذا الفنّ من صلة قويّة، فعرف الشّعر المُحدث المديح النّبويّ، كما عرفه الشّعر المشرقيّ؛ بل يُخيّل إلى المرء أنّه لم يقعد شاعر عن الخوض في هذا الموضوع ولا سيّما في عهود الأندلس المتأخّرة»[2].

«وغدا المديح النّبويّ في القرن الثّامن الهجريّ غرضًا لا يكاد يخلو منه شعر شاعر؛ لأنّه صار جزءًا من روح العصر، التي غلب عليها الطّابع الصّوفيّ، فانتظم شعراء بني الأحمر في المديح النّبويّ، والتّبرّك بأثره، والشّوق إلى قبره، فنالت شخصيّة الرّسول ﷺ قسطًا وافرًا من شعرهم»[3].

---

(1) انظر: الشّكعة: الأدب الأندلسيّ، ص56.
(2) رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص73.
(3) الوافي: الشعر الأندلسي، ص167.

وكانت المدائح النّبويّة تُلقى في غرناطة احتفالاً بالمولد النّبويّ الشّريف في كلّ عام، وصار هذا تقليدًا مُتّبعًا فيها[1]. وسُمّيت هذه القصائد مَوْلَديّات، ولابن خاتمة الأنصاريّ (770)، وابن الخطيب (776)، وابن زمرك (796) طائفةٌ من هذه المَوْلديّات[2].

وقد نظم ابن فُركون في الجَناب النّبويّ الكريم قصيدة واحدة طويلة عندما أطلّ موسم الحجّ عام (818)، وسمّاها «الحديقة النّاضرة والحدقة النّاظرة»[3]، وفي هذا ما يدلّ على عنايته بها وقيمتها لديه، وهي من أطول قصائد الدّيوان، فقد بلغت عدّةُ أبياتها مئة وستة عشر بيتًا[4].

ظهرت شخصيّة ابن فُركون من خلال شعره وأخباره القليلة المتناثرة بين صفحات الدّيوان على قدر من الهدوء والاتّزان، وجانب من التّقى والإيمان، ولم يظهر فيها تهتّكٌ أو مجون، وما بدا منهما في أبيات قليلة له، إنّما كان على سبيل التّقليد، أو التّسلية والتّرويح عن النّفس، شأنه في هذا شأن كثير من شعراء عصره[5]، وقد أشار ابن فُركون نفسه إلى أنّ مثل هذا الشّعر قُصدَ منه المُداعبة والانبساط[6].

إنّ ما نظمه ابن فُركون في أغراض المدح والغزل والهجاء، لم يتخطّ فيه حدود الدّين والعفّة والآداب العامّة، بل إنّ ما ظهر فيها واضحًا، من مفردات ومعانٍ استمدّها من مصادر دينيّة إسلاميّة، يؤكّد تديّنه وتثقّفه بثقافة دينيّة، لذا كان من الطّبيعيّ أن يكون المديح النّبويّ أحد أغراض شعر ابن فُركون، غير أنّ إسهامه فيه لم يتجاوز حدود قصيدة واحدة.

عبّر ابن فركون في قصيدته عن نزعة صوفيّة ذاتيّة مثلما عبّرت عنها روح العصر ولاسيّما من خلال حنين الأندلسيّين إلى مرابع النّبوّة[7]، فقد كان بُعدُ بلادهم عن الأماكن المُقدّسة،

---

(1) انظر: رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص75، والحمصي: ابن زمرك، ص132–133.

(2) انظر: ضيف: عصر الدّول والإمارات، الأندلس، ص372، والحمصي: ابن زمرك، ص133.

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص322.

(4) انظر ملحق الجداول: جدول نظم ابن فُركون.

(5) انظر: بارجي: الغزل في الشعر الأندلسيّ، ص246–247.

(6) انظر: ابن فركون: الدّيوان، ص241، 353.

(7) انظر: قصبجي، عصام: لسان الدّين بن الخطيب، حياته وفكره وشعره، جامعة حلب، 1994، ص273.

وانشغالهم بحرب أعدائهم سببين من أسباب منعهم من «تحقيق أمانيهم الغالية في أداء فريضة الحجّ، وزيارة القبر النّبويّ الطّاهر، ممّا جعلهم ينطوون على أسى بالغ وحسرة دفينة، ويزجون رسائل الشّوق والحنين إلى الجوار الشّريف»[1].

ولقد دفع ابن فركون وجدٌ صوفيٌّ حين هاجه ذكرُ الرّسول ﷺ وسيرته ومرابعه في المدينة ومكة في موسم الحجّ؛ إلى أن ينظم هذه القصيدة، فجاءت تصوّر في مقدّمتها اللّيل بصور متلاحقة موّارة بالحركة، فبدت الشُّهب تجري كما يجري القطا لمورد شربه، وصارت النّجوم أزهارًا متفتّحة يمدّ الفجرُ يده ليقطفها، وفي قلب هذا اللّيل تتألّق وجوه الحجّاج البهيّة الغرّاء أنجمًا تتلألأ في الأفق[2]:

لئنْ غارَ نجمُ الأفقِ أوْ غابَ نورُهُ فقدْ طلعتْ للأوجهِ الغُرِّ أنجُمُ

وعلى عادة الشّعراء القدماء راح ابن فركون يناجي صاحبَيْن له، ويبثّهما شكواه وأنينه، ويسألهما عمّن ينجده ممّا يجد، ويدعو الله تعالى أن يرعى قلبه المتردّد بين البقاء والرّحيل.

فإذا فرغ من وصف اللّيل ونجوى صاحبيه تحدّث عن ركب الحجّاج الذين ساروا ميمّمين شطر الأماكن المقدّسة ليؤدّوا فريضة الحجّ[3]:

وَرَكْبٍ تُفدّى بالنُّفوسِ رِحالُهُمْ حثيثٌ سُراهُمْ لا الرَّحيقُ المُفدَّمُ[4]

وراحت عيناه ترافقان الرّكب المرتحل، وعاد إلى نفسه المتردّدة، وجرّد منها شخصًا آخر يعاتبه، ويلومه على تخلّفه عن أداء هذا الفرض، وأعلن أنّ الذي أبقاه أوزاره التي قيّدته، فبرز إحساسه بالذّنب[5]:

تُقيّدُهُ أوزارُهُ ولو اغتدى لسارَ كما يسري الجوادُ المُطهَّمُ

وتمنعُهُ أغلالُهُ ولو أنّه مضى مثلما يمضي الحسامُ المُصمِّمُ

(1) رجب باشا: الشّعر الأندلسي، ص74.
(2) ابن فركون: الدّيوان، ص322.
(3) السابق، ص323.
(4) الرّحيق المفدّم: الخمر المصفّاة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ف د م)، ومادّة (ر ح ق).
(5) ابن فركون: الدّيوان، ص323.

وسار ركب الحجّاج بعيدًا عنه فناداهم، وقد فرحت نفسه واستبشرت بفوزهم بالزّيارة، والغبطة تملأ قلبه وروحه، وتمنّى أنّه لم يتخلّف عن الرّكب، وعبّر عن هذا بكلمات يشيع فيها الصّدق[1]:

فيا ليتني ما كنتُ ممّن تخلّفوا وعاجوا عن القصد الحميد وأحجموا

رحل الحجّاج نحو تلك الأراضي الطّيبة، وعرفوا فضل عرفات، وضمّهم البيت العتيق وزمزم، فسعد ابن فركون بوصولهم إلى البيت الحرام[2]:

فبشرى لمن قد حلّ فيه مؤمّلاً مواهبَ رُحماه وهَيهاتَ يُحرَمُ

وشقّ جيوبَ الصّبرِ شوقًا إلى الذي له الشّقّ بدرُ الأفقِ وهو مُتمّمُ[3]

وظلّ صدى صوت الشّاعر يتردّد في الآفاق خلف الرّكب الذي رحل، ومن المكان الذي ظلّ ابن فركون فيه نادى النّبيّ ﷺ، وكأنّه قريب منه[4]:

ألا يا رسُولَ الله دعوةَ نازحٍ له في النّوى والقُربِ فكرٌ مُقسّمُ

وتجلّت في هذه القصيدة عاطفة صادقة مُشبعة بالرّوح الصّوفيّة الهائمة بحبّ النّبيّ ﷺ، وبرز فيها تبجيل وتعظيم لمقامه الكريم، فجاءت نبويّة خالصة، ليس لها غرض آخر، فلم يقرن الشّاعر موضوعها بموضوع آخر على غير عادة شعراء غرناطة[5].

وتعاظمَ وَلَهُ ابن فركون بالجوار الشّريف حتّى غدا هاجسًا دعاه إلى الاعتراف للنّبيّ الكريم بالذّنب، والتّقصير عن أداء هذا الواجب، وسأل النّبيّ ﷺ التّضرّع ورجاه أن يكون شفيعه على الرّغم ممّا بدر منه[6]:

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص323.

(2) السابق، ص323.

(3) جاء في الدّيوان: «وشقّ جيوب الصّبر...»، والصّواب ما أثبته. وفي هذا البيت إشارة إلى معجزة انشقاق القمر، التي نوّه إليها القرآن الكريم في سورة القمر: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾. القمر، 1.

(4) ابن فركون: الديوان، ص324.

(5) انظر: الوافي: الشعر الأندلسي، ص168.

(6) ابن فركون: الديوان، ص324.

أنـا الـمُذْنِبُ الجاني وأنْـتَ شَفيعُهُ وَمِـثْـلُـكَ مَـنْ يُـرْجـى وَمِـثْـلـيَ يُـرْحَـمُ

وأعلن أنّ ثناءه على النّبيّ يقصر عن ثناء الله تعالى في القرآن الكريم عليه، واعتذر عن تقصيره في أداء الواجب الكامل نحو محبّة رسول الله ﷺ(1):

بماذا عَسى أُثْني على المُصْطَفى الذي أتـى فيـهِ نَصُّ الـذِّكْرِ وَالـذِّكْرُ مُحْكَمُ؟

ثمّ رفع صوته بالنّداء مُبتهلاً إلى الله تعالى بين الخوف والرّجاء(2):

أَيـا رَبِّ إنَّ العَبْـدَ بـالبـابِ واقِـفٌ يَخـافُ وَيَـرْجـو فَهْوَ يَدْنـو وَيُحْجِمُ

وراح يعبّر - وهو بين يدي الله تعالى - عن شعوره بالنّدم على ما قدّمت يداه من ذنوب، وأعلن اعترافه بها مؤمّلاً عفو الله تعالى عنها.

وبثّ حكمه المطبوعة بطابع الزّهد في الدّنيا، وصوّر الشّيب، وانتقد أبناء الزّمان مؤكّدًا أنّه بعد عمره الذي بلغه صار يعرف الدّنيا ويفهم البشر، ثمّ ما لبث أن عاد إلى موضوع الزّيارة، وعبّر عن جزعه وخوفه من أن يُحرَم منها، فلا يفوز بالرّحمة(3):

وَلَـكِـنْ إذا لَـمْ أحْـظَ يَـوْمًـا بِـزَوْرَةٍ يَـطـيـبُ بِـهـا فـي طَـيْـبَـةٍ لـيَ مَـخْـيَـمُ

فَـمـا شُـهْـبُ الـعَـلْـيـاءِ حَـوْلـي مُـنـيـرةٌ تَـروقُ وَلا بَـحْـرُ الـمَـكـارِمِ مُـفْـعَـمُ

وعاد فأعرب مرّة أخرى عن حبّه للنّبيّ ﷺ، فقال(4):

وَكَـيْـفَ وَحُـبّـي لِلـنَّـبِـيِّ مُـخَـلَّـدٌ لَـهُ في صَمـيـمِ القَلْبِ خَـطٌّ مُرَسَّمُ؟

وما يميّز هذه القصيدة ميل الشّاعر إلى البساطة والسّهولة ورقّة العبارة، وبرزت فيها عاطفته المشبوبة الصّادقة، وعبّر عن حبّه العظيم للرّسول الكريم، وأكّد هذا الحبّ غير مرّة.

وأنهى ابن فُركون قصيدته بما يقتضيه المقام النّبويّ الشّريف من الصّلاة والسّلام على

(1) ابن فركون: الديوان، ص324.
(2) السابق، ص325.
(3) السابق، ص326.
(4) السابق، ص327.

النّبيّ الكريم[1]:

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ مَا يَمَّمَ الوَرَى حِمَاكَ وَمَا صَلَّوْا عَلَيْكَ وَسَلَّمُوا

وقد عُرف بين المُسلمين أنّ النّبيّ يردّ على المُسلم السّلام، وأكّد هذا حديث النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (ما من أحدٍ يُسلّم عليّ إلاّ ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السّلام)[2].

وهكذا من خلال هذه القصيدة تتّضح معاني المدح النّبويّ عند ابن فُركون، كما عند معاصريه[3]، وتتمثّل في خطاب النّبيّ والتّوسّل به وطلب شفاعته والصّلاة والسّلام عليه في نهاية المدحة، والتّركيز فيها على النّصيحة اللّبيبة والدّعوة إلى الزّهد في الدّنيا وهجرها وترك مباهجها، وبروز العواطف الصّادقة من حبّ وتعظيم وتبجيل لمقام النّبيّ ﷺ.

وخلاصةُ القول أنّ المديح النّبويّ من الأغراض المهمّة في غرناطة، وأسهم فيه عدد وافر من شعرائها، وكان لابن فُركون إسهامه في هذا الغرض، غير أنّه لم يتجاوز قصيدة واحدة، تمثّلت فيها معاني الهداية والصّدق، والتّعبير عن الحبّ والتّوجّه بالخطاب إلى الجناب النّبويّ، والنّهاية بالصّلاة والسّلام على النّبيّ.

ب- الحكمة:

شعر الحكمة: هو الشّعر الذي تضمّن خلاصة ما لدى الشّعراء من تجارب الحياة، وعُرف من الشّعراء بحكمه أبو تمّام (231)، والمتنبّي (354)، والمعرّيّ (449).

ولم يكن موضوع الحكمة والوصايا وملاحظات الحياة الخاصّة من بين موضوعات الأدب الرّئيسة، ولم تجرِ العادة على ذكره بينها؛ لأنّ كثيرًا ممّا يُقال في هذا الباب يجيء

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص327.

(2) ابن حنبل، أحمد (241): مُسند أحمد، شرحه حمزة أحمد الزين، دار الحديث- القاهرة، ط1، 1416/1995، 20ج، 9/575.

(3) انظر: النقراط: ابن الجياب، ص181-183، والحمصي: ابن زمرك، ص135-139، والهيب، أحمد فوزي: المديح النبوي الأندلسي بين لسان الدين وابن جابر، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1425/2005، ص194 وما بعدها.

جافًا تعليميًا، بعيدًا عن سمات الشعر الذي فيه حيويّة الأدب وجماليّة الفنّ[1].

ومن الباحثين مَنْ يرى أنّ أدباء الأندلس وشعراءه لم ينصرفوا إلى التأمّل بعمق في الحياة[2]، غير أنّ هذا الرّأي ـ بما فيه من تعميم ـ لا يستند إلى دراسة منهجيّة منظّمة وشاملة، ولا ينفي وجود هذا الغرض كليًّا، «ففي شعراء الأندلس وأدبائه من ارتاد هذا الجانب، فجاء بشعر رقيق لطيف، وأحسن الشّاعر في الأفكار التي عرضها، وفي الأسلوب الذي انتهجه، وجمع بين الجانب الوعظيّ التّعليميّ، وبين الأداء الشّعريّ الجيّد، الذي يحتفظ بخصوصيّة الشّعر وشخصيّة الشّاعر، أو بين الجانب الحكميّ وقدرة الشّعر على الأداء الحسن»[3].

ولم يخلُ شعر ابن فُركون من شيء من الحكمة، على أنّه لم يطل باعه فيه، وورد في ثلاثة مواطن: في الرّثاء والمدح والمديح النّبويّ.

فقد ارتجل أبياتًا، يرثي بها مولودًا للملك ويعزّيه فيه، ويخفّف عنه ما حلّ به، مؤكّدًا له أنّ الموت مصير كلّ حيّ، وهو نهاية الوجود، وأنّ القدر أمر محتوم، فقال[4]:

تَعَزَّ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ فَإِنَّنَا ... نَرى كُلَّ شَيْءٍ في الوُجُودِ إِلى حَدْ

تَأَسَّ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ فَإِنَّمَا ... هُوَ القَدَرُ المَحْتُومُ جَاءَ إِلى وَعْدِ

وفي هذا ما يعبّر عن جانب إيمانيّ واضح، نابع من فكر دينيّ إسلاميّ، يؤكّد أن لكلّ مخلوق أجلاً، وهذا ما بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[5].

أكّد ابن فُركون أنّ هذه الحياة لا بقاء لمخلوق فيها ولا دوام له، وعاد فردّد المعنى ذاته في رثاء الأمير أبي الحسن عليّ أخي الملك، فقال[6]:

(1) انظر: الدّاية: في الأدب الأندلسيّ، دار الفكر-دمشق، ط1، 2000م، ص106.
(2) الرّكابي: في الأدب الأندلسيّ، ص116.
(3) الدّاية: في الأدب الأندلسيّ، ص106.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص133.
(5) الأعراف، 34.
(6) ابن فُركون: الدّيوان، ص358.

تـأمّـل أميـرَ المسلمين فـإنّـه ... وُرودُ سبيلٍ لم يـزلْ متوقّعا

على أن حكمه وآراءه بسيطة، لا عمق فيها ولا تفكّر، وتجري مجرى المسلّمات واليقينيّات، فلا يمكن أن يُقاس إلى شعراء الحكمة ولا أن يجاريهم. وممّا يجري مجرى الحكمة في شعره أبيات قالها في مقدّمة غزليّة[1]:

ومالي زماني منك بالبُعد عامداً ... وأيُّ حبيبٍ لنفسٍ يشفي عميدَهُ؟

ومِنْ عادة الأيّام أنْ تمنعَ المنى ... وأنْ تمنحَ الشّيءَ الذي لا نُريدُهُ

وهذا المعنى يُذكّر بقول المتنبّي (354)[2]:

تجري الرّياحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ ... ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يدركُهُ

وجاءت في مدحه أقوال جرت مجرى الحكمة، صوّر فيها مُثُل البطولة، كما في قوله يهنّئ الملك يوسف بالنّصر[3]:

ينالُ المعالي بالعوالي سوى الذي ... علا صهوةَ الأخطار للعزّ وامتطى

ومَنْ خطبَ العلياءَ بالسُّمرِ والقَنا ... ويمّمَ أقصاها أينبغي توسُّطا؟

وممّا يجري مجرى الحكمة ما جاء ليعبّر عن تجارب الشّاعر في الحياة، وقد كساه ثوبَ الوعظ والإرشاد، ومن هذا ما راح يبثّه ابن فُركون من حكم، تمثّل خلاصة تجاربه في هذه الحياة، وذلك في قصيدته التي نظمها في الجناب النّبويّ الكريم، «وقد أطلّ موسم عام ثمانية عشر وثمانمئة»[4]، وممّا قاله فيها[5]:

فيا أيّها المغرورُ إنّكَ قادمٌ ... على عملٍ فلتنتبهْ أو تندّمِ

أيا عجباً للمرءِ يفرحُ بالذي ... ألمّ من الذّنبِ ولا يتألّمِ

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص141.

(2) المتنبّي: الدّيوان، 236/4.

(3) ابن فركون: الديوان، ص187.

(4) السابق، ص322.

(5) السّابق، ص325.

إذا أنتَ لم تُوثِرْ هَواكَ تَجلُّدًا   فصَبْرُكَ أقوى والطّريقةُ أقومُ

تحدّث ابن فركون بلسان الواعظ المُرشد، الذي خبر الدّنيا وكشف حقيقتها، فحذّر من خداعها[1]:

أترْكنُ للدُّنيا وأنْتَ بفعْلها   خبيرٌ؟ لبئسَ المرْءُ مَنْ ليْسَ يحْزمُ

أتغْترُّ أنْ تُغْريكَ زهْرةُ حُسْنها   متى لمْ يزَلْ يُوسًا شَهْدُها وهْوَ علْقمُ؟

وتوّه إلى تقلّبها وتحوّلها من حال إلى حال، فحريّ بالإنسان أن يحتاط منها، وأن يحذرها[2]:

تُفيدُكَ علْمًا بالتّجاربِ كلّما   تُحطُّ وتُعْلي وَهْيَ بالحالِ تُعْلِمُ

تُولّيكَ إنْ والتْهُما خطّةَ الأسى   فتخْشى متى تُضْحي ولا تتَعلّمُ؟

وبهذا الصّوت الهادئ بثّ ابن فركون في قصائده ما يمكن أن يُدعى حكمًا، وآراء في الحياة والنّاس.

وخلاصةُ القول أنّ شعر الحكمة لم يكن لدى ابن فركون غرضًا واضح المعالم متكامل السّمات، فلم يسهم في شعر الحكمة إلاّ بأبيات متفرّقة، فيها نظرات حكميّة، عبّر فيها عن رأيه وصدر فيها عن مرجعيّة دينيّة إيمانيّة.

ج- الفَخْر:

الفخر من أغراض الشّعر العربيّ القديمة، وهو صدى تطلّع النّفس إلى ذاتها، وتقليب النّظر في مرآتها، تعمل فيه العاطفة العميقة، والانفعال الشّديد، فتبرز فيه الحقائق مُجلّية بجلباب العاطفة والخيال. وعرّف ابن رشيق (456) هذا الغرض بقوله: «الافتخار هو المدح بعينه، إلاّ أنّ الشّاعر يخصّ به نفسه وقومه، فكلّ ما حَسُنَ في المدح حَسُنَ في

(1) ابن فركون: الدّيوان، ص325.
(2) السّابق، ص325.

الافتخار، وكلّ ما قَبُحَ فيه قَبُحَ في الافتخار»[1].

وفي إطار القصيدة الواحدة بات نصيب هذا الغرض قليلاً جدًا بالقياس إلى الأغراض الأخرى، وبدت معانيه ضمن عدد محدود من الأبيات، تظهر في القصيدة بصورة لمحة عابرة، لا تغيّر من مسار الاتّجاه العامّ للأبيات كلّها.

وقد خَفَتَ صوت الفخر في عصر مملكة غرناطة، ولم يعد له ذلك الدّويّ وتلك الجلجلة، وكأنّ شيئًا ممّا كان يفخر به الشّعراء، لم يعد موجودًا لدى شعراء غرناطة، ولعلّ هذا عائد لانشغال الشّعراء بمدح ملوكهم، ممّا صرفهم عن التّغنّي بمآثرهم وصفاتهم، أو لأنّ المجتمع الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ، كان «خاليًا من الصّراعات الطّائفيّة، والحزازات العرقيّة، مُنشغلاً بحروب الاسترداد، التي كان يشنّها العدوّ الكافر من حين لآخر، فلم تكن تسمح مثل هذه الظّروف بأن ينمو في بيئتها، ويزدهر شعر الفخر والتّباهي بالفضائل»[2].

ومع ذلك فقد ترك شعراء غرناطة فخرًا انحصر في موضوعات رئيسة ثلاثة، هي: الفخر بالفضائل، والفخر بالشّاعريّة، والفخر بالأصل[3].

وعُرف يوسف الثّالث بفخره بالفضائل والأصل[4]، وانفرد من بين شعراء غرناطة بنظم قصائد مُستقلّة في هذا الغرض، وأكثر من القول فيه، وانبثّت أبياته في مختلف أغراضه الشّعريّة، كالغزل والرّثاء والشّكوى وغيرها، وبرزت نزعة المُلك والسّيادة في ديوانه بوضوح[5].

أمّا الفخر بالشّاعريّة فـ«يكاد ذكرها يكون عامًّا عند جميع الشّعراء»[6]، وعُرف عند

(1) ابن رشيق: العمدة، 2/798–799.
(2) الحسينيّ: الشّعر الأندلسيّ، ص275.
(3) انظر: السّابق، ص275–276.
(4) انظر: السّابق، ص276–280، 282–284.
(5) انظر: ضيف: عصر الدّول والإمارات، الأندلس، ص216، 221–222، وبازجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص106 وما بعدها، والحسينيّ: الشّعر الأندلسيّ، ص275، 276.
(6) الحسينيّ: الشّعر الأندلسيّ، ص281.

عدد منهم[1]، وكان من بينهم ابن فُركون الذي فَخَرَ بشاعريّته، ولم يكن له فخر بالفضائل أو الأصل، مع أنّه قرشيّ النّسب، ومع ما تمتّع به من ذكاء حادّ ونبوغ مبكر ورثهما عن أبيه، وما له من قدرة على نظم الشّعر وهو صغير السّنّ، وما عُرف عنه من جمال خطّ وجودة إنشاء[2]؛ فقد اكتفى من الفخر بنفسه، باعترافه بعبوديّته للملك في مدائحه التي صاغها له، فراح يردّد[3]:

حَسْبي مِنَ العَلْياءِ أنّي عَبْدُهُ ... وكَفى بِهِ شَرَفًا بِذلِكَ أكْتَفي

وبِأنّني في القَوْمِ أوّلُ ناظِمٍ ... فِيهِ المَديحَ تَرَفُّعي وتَشَرُّفي

لم يستطع ابن فُركون في فخره الخروج على تبعيّته للملك، وظلّ مدحُه الملكَ مصدرَ تشريفه، ومصدر إرغام لأعدائه، وكأنّه لم يجد ما يمكن أن يكون مصدر فخر له، وفي هذا قوله[4]:

بِمَدْحِكَ شُرِّفْتُ بَيْنَ الوَرى ... عَلى رَغْمِ كُلِّ امْرِئٍ واهِمِ

ظلّ ابن فُركون في فخره مرتبطًا بالملك، ولم يجد السّبيل إلى الحيد عن ذكره في كلّ مرّة فَخَرَ فيها بشاعريّته، فإذا أعلن أنّه زعيم الآداب لا يشركه فيها فحول الأدباء في قوله[5]:

تُقِرُّ لِيَ الآدابُ أنّي زَعيمُها ... وتَعْجِزُ عَنْ إدْراكِ شَأْوي فُحولُها

وتَقْصُرُ عَنْ مَرْمى عُلاها عَقائِلٌ ... جَلَتْها عَلى صَفْحِ الزَّمانِ عُقولُهُ

فإنّه سرعان ما يعلن أنّ مكانته هذه كانت بفضل أفعال يوسف وعطاياه، فقال[6]:

ولِمْ لا؟ ومِنَ المَلِكِ الغُرِّ أَنْجُمٌ ... ثَوابِتُ لا يُخْشى عَلَيْها أُفولُها

---

(1) انظر: ابن فركون: الديوان، ص281-282.

(2) انظر: السابق: المقدّمة، ص12، و13. وقد أثنى عليه معاصروه ونسبه، ومدحوا له حسن خطّه ومقامه ومكانته. انظر: ابن فركون: الديوان، ص303، وما بعدها.

(3) السابق، ص129.

(4) السابق، ص150.

(5) السابق، ص224.

(6) السابق، ص224.

وَجَـــذْواكَ لِلأفْكارِ نَغْنى وَتَجودُها   فَتُهْدى إلى جَـزْلِ النِّظامِ جَزيلُها

ولم يخرج ابن فُركون في فخره بشاعريّته على ما رسمه معاصروه، فردّد معانيهم وألفاظهم، ووصف قصائده بالحدائق كما وصفوها، ومن هذا قوله يصف قصيدة مدَح فيها مليكه يوسف الثّالث[1]:

تَـــدالُ فَـمـامٌ والـنّـظـامُ حَـديقَـةٌ   بِـهِ قَـد غَـدَتْ أَنْوارُهـا مُـتَهَدِّلَـهْ

وَهَـلْ هُـوَ إلاّ الرَّوْضُ باكَرَهُ الحَيا   فَـــأَوْدَعَ رَيّـــاهُ صَـبـاهُ وَشَـــمْأَلَهْ

ظهر فخر ابن فُركون بشاعريّته في خواتيم مدائحه، فعمد إلى وصف قصائده، والاعتزاز بقيمتها الفنّيّة[2]:

أَمَـــوْلايَ خُـذْهـا كَـالحَـديقَـةِ كُلَّمـا   يَـهُبُّ نَـسيمٌ مِـنْ ثَـنـائِكَ عـاطِرُ

وَأُهْـــدي لِبَحْرِ الجُودِ مِنْها قَلائِدًا   وَمِـنْ عَجَبٍ لِلْبَحْرِ تُهْدى الجَواهِرُ

إذا اللهُ قَـدْ أَثْـنـى عَلَيْكَ فَما الَّذي   يَـقُـولُ بَـلـيغٌ أَوْ يُـنَـظِّـمُ شـاعِرُ

سعى ابن فركون في فخره بشاعريّته إلى التّفنّن بوصف قصائده، فبيّن قيمتها، وتنوّع في وصفها، فكانت حديقةً ولؤلؤًا ودُرًّا وزهرًا، واستعار لها صفات المرأة، فبدت عقيلةً وغانيةً، وعذراءَ، وخودًا، وغادةً وغرّاءَ[3].

وخلاصةُ القول أنّ الفخر غرض قديم، أسهم فيه شعراء غرناطة، وانحصر في ثلاثة موضوعات، هي الفخر بالفضائل، والفخر بالشّاعريّة، والفخر بالأصل، وقد أسهم ابن فُركون في هذا الغرض بفخره بشاعريته، ولم يكن هذا الفخر إلاّ تقليدًا اتّبعه ابن فُركون كما اتّبعه شعراء عصره.

• • •

(1) ابن فركون: الديوان، ص104.
(2) السّابق، ص200-201.
(3) انظر: السّابق، ص111، 120، 123، 127، 146، 179، 210، 297، 374.

وهكذا فقد تبيّنا أنّ أغراض شعر ابن فُركون قد تنوّعت وتعدّدت، وأسهم فيها مع شعراء عصره، ولم يتخلّف عنهم، فتناول في شعره أغراضًا شتّى، وزّعتُها في هذا الفصل بحسب أهمّيّتها، ومدى عناية ابن فركون بكلّ واحد منها، وجاء ترتيبها على هذا النّحو: المدح، الشّعر السّياسيّ، الوصف، الغزل، الإخوانيّات، الهجاء، الرّثاء، المديح النّبويّ، الحكمة، الفخر.

وتظلّ أغراض شعره هذه بحاجة إلى دراسة فنّيّة تبرز قيمتها، وهذا ما سيكون مدار الحديث حوله في الفصل الثّالث.

الفصل الثالث

الدّراسة الفنّيّة

1 - بناء القصيدة
2 - اللّغة الشّعريّة
3 - موسيقا الشّعر
4 - الصّورة الفنّيّة
5 - التقليد والتجديد

الفصل الثّالث

الدّراسة الفنيّة

تحدّثتُ في الفصل الثّاني من هذا البحث عن أغراض شعر ابن فُركون، ووزّعتها بحسب إقبال الشّاعر على النّظم في كلّ واحد منها، وبيّنت مدى اهتمامه بكلّ غرض، فقد برز اهتمامه واضحًا بشعر المدح والشّعر السّياسي وشعر الوصف، وكان اهتمامه أقلّ بأغراض أخرى، وهي الغزل والرّثاء، وجاءت أغراض أخرى أقلّ قيمة.

ومع أنّ هذا الشّعر لم يكن في سويّة واحدة من حيث الجودة؛ فقد تبيّنّا من خلال دراسته أنّه كان صدى للحياة المحيطة به، ومُعبّرًا عنها ودالاًّ على أصالة وواقعيّة، تجلّتا في التّفاعل بينه وبين أحداث العصر ولا سيّما في شعر المدح والشّعر السّياسيّ.

ولا تكتمل دراسة شعر ابن فُركون إلاّ بالوقوف على الخصائص الفنّيّة لشعره، فجاء هذا الفصل الثّالث مُتناوِلاً مُجمل الخصائص الفنّيّة البارزة في هذا الشّعر، وقد جعلتُه في خمسة مباحث؛ وهي بناء القصيدة، واللّغة الشّعريّة، وموسيقا الشّعر، والصّورة الفنّيّة، والتّقليد والتّجديد، تسعى مجتمعة إلى بيان قيمة شعر ابن فُركون، وإبراز مواطن الجمال الفنّيّ فيه بغية تقويمه فنّيًا لوضعه في مكانه المناسب ضمن تاريخ الأدب الأندلسيّ.

1 - بناء القصيدة

أ- طول القصيدة:

نظم الشّعراء العرب أشعارهم منذ القديم في قصائد مُطوّلة ومَقطوعات تبعًا لحاجتهم[1]،

---

(1) وزّع العروضيّون المنظوم وسمّوه بعدد الأبيات، فالبيت الواحد يتيم، والبيتان إلى ثلاثة أبيات نُتفة، ومن أربعة إلى ستة أبيات قطعة، وسبعة أبيات فأكثر قصيدة. انظر: فاخوري، محمود: موسيقا الشّعر العربيّ، مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة، جامعة حلب، 1401/ 1981، ص12.

فكانت الإطالة سبيلهم ليُفهم منهم، وكان الإيجاز سبيلهم ليُحفظ عنهم[1].

وحاز المُطيل من الشّعراء على إعجاب ابن رشيق (456)، من غير أن يُنكر على المُوجز فضله، فقال: «غير أنّ المُطيلَ من الشّعراء أهيبُ في النّفوس من المُوجز وإنْ أجاد، على أنّ للمُوجز من فضل الاختصار ما يُنكره المُطيل»[2].

وسار شعراء غرناطة على نهج القدماء في النّظم، فتوزّع شعرهم بين مُطوّلات ومقطوعات وبينهما قصائد مُعتدلة الطُّول[3]، وعلى النّهج نفسه سار ابن فُركون فنظم شعره في مُطوّلات ومقطوعات ونُتف[4]. ومُطوّلاته تدور في فلك المدح، فأطولُ القصائد قصيدتُه في مدح الملك يوسف الثّالث، التي بلغت عِدّة أبياتها مئةً وخمسةً وثلاثين بيتًا، ومطلعُها[5]:

سَلِ البانَ عنها: أينَ بانَتْ رِكابُها؟ وَلِمْ زُلِفَتْ فَوقَ المَعاطِفِ لُبانُها؟

وتتّخذُ هذه القصيدةُ الطّويلة طابعًا احتفاليًا، أنشدها ابن فُركون بين يدَي الملك في احتفال عظيم عام (818)، أقامه الملك بمناسبة إعذار مولود له وعقيقة ولدين آخرين، وعقد البيعة لوليّ عهده، واستدعى «للملك أكابر أهل البلاد النّصريّة، وآثرهم برفيع الثّياب وفاخر الكُساء، ونظّم خُدّام بابه من الشّعراء في ذلك قصائد»[6]، فشارك ابن فُركون في هذه المناسبة بهذه القصيدة الطّويلة، وجمع فيها موضوعاتٍ عدّة.

ولابن فُركون قصيدة أخرى في مدح يوسف، بلغت عِدّة أبياتها مئةً وثمانيةَ أبيات، ابتدأها بقوله[7]:

---

(1) انظر: ابن رشيق: العمدة 1/346-347.
(2) السّابق، 1/349.
(3) انظر: الحُسيني: الشّعر الأندلسي، ص291.
(4) لم ينظم ابن فُركون أبياتًا مُفردة، أمّا البيت المُفرد الوحيد في الدّيوان فهو مطلع قصيدة أو قطعة راجع فيها الشّريف أبا العبّاس على تهنئة وجّهها لأبي الحسين. انظر: الدّيوان، ص389، حاشية 389، وحاشية 390.
(5) ابن فُركون: الدّيوان، ص338ب. انظر ملحق الجداول: جدول نظم ابن فُركون.
(6) السّابق، ص338أ.
(7) السّابق، ص115.

مـا لـلـرَّكـائـبِ لا تَـحُـلُّ عـلالَـهـا   وتُـطـيـلُ فـي تـلـكَ الـرُّبُـوعِ سُـؤالَـهـا؟

وهذه القصيدة، كسابقتها، ذات طابع احتفاليّ، أنشدها ابن فُركون بمناسبة زواج الملك أمام مَنْ استدعاهم من «أشراف أهل الأندلس»(1).

وله قصيدة في المديح النّبويّ، وهي وحيدة في غرضها، وصل عدد أبياتها إلى مئة وستة عشر بيتًا، قالها وقد حلّ موسم الحجّ عام (818)، وكان مطلعُها(2):

تَـهـادَتْ قُـبَـيْـلَ الـصُّـبْـحِ والـرَّكْـبُ نُـوَّمُ   ونَـجْـمُ الـدُّجـى بـالأُفْـقِ لا يَـتَـلَـوَّمُ

حمّل ابن فُركون هذه القصيدة كثيرًا من المعاني، وعبّر فيها عن مكنونات نفسه، وبرزت فيها شخصيته على جانب كبير من التُّقى والإيمان.

نظم ابن فُركون هذه القصائد على البحْرين الطّويل والكامل، وقد ساعدته الموسيقا فيهما على الامتداد والإطالة، واتّسعت لمجموعة الفِكَر والمعاني التي رام إيرادها في قصائده.

وفي المقابل كان له مقطوعات تراوح عدد أبياتها بين بيتين وستّة أبيات، نظمها في الوصف(3)، من هذا مثلًا ما قاله عندما أمره الملك «بنظم قطعات تُكتب في قوس اتُّخذت لمقامه الكريم، أسماه الله»(4)، فقال بتاريخ 3 ذي القعدة عام (814)، على لسان القوس(5):

أَشْـبَـهْـتُ قَـوْسَ الـسَّـمـاءِ حُـسْـنًـا   وأَنْـجُـمُ الأُفْـقِ أَسْـهُـمـي

وَعَـزَّتْ قُـسِـيُّ الـعُـلا بِـأَنِّـي   لِـنـاصِـرِ الـدِّيـنِ أَنْـتَـمـي

وجاءت هذه المقطوعات وأُخريات غيرها منظومةً على الخفيف والسّريع والمُجتثّ والطّويل، ومجزوءات الخفيف والوافر والرّجز(6).

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص115.
(2) السّابق، ص322.
(3) السابق، ص277-285.
(4) السّابق ص278.
(5) السابق، ص278.
(6) انظر ملحق الجداول: جدول البحور المجزوءة التي نظم عليها الشّاعر.

وكان مجموعُ ما نظمه أبو الحسين بن فُركون في ديوانه و«مظهر النّور» مئةً وواحدًا وثمانين نصًّا، بلغ عددُ القصائد فيها مئةً وإحدى وعشرين قصيدة، وعددُ القطع ثلاث عشرة، وعدد النُّتف إحدى وأربعين[1]، وهذا يشير إلى ميل الشّاعر إلى القصائد أكثر من ميله إلى المقطوعات.

ومع أنّ نَفَسه كانَ في المُطوّلات أطولَ، غير أنّه وقع في التّكرار وترداد المعاني والتّراكيب ذاتها أحيانًا، أمّا مقطّعاته فقد كانت تحمل طابعها المُميّز في استقلالها بموضوعها، ووصولها إلى مُرادها بأيسر طريق.

ودراسة الأغراض الشّعريّة لدى ابن فُركون دعت إلى دراسة مكوّنات القصيدة الأساسيّة سواءً منها الدّلاليّة أو الإيقاعيّة. وسيكون البدء بالمكوّن الدّلاليّ للقصيدة، وهو النّسيج الجامع بين بُنى رئيسة هي المَطلع والمُقدّمة والتّخلّص والخاتمة في بنية واحدة مُتماسكة ألا وهي القصيدة. غير أنّ هذه الدّراسة لا تروم تقطيع أوصال القصيدة، إنّما تسعى إلى رصدها ودرسها، وتظلّ القصيدة عملاً واحدًا مُتماسكًا.

ب- شكل القصيدة:

لم يخرج ابن فُركون على الطّريق التي سار عليها الشّعراء قبله، فقد ظلّت القصيدة العربيّة التّقليديّة هي الأثيرة لديه مثل شعراء غرناطة كلّهم[2]، فنظم عليها جلّ شعره إلاّ قليلاً، محاولاً مع عدد من شعراء غرناطة التّلوين في إطار القصيدة التّقليديّ بما نظمه من مُخمّسات[3]، غير أنّ هذه المحاولة كانت محدودة، فظلّ الشّكل التّقليديّ هو الغالب.

وتتركّب القصيدة عند ابن فُركون من أربع بُنى أساسيّة، يقوم عليها بناء القصيدة عنده،

---

(1) انظر ملحق الجداول: جدول نظم ابن فُركون، وجدول توزّع نظم ابن فُركون.
(2) انظر: سرمين: خصائص الشّعر الأندلسيّ، ص165، والخطيبيّ: الشّعر الأندلسيّ، ص291-292.
(3) انظر: الخطيبيّ: الشّعر الأندلسيّ، ص292. لابن فُركون أربعة مخمّسات. انظر: الدّيوان، ص236-239، 245-250، مظهر النّور، ص108-111. وله إضافة إلى المخمّسات قصيدة واحدة من التّوشيح، وموشّح واحد. انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص233، مظهر النّور، ص111.

وهي المطلع والمقدّمة والتخلّص والخاتمة، وسيقتصر الحديث في دراسة هذه البُنى على المدحة؛ لأنها النموذج الأمثل لعناية ابن فُركون في الصّناعة الشّعريّة والصّياغة الفنيّة، مع الإشارة إلى قصائد من أغراض أخرى على سبيل الموازنة .

1 - **المطلع**: هو البيت الأوّل من القصيدة[1]، وهو يشترك مع المقدّمة في تهيئة السّامع للدّخول إلى جوّ القصيدة، فدراسة المطلع غير دراسة المقدّمة، وقد لا يكون للقصيدة مقدّمة، ولكن بالضّرورة يكون لها مطلع.

ومطلع القصيدة من أهمّ أجزائها لذا أَوْلاه الشّاعر عناية فاقت بقيّة أجزاء القصيدة غالبًا، فعلى جودة المطلع يتوقّف نجاح العمل الفنيّ كلّه، والشّاعر يبغي تهيئة السّامعين وجذب انتباههم إلى الموضوع الأساسيّ للقصيدة.

وقد حظي مطلع القصيدة باهتمام النّقّاد القدماء وعنايتهم؛ لأنهم كانوا يعدّون الشّعر قفلاً «أوّله مفتاحه»[2]، فكانوا يعدّون المطلع أحسن شيء في صناعة الشّعر، وكانت لهم معايير انطلقوا منها «في دراستهم له وتوجيه الشّعراء فيه»[3]، وحدّدوا شروطًا له «إذا جاء موافقًا لأحدها كان جيّدًا، وإلاّ فهو رديء»[4].

وقد اهتمّ شعراء غرناطة بمطالع قصائدهم[5]، ومثلَهم فَعلَ ابن فُركون الذي تحرّى الدّقّة في صياغة مدائحه لتبرز في أبهى صورة وأجمل شكل، واهتمّ بأجزائها كلّها، فاعتنى بمطالع قصائده، وسعى إلى أن تكون على هيئة يرضى عنها سامعوه. ومطالعُه الجيدة كثيرة؛ منها مطلع قصيدة مَدَحَ فيها الملك، الذي حلّ موكبه بمالقة، فاستعرض جندها، «وأمر

(1) المطلع عند الدّكتور عبد الحليم حنفي هو الفكرة الأولى أو المقطع الأوّل من القصيدة، وليس البيت الأوّل. انظر: حنفي، عبد الحليم: مطلع القصيدة العربيّة ودلالته النّفسيّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب- القاهرة، 1987، ص11-12.

(2) ابن رشيق: العمدة، 1/389.

(3) بكار، يوسف حسين: بناء القصيدة في النّقد العربيّ القديم في ضوء النّقد الحديث، دار الأندلس-بيروت، ط2، 1982، ص204.

(4) بكار: بناء القصيدة، ص207.

(5) انظر: الوراتيّ: الشّعر الأندلسيّ، ص222، و229.

أيده الله - بإراقة الخمور، وتغيير المنكر، وإذاعة أفعال البرّ»[1]، فقال ابن فُركون مُشيرًا إلى حلول موكب الملك بمالقة[2]:

بُـشـرى بِـطَلْـعِ الـمَـلـكِ راقَ طُلُوعُها ... فـمـالـقـةٌ قـد أَمْـرَعَـتْ وَرُبُـوعُـهـا

أدرك ابن فُركون أنّ العناية بالمطلع وتجويده سبيله إلى ما يأتي بعده من معان يروم إيصالها، فإذا كان الابتداء بالمطلع «حسنًا بديعًا، ومليحًا رشيقًا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام»[3].

وكان أبو الحسين بن فُركون يُراعي مناسبة القول في مطالع قصائده، وقد أكّد أبو هلال العسكريّ (395) أنّ الشاعر ينبغي له «أن يحترز في أشعاره ومُفتتح أقواله ممّا يُتطيّر منه، ويُستجفى من الكلام والمخاطبة، والبكاء ووصف إقفار الدّيار، وتشتيت الألاّف ونعي الشّباب وذمّ الزّمان لا سيّما في القصائد التي تتضمّن المدائح والتّهاني. ويستعمل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة»[4]. فكان ابن فُركون يفتتح مدائحه وتهانيه بالهناء والبُشرى، ومن هذا ما قاله في تهنئة الملك ببنت وُلدت له[5]:

هَـنِـيـئًـا هَـنِـيـئًـا بِـبَـسّـامِ الـهُـدى ... زَغَـــرَتْ الـوُجُـود وَغَـنّـتْ الـنّـدى

وكان يتجنّب هذا في مراثيه، فقد افتتحها بما ناسبَ فداحةَ الخطب باللّفظ والمعنى، ومن هذا ما قاله يخاطب الملك الذي فُجع بموت أخيه[6]:

عَـزاءً فـإنّ الـخَـطْـبَ قَـدْ جَـلَّ مَوْقِعا ... وَصَـبْـرًا وَإِنْ لَـمْ يُـبْـقِ لِلصَّبْرِ مَوْضِعا

وفي اختيار ابن فُركون المعاني والألفاظ المناسبة لمطالع قصائده تجلّى عنايته بهذه

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص120.
(2) السابق، ص120.
(3) أبو هلال العسكريّ، الحسن بن عبد الله (395): كتاب الصناعتين (الكتابة والشّعر)، تحقيق عليّ محمّد البجاوي، ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ وشركاه-القاهرة، د.ت، ص435.
(4) السابق، ص431.
(5) ابن فُركون: الدّيوان، ص137، وانظر: الدّيوان، ص105، 161، 198، 228، 331، 337، 352.
(6) السابق، ص358.

المطالع، كما تتجلّى في تصريعه هذه المطالع وتقفيتها، فهو إن استغنى عن المقدّمة لم يستغنِ عن المطلع المُصرّع أو المُقفّى[1]، وقد بلغ عدد المطالع المُصرّعة والمقفّاة مئةً وتسعةً وعشرين مطلعًا، في حين كان عدد المطالع المُصْمتة[2] ستّةً وخمسين مطلعًا في مختلف الموضوعات[3].

2 – المُقدّمة: هي الفكرة الأولى أو مجموعة الفِكَر الأولى من القصيدة. وقد حظيت مقدّمة القصيدة العربيّة باهتمام النّقّاد العرب، «ونظروا إليها من خلال القصيدة الجاهليّة التي استمدّوا منها قواعدهم وبنَوْا عليها أصولهم، ولم تخرج تفسيراتهم لها عن إطار القصيدة القديمة وحدودها»[4]. ويبدو أنّ الشّعراء لم يكونوا وحدهم أسارى القصيدة الجاهليّة؛ فقد كان النّقّاد كذلك، يرون فيها مثالاً يُحتذى، وأنموذجًا يُتّبع، وخضع الشّعراء لهذا، فنظموا عليها كثيرًا من شعرهم حتّى استساغها الذّوق العامّ.

وطالب النّقّادُ الشّعراءَ المُحدَثين بضرورة تجويد افتتاح أشعارهم؛ لأنّ «حُسن الافتتاح داعيةُ الانشراح، ومظنّةُ النّجاح، ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح»[5]، ولهذا فإنّ على الشّاعر «أنْ يجوّد ابتداء شعره، فإنّه أوّل ما يقرع السّمع منه، وبه يُستدَلّ على ما عنده في أوّل وهلة»[6]. ولأهمّيّة هذا الموضوع ظهرت مجموعة من الدّراسات الحديثة، كان محورها مُقدّمات القصائد العربيّة في عصور الأدب المختلفة[7].

---

(1) المطلع المُصرّع: هو ما وافقت عروضُه ضربَه في الوزن والرّويّ بزيادة أو نقص. والمطلع المُقفّى: هو ما وافقت عروضُه ضربَه في الوزن والرّويّ دون زيادة أو نقص. انظر: ابن رشيق: العمدة، 1/325، والشّيخ، أحمد محمّد: البحور القصار في العروض العربيّ، منشورات جامعة السّابع من أبريل، 1402/1993، ص32، ص33.

(2) وهو البيت الّذي كانت عروضُه غير ضربه، وزنًا ورويًّا. انظر: الشّيخ: البحور القصار، ص33.

(3) انظر ملحق الجداول: جدول تصريع المطالع وتقفيتها.

(4) بكّار: بناء القصيدة، ص212.

(5) ابن رشيق: العمدة، 1/388.

(6) السّابق، 1/389.

(7) ظهرت مجموعة من الدّراسات حول مُقدّمة القصيدة العربيّة، منها:

– مطلع القصيدة العربيّة ودلالته النّفسيّة. عبد الحليم حنفي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب–القاهرة، 1987.

وسار شعراء غرناطة في بناء قصائدهم على درب سابقيهم، فافتتحوها بمقدّمات متنوّعة[1]، وسلك ابن فركون مسلكهم، فافتتح قصائده بمقدّمات[2]، أولاها عناية كبيرة، واتّخذها وسيلة ليشدّ انتباه السّامعين إليه، فهي أوّل ما يطرق أسماعهم، فكان التّركيز عليها ليكون لها وقعها الحسن في نفوسهم، فكان يفتتحها بموضوعات تروق السّامعين.

وغالبًا ما كان ابن فركون يمهّد لقصائده بمقدّمات يصل بها غرضه، غير أنّ مقدّماته لم تكن تقليديّة تمامًا، تسير على نهج مقدّمات قدماء الشّعراء وفق ما أثر عنهم في ترتيبها المعهود، حيث تبدأ بذكر الدّيار والدّمن والآثار، وبكاء الشّاعر وشكواه ومخاطبة الرّبع واستيقاف الرّفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظّاعنين عنها، ثمّ يصل ذلك بالنّسيب، فيشكو شدّة الوجد وألم الفراق وفرط الصّبابة، ولا يجد إلاّ ناقته ليرحل عليها، فيقاسي السّهر وحرّ الهجير حتّى يصل إلى الممدوح، فيمدحه وينال المكافأة على مدحه[3].

كان ابن فركون في مقدّمات قصائده يتّبع أحيانًا طرائق أهل البادية، وهي «ذكر الرّحيل والانتقال، وتوقّع البين والإشفاق منه، وصفة الطّلول والحمول، والتّشوّق بحنين الإبل ولمع البروق، ومرّ النّسيم وذكر المياه، التي يلتقون عليها»[4]. ومن هذا مقدّمة مدحة رفعها إلى الملك يوسف الثّالث، تحدّث فيها عن الظّعائن التي رحلت، فقال[5]:

- – مقدّمة القصيدة العربيّة في الشّعر الجاهلي. حسين عطوان، دار المعارف– مصر، ط1، 1970.
- – مقدّمة القصيدة العربيّة في صدر الإسلام. حسين عطوان، دار الجيل– بيروت، 1987.
- – مقدّمة القصيدة العربيّة في الشّعر الأندلسي: دراسة موضوعيّة فنّيّة. هدى شوكت بهنام، مكتبة الطّليعة– الشّارقة، 2000.

(1) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسي، ص292، وما بعدها، والرّاوي: الشّعر الأندلسي في عهد بني الأحمر، ص219–221، وبازجي: الغزل في الشّعر الأندلسي، ص57، وما بعدها، وسرميني: خصائص الشّعر الأندلسي، ص165.

(2) انظر: بازجي: الغزل في الشّعر الأندلسي، ص92.

(3) انظر: ابن قتيبة الدّينوري، عبد الله بن مسلم (276): الشّعر والشّعراء (أو طبقات الشّعراء)، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة–بيروت، ط2، 1405/1985، ص27.

(4) ابن رشيق: العمدة، 1/398.

(5) ابن فركون: الدّيوان، 164–165.

سَلْ رِكابَ الحِمى هُداةً استقلّتْ: مَنْ حَوَتْ في رِحالِها وأقلّتْ؟

وَثَنَتْ للسُّرى هَواديَ لولا أنْ هَداها تَرَقّي الشُّهْبِ لَضلّتْ

وشبّه ابن فُركون الظّعائن بالسّفن، والسّراب بالبحر، والفتيات المُحتجبات في الخدور بالبدور التي غربت[1]:

أهيَ السُّفْنُ في بِحارِ سَرابٍ لَمْ تَحُطَّها لَدى الكَثيبِ أظلّتْ؟

غَرَبَتْ في خُدورِهِنَّ بُدورٌ أفَلَتْ، لا بَلْ غَرْبُ صَبْري فَلَّتْ

وكرّر صورة ارتحال الظّعائن في موضع آخر، فقال في مقدّمة مدحة أخرى[2]:

ألا يا مُشْرِفًا بنُعمِ الرَّبْعِ وَالمَغنى هَنيئًا فَوجْهُ الحُسنِ حَيّاكَ بالحُسْنى

عَطفْتَ على مَغنى الرِّكابِ مُسَلِّمًا فَلَقيتَ جَوابًا رائقَ اللَّفْظِ والمَعْنى

وعاد فأشار إلى الرّكائب والظّعائن فشبّهها بالسّفن، وشبّه السّراب بالبحر، فقال[3]:

وَلَمّا سَرَيْنا بالرّكائبِ مُوهِنًا وَنَجْمُ الدُّجى بالأُفْقِ لَمْ يَعْرِفِ الوَنى

تَخوضُ بِنا بَحْرَ السَّرابِ ظَعائِنٌ فَلِلَّهِ عَيْنًا مَنْ رَأى البَحْرَ وَالسُّفْنا

وظّف ابن فُركون هذه الصّورة القديمة التي تجسّد الظّعائن المُرتحلة في مقدّماته وذكرها غير مرّة، مع أنّ غرناطة مجتمع حضريّ عمرانيّ ليس فيها ظعائن ترتحل، إلاّ أنّه جرى في ذلك على مذهب الشّعراء المُحدثين، الذين «منهم مَنْ سلك في ذلك مَسلك الشّعراء اقتداءً بهم واتّباعًا لما ألفته طباع النّاس معهم، كما يذكر أحدهم الإبل ويصف المفاوز على العادة المُتعارفة، ولعلّه لم يركب جملاً قطّ»[4].

وتترافق صورة الظّعائن المُرتحلة في مقدّمات قصائد ابن فركون بصورة النّجم الذي

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص165.

(2) السابق، ص126.

(3) السّابق، ص126.

(4) ابن رشيق: العمدة، 1/399.

يهدي الرّاحلين، والبرق الذي يتألّق فيثير الظّعائن، ومنه قوله[1]:

لمّا رفعوها نُزّعًا تشتكي الوجى ... سنا بارقٍ يَهدي الرّكائبَ في الدُّجى[2]

تألّق خفّاق الجناح كأنّما ... غدا مُزجيًا رَكْبَ السّحائب مُزعجا

أنار وقد أخفى الظّلام سبيلها ... فأسرع للمتأوّب من بات مُدلجا

وقد يجمع في مقدّمة واحدة وصفَ الحمول إلى وصف البرق، وهذا في قوله[3]:

لا يُطمِعنَّ الوجدَ الحمولُ التي ... سرتْ ومن دمعي لها مَشرَبُ

شاقتْ سنا بارقها كلّما ... يجيءُ في الظّلماء أو يذهبُ

وكما سلك ابن فُركون في مقدّمات قصائده طرائق أهل البادية سلك فيها كذلك سبيل أهل الحاضرة، الذين «بأتي أكثر تغزّلهم في ذكر الصُّدود والهجران، والواشين والرّقباء، ومَنَعة الحرس والأبواب، وفي ذكر الشّراب والنّدامى، والورد والنّسرين...»[4]، ومن هذا قوله في مقدّمة قصيدة، أعاد فيها رحيل الأحبّة[5]:

ما للمدامع فوق الخدّ تنسكبُ؟ ... وما لقلبي بنار الوجد يلتهبُ؟

فلا تسلْ عن فؤادٍ حلّ ساحتَهُ ... جيشُ الجوى عندما بانتْ بها النُّجُبُ

وقوله في مقدّمة قصيدة أخرى، يصف ما حلّ به لبُعد الأحبّة عنه، ويستعطف جيرة الحيّ، كي يعودوا ويحلّوا في قلبه المشتاق لهم[6]:

أصبح القلبُ بالبعاد عليلا ... إذ نأينا وما شفينا غليلا

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، 193، مظهر النور، ص212.

(2) النّاقة النّارع هي التي حنّت إلى أوطانها ومراعاها، والوجى: الحفا، وهو رقّة القدم والخفّ والحافر، أو المشي بغير خفّ ولا نعل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ن ز ع)، والفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادّة (ن ز ع)، ومادّة (و ج ي)، ومادّة (ح ف ر).

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص107.

(4) ابن رشيق: العمدة، 1/398.

(5) ابن فركون: الدّيوان، ص147.

(6) السّابق، ص159.

جيرةَ الحيّ هل علمتم بأنّي ... لا أذوقُ المنامَ إلاّ قليلا؟
دونكم قلبيَ المشوقَ فحُلّوا ... طللاً منه بالبعاد نحيلا

ولا تخلو مشاهد الحبّ من ذكرٍ للعواذل، الذين يكدّرون على المُحبّين صفو حياتهم، فاستكمل ابن فُركون هذه الصّورة بذكره العواذل في عدد من مقدّماته، ومنها قوله(1):

زعم العواذلُ أنّ قلبي عاشقٌ ... صدقوا، ولكنْ لا يريدُ سواها
هيهاتَ يطمعُ أنْ يميلَ لسلوةٍ ... بعدَ الذي فعلتْ به عيناها

وإلى جانب العواذل كان هناك الوشاة، الذين لم يسلم ابن فُركون منهم، والذين سعوا به عند مُحبّه، غير أن مسعاهم خاب، وإلى هذا أشار بقوله(2):

سعى بيَ الواشي لهمْ عندنا ... قد خيّبوا والسّعيُ ما خيّبوا
ما لي وللعذّال ما شأنُهمْ؟ ... كلٌّ نسيبٌ بهمُ مُتعَبُ
قد علموا بأنّ أهلَ الهوى ... كلُّ عذابٍ عندَهمْ يعذُبُ

ومن مقدّماته ما تحدّث فيه عن الطّيف الذي سرى ليلاً فألم به، وفي هذا قوله(3):

أمنها سرى طيفٌ إليّ حبيبُ؟ ... وليس سوى نجم السّماء رقيبُ
أتى وظلامُ اللّيلِ يسحبُ ذيلَهُ ... وللبرقِ ثغرٌ في دُجاهُ شنيبُ

والتّداخل بين الشّاعر ومظاهر الطّبيعة يرد عند ابن فُركون، فيضفي عليها أحاسيسه ويشكو إليها حاله ويحمّلها معاناته، فامتزج بالطّبيعة بما جسّده من صورها: «نجم السّماء رقيب»، و«ظلام اللّيل يسحب ذيله»، و«للبرق ثغر شنيب».

جاءت هذه المُقدّمات ومُقدّمات أخرى لتعبّر عن إحساس الشّاعر باللّوعة والأسى لفراق المحبوبة، وكشف ما خلّف الرّحيل في نفسه وقلبه من آلام وأحزان لا تفارقه، وهذا ما ظهر

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص168.
(2) السابق، ص107.
(3) السابق، ص154.

في عدد من مُقدِّمات قصائده ذوات الأسلوب القصصيّ الحواريّ أو قصائد المُفاولة كما سمّاها ابن فُركون نفسه، ومنها قوله في إحداها[1]:

وَرُبَّ لائِمَةٍ تُمْلي المَلامَ عَلى ... حُبِّ التي وُدُّها طَبْعٌ وَمُكْتَسَبُ

قالَتْ: لِما هِمْتَ مِنْ بَعْدِ السُّلُوِّ بِها؟ ... فَقُلْتُ: كُلُّ فَتًى قَدْ هَزَّهُ الطَّرَبُ

قالَتْ: تَمَتَّعْ بِبَدْعٍ مِنْ مَحاسِنِها ... فَقُلْتُ: قَدْ سُدِلَتْ مِنْ دُونِها الحُجُبُ

قالَتْ: أَتَخْفى عَنِ الأَبْصارِ بَهْجَتُها؟ ... فَقُلْتُ: هَيْهاتَ نُورُ الشَّمْسِ يَحْتَجِبُ

وعلى هذا النّسق يتتالى الحوار بين ابن فُركون وبين مَنْ تلومه على ما حلّ به، وجاء هذا في مُقدِّمة حواريّة كشفت خفايا نفسه، وأبانت عن معاناته، وسعى من خلالها إلى شدّ انتباه القارئ ليتعاطف معه.

عاش ابن فُركون في مُقدِّماته في جوّ الذّكرى، ذكرى الأحبّة الرّاحلين عنه، وتحدّث عمّا يعانيه من لواعج الحبّ والشّوق، وفيما يبدو أنّها لا تعبّر عن تجربة حقيقيّة عاشها ابن فُركون، وما هي إلاّ رسوم نرسّمها، ومن هذا قوله[2]:

عَهْدي بِها وَزَمانُنا مُتَكَفِّلٌ ... بِمُشاوِرِ الآمالِ يُدْني جَنْيَها

تَغْفُو عُيُونُ العاذِلاتِ وَنَحْنُ في ... دَعَةٍ وَصَرْفُ الدَّهْرِ عَنّا قَدْ نَها

بانَتْ جَوانِحُنا إِلَيْها تَنَزُّعًا ... لا مِنْ جَمِيلِ الصَّبْرِ نَنْزِعُ لُبَّها

لَمْ يُشْجِها الطَّيْفُ المُلِمُّ وَإِنَّما ... زارَ الخَيالُ مَعَ الخَيالِ فَمَنَّها

ظهر ابن فُركون في مُقدِّماته الغزليّة ضعيفًا متهالكًا، ومع ما يبدو من محاولته إبراز أحاسيسه ومشاعره؛ فإنّ هذه المقدِّمة وأُخريات غيرها تخلو من صدق العاطفة، وإنّما جاءت دليلاً على قدرة الشّاعر على الصّياغة والنّظم في موضوع الغزل في مقدِّماته، وكان هذا سبيله «ليُميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه،

(1) ابن فُركون: الديوان، ص147.

(2) السابق، ص145.

لأنّ التشبيب قريب من النّفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبّة الغزل وإلف النّساء»[1].

وإذا كان شعر الطّبيعة قد ارتبط في الأذهان بالأندلس وشعرائها فالواقع أنّ الطّبيعة لم تأخذ حظّها عند ابن فَركون، فلم ترد مُقدّمة للقصيدة وإنّما تناولها في أبيات محدودة أو مقطوعات، ولمّا كان الغزل من فنون الشّعر اللّصيقة بالنّفس القريبة منها المُعبّرة عنها فقد كثر في شعره، وأبدى اهتمامه به لوقعه الحسن في نفوس المُستمعين، وقدرته على تحريك المشاعر، وتهيئة السّبل لانتقاله إلى مقاصده بيسر، ومن هذا قوله في مقدّمة غزليّة افتتح بها إحدى مدائحه[2]:

إنّ الّتي شغف الفؤاد هواها ... قضت اللّيالي أن تُطيل نواها

عجبًا لها إذ أتلفت بجمالها ... قلبًا مشوقًا لم يزل مثواها

يا ليتها رحمت مُعنّى مُغرمًا ... لم يدر ما معنى الهوى لولاها

تحدّث ابن فَركون في هذه المُقدّمة عن وجده وتباريح غرامه، وما يكابده من ألم الصّدّ والهجر، وردّ على العواذل لومهم، وأكّد تعلّقه بالمحبوبة على الرّغم من مطالها وتسويفها، وعاد فتذكّر عهده بها وساعات وصلها، ولمّا فرغ من الحديث عنها وتصوير ما عاناه من حبّها وجد السّبيل إلى الانتقال إلى مدح الملك بعد أن شدّ انتباه السّامع إليه[3]:

ولئن كلفت بربعها فلأنّني ... من أجل مغناها إلى مغناها

وأحنّ من قد لامني في ذكرها ... دار الحبيب أحقّ أن تهواها

هي حضرة المولى الخليفة يوسف ... شرف الملوك إمامها مولاها

وربّما أحسن ابن فَركون في أسلوب الانتقال من الغزل إلى المدح ولاسيّما عندما صوّر نفسه وقد سلا أوجاع الهوى، وشُغف بحبّ الممدوح.

---

(1) ابن قتيبة: الشّعر والشّعراء، ص27–28.

(2) ابن فَركون: الدّيوان، ص167–168.

(3) السّابق، ص168–169.

أُولِع ابن فُركون بافتتاح مدائحه بالغزل، وكان مجيدًا في الانتقال إلى مقاصده، وعرف كيف يناسب بين الغزل والمدح حين ربط مقدّمة القصيدة ومتنها بخيط نفسه التي عذّبها الحبّ، فلجأت إلى الممدوح، ووجدت عنده تخفيفًا لحدّة الشّوق، فكان يصف مليكه وكأنّه يتغزّل به كما تغزّل المتنبّي (354) بسيف الدّولة[1]:

مالي أُكتّمُ حُبًّا قدْ بَرى جَسَدي ... وتدّعي حُبَّ سَيْفِ الدّوْلةِ الأُمَمُ؟

لقد وجد ابن فُركون في مدح الملك سبيلاً يسلو به عذاب الحبّ، فصاغ مدائحه بتأثير مقدّماته الغزليّة.

وإلى جانب هذه المقدّمات الغزليّة تظهر مقدّماته الطّلليّة، التي لم يقف فيها ابن فُركون على النُّؤْيِ والأحجار وبقايا الدّيار، ولم يكن لديه ما يدعوه للوقوف بها طويلاً، فلا سبيل عنده للتّفصيل ولا أناة، فما كانت هذه المقدّمات إلاّ مرورًا، يكون سبيله إلى الممدوح، وهذه مقدّمة طلليّة، وقف فيها ابن فركون، واستوقف مَنْ معه، فقال[2]:

قِفْ بالرّكائبِ ساعةً واسْتَوقِفِ ... نَحْطُطْ الرّكابُ ضُحًى بأشرفِ موْقفِ

وارْبَعْ بها فعسى أُلِفْتَ بها الهوى ... أَكْرِمْ بها مِنْ مَرْبَعٍ أو مألفِ!

والثُمْ محاسِنَها وَرُقْ نسيمَها ... فالرّوْضُ بَيْنَ مُدَرَّجٍ ومُفَوَّفِ

لم يسر ابن فُركون على نهج القدماء في مقدّماته الطّلليّة، ولم يتتبّع عناصر الصّورة فيها كاملة متكاملة، واختلفت أطلاله عن أطلالهم البالية فأطلاله فيها روح وحياة، ولعلّ هذا كلّه من تأثير البيئة الأندلسيّة.

قدّم ابن فُركون لمدائحه بمقدّمات غزليّة وأخرى طلليّة، وكان يدرك أنّ أغراضًا أخرى كالرّثاء مثلاً ينبغي أن تبدأ ببدايات تتّفق مع طبيعة هذا الغرض، فكان من الطّبيعيّ ترك المُقدّمة الغزليّة، وذلك لأنّ «الآخذ في الرّثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التّشبيب بما هو فيه من

---

(1) المتنبّي: الدّيوان، 364/3.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص129.

الحسرة والاهتمام بالمصيبة»[1].

بدأ ابن فُركون مراثيه بمطالع تصوّر الخطب الذي حلّ، والمصيبة التي طرأت، كما في قوله في رثاء مولود الملك يوسف الثّالث[2]:

يَميِنًا لقَدْ جازَ الأسى مُنْتَهى الحَدّ   فَيا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ مِثْلُها يُجْدي
مُصابٌ بِهِ بانَتْ مِنَ الدَّهْرِ عَثْرَةٌ   وَضَلَّتْ بِهِ الأَيّامُ عَنْ سَنَنِ الرُّشْدِ

وكما في قوله في مطلع القصيدة، التي أنشدها بين يدي مُحمّد الأيسر، الذي جلس على عرش غرناطة بعد وفاة أبيه يوسف الثّالث؛ فقد استهلّ ابن فُركون قصيدته هذه بمطلع جمع فيه تعجّبًا من خطْبٍ جَلَلٍ حلّ، واستبشارًا بنبأ عظيم طرأ[3]:

أَخَطْبٌ هَوى بِالنَّيِّراتِ مِنَ العُلا   وَبُشْرى بِها وَجْهُ الزَّمانِ تَهَلَّلا؟

وإذا كان ابن فُركون قد حافظ على المقدّمة الغزليّة والطّلليّة في عدد من مدائحه؛ فإنّه لم ينهج هذا النّهج دائمًا؛ فقد كان أحيانًا يخرج على هذه السّنّة، فيباشر الموضوع دون مقدّمات أو استهلال أو توسّل بأيّ غرض من الأغراض، مثل عدد من شعراء غرناطة[4]، فقد سار في عدد غير قليل من قصائده على نهج الشّعراء الذين لا يجعلون لكلامهم بسطًا من النّسيب، كما عبّر عن ذلك ابن رشيق (456) بقوله: «ومن الشّعراء من لا يجعل لكلامه بسطًا من النّسيب، بل يهجم على ما يريده مكافحةً، ويتناوله مُصافحةً،... والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء، والقطعاء، وهي التي لا يُبتدأ فيها بحمد الله ـ عزّ وجلّ ـ على عادتهم في الخُطب»[5].

استغنى ابن فركون عن المُقدّمات في عدد من قصائده، التي بدأها بمخاطبة الممدوح،

---

(1) ابن رشيق: العمدة، 813/2.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص132.
(3) السابق، ص382.
(4) انظر: الحسيني: الشعر الأندلسي، ص293، 294-295، وسرميني: خصائص الشعر الأندلسي، ص168.
(5) ابن رشيق: العمدة، 406/1.

أو بالتطرّق إلى موضوع قصيدته مباشرة، ولابن فُركون مجموعة من القصائد، ابتدأها من غير هذه المقدّمات، ومنها قوله[1]:

مقامُك للقصّاد كهفٌ ومَلجأٌ   وللآمِلِ المحتاجِ وِرْدٌ مُهنّأُ

يظهر من هذا المطلع أن للشاعر مطلبًا لدى الملك، وكان الملك قد أمر لابن فُركون «بتنفيذ الغزاة بحضرته العليّة، وسائر البلاد النّصريّة، وأبطأ الظّهير الكريم بذلك في العلامة»[2]، فقال هذه القصيدة وأشار فيها إلى غايته[3]:

ولكنْ يا مولاي أمرُك نافذٌ   فما بالُه في مطلبِ العبدِ يُبطئُ؟[4]

إذا لم يُؤمَّلْ مِنْ جنابِك ملجأٌ   إلى أين يا مولى الخلائفِ يُلجأُ؟

ولم يجنِ مِنْ روضِ المنى زهرَ وفدِه   فأيُّ ظِلالٍ للندى يتفيَّأُ؟

وسهمُ رجائي صائبٌ كلّما رمى   به المدحُ فاعجبْ كيف يرمي ويُخطئُ؟

ومن قصائده غير المسبوقة بالمقدّمات قصيدته التي ارتجلها عندما دخل المسلمون من أهل رُنْدة حصن الصّخرة، فقال مُهنّئًا الملك يوسف الثّالث بذلك[5]:

هو النّصرُ قد أجرى لديك جيادَهُ   هو الفتحُ قد ألقى إليك قِيادَهُ

أساغتْه بِكرُ الفتوحِ التي بها   أتى النّصرُ يُدني العزَّ منك بعادَهُ

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص124، مظهر النّور، ص185.

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص124. تنفيذ الغزاة: مُراقبةُ النّفقات المخصّصة للغزاة والمجاهدين والمتطوّعين. والظّهير: الرّقعة التي يكتب فيها أمر السلطان وعليه توقيعه، وهي ما تزال مُستخدمة في بلاد المغرب العربيّ، وقد شاع استعمالها منذ عهد الموحّدين. والعلامة: التّوقيعُ المُصطلَحُ عليه في دولة من الدّول، كعلامة «الحمد لله وحده» عند الموحّدين، وعلامة «وكُتب في التّاريخ» أو «وكُتب في التّاريخ المؤرّخ به» عند المرينيّين، أمّا علامة ملوك بني نصر فهي «صحّ هذا»، وتوجد في عدد من ظهائرهم الباقية. انظر: الدّيوان: المقدّمة، ص15، 16، وص124، حاشية 41، وص125، حاشية 43.

(3) السّابق، ص125.

(4) ضبط محقّق الديوان صدر البيت كالآتي: «لكنْ يا مولاي أمرُك نافذٌ»، وهذا خطأ واضح.

(5) ابن فُركون: الدّيوان، ص156.

وعى ابن فُركون أهمّيّة المطلع في القصائد التي خلت من المقدّمات؛ إذ جاءت مُتوّجة بمطالع تناسب صلب موضوع القصيدة، بعد أنّ استمدّ أهمّيّته من آراء النّقّاد القُدامى فيه، لِما له من الأثر الأكبر في النّفس، فهو أوّل ما يقرع الأسماع، فاشترطوا التّناسب بين ألفاظه ومعانيه ضمن البيت نفسه، مع مناسبته للمعنى العامّ للقصيدة، فضلاً عن سهولته وخلوّه من التّعقيد والغموض، وكان افتتاحُ ابن فركون المباشرُ بالتّهنئة أو المدح سبيله في أكثر عيديّاته[1]، ومنها قوله يُهَنِّئُ الملكَ بعيد الأضحى عام (417)[2]:

هَنِيئًا بِهِ يا ناصِرَ الدِّينِ مَوْسِمَا ... يُغادِرُ أَهْلَ الشِّرْكِ نَهْبًا مُقَسَّمَا

وَبُشْرَاكَ طَوْعُ النَّصْرِ وَالعِزِّ وَالعُلا ... بِما أَبْرَمَ الصُّنْعُ الجَمِيلُ وَأَحْكَمَا

فالتّناسق بين ألفاظ البيت ومعانيه واضح، فضلاً عن التّناسب بين معنى البيت ومضمون القصيدة، التي انصبّت معانيها على تهنئة الملك بعيد الأضحى «هنيئًا به موسمًا»، والبشرى بالنّصر على الأعداء «يغادر أهل الشّرك...»، فجمع في المطلع المناسبين معًا.

3 - التّخلّص: هو الخروج من مقدّمة القصيدة إلى موضوعها، وقد فرّق النّقّاد العرب بين أسلوبين في الخروج: الأوّل هو الأسلوب التّقليديّ أو طريق العرب ومذهبهم في الخروج إلى المدح، حيث كانوا «يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله: دَعْ ذا وعَدِّ عَنْ ذا، ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بـ(أنّ) المُشدّدة ابتداءً للكلام الذي يقصدونه. وإذا لم يكن خروج الشّاعر إلى المدح متّصلاً بما قبله ولا منفصلاً بقوله (دَعْ) و(عَدِّ) ونحو ذلك سُمّي طفرًا وانقطاعًا»[3].

أمّا الثّاني فهو مذهب المُحدثين، وهو يعتمد في الغالب على الرّبط بين مقدّمة القصيدة وموضوعها من دون أن يشعر بالانتقال من موضوع لآخر أو دون استخدام كلمات مثل «دَعْ ذا» أو «عَدِّ عَنْ ذا».

---

(1) افتتح ابن فركون عيديّاته بالمدح أو التّهنئة، ما عدا ثلاثًا. انظر ملحق الجداول: جدول العيديّات، وفيه أرقام صفحاتها كما وردت في الدّيوان.

(2) ابن فركون: الدّيوان، ص228.

(3) ابن رشيق: العمدة، 1/415.

وقد اهتمّ شعراء غرناطة - ومنهم ابن فُركون - بهذا الجزء من القصيدة في مدائحهم ذوات المُقدّمات التقليديّة(1)، فبرع ابن فُركون إلى حدّ كبير في حسن التّخلّص من المُقدّمة إلى غرضه الرّئيس، وذلك من دون أن يشعر القارئ بفجوة بين المُقدّمة والغرض.

وأسلوب ابن فُركون هو أسلوب المُحدَثين؛ فقد انتقل إلى الممدوح وخرج إليه بطرق مختلفة عُرف بها المُحدَثون، وهي أقرب إلى حياتهم ومذهبهم الفنّيّ، الذي لا يعتمد كثيرًا على وصف الرّحلة، ووصول الرّكب إلى الممدوح.

استمر ابن فُركون المُقدّمة الغزليّة في ربطها بالممدوح استمرارًا جيّدًا لا تمحُّل فيه ولا فصل بين المُقدّمة والغرض. وهذا الجانب في الرّبط بين الغزل والممدوح عند الشّعراء أشاد به النّقّاد وعدّوه من إحسان المُحدَثين، فـ «من حكم النّسيب الذي يفتتح به الشّاعر كلامه أن يكون ممزوجًا بما بعده من مدح أو ذمّ، متّصلاً به، غير منفصل منه، فإنّ القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتّصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحّة التّركيب غادر بالجسم عاهةً تتخوّن محاسنه، وتُعفّي معالم جماله»(2).

وقد ظهر اهتمام ابن فُركون بهذا الجزء من القصيدة(3)، واعتمد عليه في الانتقال إلى غرضه، ومن هذا قوله مُهنّئًا السلطان عند عودته من إحدى نُزهاته(4):

وَساحِرَةُ الجُفُونِ أَرَتْ صَلاحًا	فَلَمْ تَتْرُكْ بِلا وَجْدٍ فُؤادا
فَواتِرُ وَهْيَ تَمْنَحُنا فُتُورًا	نَواعِسُ وَهْيَ تَمْنَعُنا الرُّقادا
فَلَوْلاها لَما هِمْنا غَرامًا	وَلا مِلْنا إِلى الذِّكْرى وِدادا
وَلَوْلا ناصِرُ الدِّينِ ابْنِ نَصْرٍ	لَما نِلْنا مِنَ الدُّنْيا مُرادا
وَلَوْلاهُ لأَرْجَفْنا سِراعًا	وَكانَتْ تَضْطَرِبُ بِها البِلادا

(1) انظر: الحميني: الشّعر الأندلسي، ص304-305، والوائلي: الشعر الأندلسي، ص222-223، و229، بازجي: الغزل في الشّعر الأندلسي، ص96.
(2) ابن رشيق: العمدة، 2/753-754.
(3) انظر: بازجي: الغزل في الشعر الأندلسي، ص96.
(4) ابن فركون: الدّيوان، ص113.

انتقل ابن فُركون إلى الممدوح بعد أن عاش في جوّ ذكرى صاحبته، فإذا افتقدها ولم يجدها وجد يوسف بديلاً عنها، الذي حقّق له من أمانيه ما أراد.

وكما وظّف ابن فركون الغزل وظّف الطّبيعة، فربط بينها وبين الممدوح ربطًا جيّدًا، ومن ذلك قوله[1]:

كم ليلة قد بتّها ساهرًا ... تكاد فيها الشّهب لا تغربُ

ونجمها كأنّه بينها ... وجه أبي نصرٍ حفّه الموكبُ

ووظّف عناصر الطبيعة في تخلصه بمهارة، فاقتنص منها الصّور، واستخدم مفردات النّسيب والمدح والتّخلّص، ومنه قوله[2]:

كأنّ الثّرى بالمنحنى ظلُّ داجرٍ ... إذا طلعت شمس الضّحى يتقلّصُ

كأنّ ترائبها نسيبٌ وحقفها ... لمدح الإمام اليوسفيّ تخلّصُ

لقد رأى النّقاد أن يصل الشّاعر كلامه صلة لطيفة، بلا انفصال للمعنى الثّاني عمّا قبله، ودلّ هذا عندهم على «حذق الشّاعر، وقوّة تصرّفه، وطول باعه، واتّساع قدرته»[3]، وعلى هذا الأساس كان التّخلّص سبيل ابن فركون إلى الوصول إلى الممدوح، فإذا وصله وأفاض القول فيه، كان السّبيل إلى الخاتمة.

4 - **الخاتمة:** اهتمّ النُّقاد العرب القدامى بمقدّمات القصائد ومطالعها أكثر من اهتمامهم بخواتيمها، ومنهم من وجّه العناية إلى الخاتمة، وإلى موقعها في بناء القصيدة، غير أنّ الحديث عنها لم يكن في درجة الحديث عن المُقدّمات والمطالع، ومع ذلك فقد كان لهم شروط وجّهوا من خلالها الشّعراء[4]، وطالبوهم بالاهتمام بخاتمة القصيدة وتحسينها، لأنّ «خاتمة الكلام أبقى في السّمع، وألصق بالنّفس لقرب العهد بها، فإن

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص108.

(2) السّابق، ص350.

(3) ابن الأثير، نصر الله بن محمّد (637): الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد، وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ- بغداد، 1375/1956، ص181.

(4) انظر: بكار: بناء القصيدة، ص229-231.

حسُنت حسُن، وإن قبُحت قبُح»(1).

وإذا كان المطلع والمُقدّمة هما مدخل الشّاعر إلى قلوب السّامعين، فإنّ الخاتمة «قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع»(2)، ولهذا كان الاهتمام بها، وكان التّركيز على أثرها في النّفس.

وإذا كانت بعض الدّراسات الحديثة اهتمّت بمُقدّمات القصائد العربيّة في عصور الأدب المختلفة، فإنّ الخاتمة لم تحظ بمثل ما حظيت به المُقدّمات والمطالع من دراسات، مع أنّها ركنٌ مهمٌّ من أركان القصيدة، ولا يمكن النّظر إلى بناء العمل الفنّيّ المُوحّد والمُتّسق فنّيًّا من غير النّظر إلى خاتمة هذا العمل. ولا غرو أنّ إجادة الشّاعر في إنهاء عمله الفنّيّ لا تقلّ عن إجادته في استهلاله، فالخاتمة هي «الذّروة التي ينبغي للعمل الفنّيّ أن يسمو إليها، فضلاً عن أنّ ثمّة إحساسًا بالتّوقّع المُتوتّر يظلّ مُلازمًا المُتلقّي منذ بداية العمل تائقًا إلى نهايته لتهدأ نفسه، ويفرغ شحنة أحاسيسه»(3).

وأدرك شعراء غرناطة أهمّيّة الخاتمة، فسعَوا إلى التّفنّن في خواتيم قصائدهم، فتعدّدت وتنوّعت(4)، ومثلما تأنّقوا في مطالع قصائدهم، «تأنّقوا في اختيار الخواتم أيضًا فهي آخر ما يعلق في الأسماع، فكانت عنايتهم بها بالغة، مُتوخّين المعنى البديع واللّفظ الحسن الرّشيق»(5). وعناية الشّعراء الغرناطيّين بخواتيم قصائدهم ظاهرة ملحوظة في شعرهم(6)، ولعلّهم كانوا متأثّرين بالشّعراء المشارقة، الذين كانوا يعتنون بخواتيم قصائدهم، وإخراجها في أحسن صورة(7).

---

(1) ابن رشيق: العُمدة، 1/388-389.

(2) السّابق، 1/415.

(3) القاضي، النّعمان: أبو فراس الحمدانيّ، الموقف والتّشكيل الجماليّ، دار الثّقافة-بيروت، 1982، ص544.

(4) انظر: الحسينيّ: الشّعر الأندلسيّ، ص307 وما بعدها، والوائليّ: الشّعر الأندلسيّ، ص227-229.

(5) الوائليّ: الشّعر الأندلسيّ، ص227.

(6) انظر: سرميني: خصائص الشّعر الأندلسيّ، ص172-173، والحسينيّ: الشّعر الأندلسيّ، ص309.

(7) البهبيتيّ، نجيب مُحمّد: تاريخ الشّعر العربيّ حتّى أواخر القرن الثّالث الهجريّ، دار الفكر-بيروت، ط4، 1970، ص503.

وكما اهتمّ ابن فُركون بمطالع قصائده ومُقدّماتها اهتمّ كذلك بخواتيمها، مُدركًا أنّ خاتمة القصيدة تترك أثرها في النّفس، وأنّها آخر معنى يبقى في الذّهن. فكان غالبًا ما يختم قصائده بمعانٍ تبهجُ النّفس وتطربُ القلب، ومن ذلك قوله في خاتمة قصيدة، استقبل بها الملك عند عودته إلى غرناطة من إحدى رحلاته[1]:

كأنّ الرّوْضَ قد صادفتَ فيه ... غداةَ احتلّها المَرْأى وعادا

فلقيتَ المُنى قولًا وحالًا ... ونفّقتَ الثّناءَ المُستجادا

بها نادى الورى غربًا وشرقًا ... إمامَ ملوكها كنتَ المُنادى

بقيتَ لنصرِ دينِ اللهِ تُعلي ... معالمَهُ دفاعًا أو جهادا

دعا ابن فُركون في خاتمة قصيدته هذه للملك بالبقاء لنصر دين الله، وكان ابن فركون غالبًا ما يختم مدائحه بالدّعاء، ومع أنّ ابن رشيق (456) عدّ ذلك عيبًا، إلاّ أنّه استثنى منه الدّعاء للملوك «فإنّهم يشتهون ذلك»[2].

والدّعاء يتناسب مع غرض المدح، لما فيه من معانٍ سارّة تبهج نفس الممدوح، وهذا ما دعا ابن فركون إلى التّركيز عليه في معظم مدائحه، ومنها ما قاله في خاتمة عيديّة عيد الفطر عام (815)[3]:

بنصرِ مُلكِكَ أعلى اللهُ مَظهرَهُ ... في ساجدها يدعو وراكعُها

دامتْ خلافتُكَ العُليا التي خضعتْ ... لها الخلائقُ والدّنيا تطاوعُها

وهذه الخاتمة تتّسق فكرها مع فكر القصيدة وتتمّم معانيها، فهي مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا، متكاملة معها في أداء المدحة.

ولم يقتصر دعاء ابن فُركون على خواتيم مدائحه؛ فقد ختم به مراثيه أيضًا كما في قوله

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص114.

(2) انظر: ابن رشيق: العُمدة، 417/1.

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص213.

في آخر مرثيته، التي ارتجلها يوم لقي بها ابن الملك[1]:

بـأنَّـك الـمَلِكُ الـحُرُّ الـكريـمـة يُـقْـتَـدى ... فَجَمْعُ المعالي منك في العالم الفرْد

فـلا زِلْـتَ مِـنْ رَيْـبِ الـحَـوادثِ آمِـنًـا ... تَـنـالُ الـمُـنـى فـيـما تُـعيـدُ ومـا تُـبْـدي

ختم ابن فركون مرثيته هذه بالدعاء للملك ليبقى آمنًا من حوادث الدّهر، ويتفق هذا المعنى مع مضمون المرثية، التي خُتمت بهذا الدّعاء.

وقال ابن فُركون في مرثية أخرى، يعزّي فيها الملك بوفاة أخيه الأمير معزّ الدّولة[2]:

ودام بـمـن حـطّ الـرِّكـاب بـطَـيْـبـةٍ ... ومَنْ طافَ عِندَ الحِجْرِ والرُّكْنِ أوْ سَعى[3]

ولازالَ بـالـعَـلْـيـاءِ والـعِـزِّ مُـفْـرَدًا ... وقَـدْ حـازَ أشـتـاتَ الـمـكـارمِ أجْـمـعـا

سـألْـنـا لَـهُ اللهَ الـبَـقـاءَ مُـخَـلَّـدًا ... وحـاشـا وكـلا أنْ يُـخَـيِّـبَ مَـنْ دعـا

ولم يكن الدّعاء هو المعنى الوحيد الذي ختم به ابن فُركون قصائده؛ فقد ختمها أحيانًا بوصف مدائحه، وما تُحدثه من أثر في النّفوس، وفيها فخر بشعره وأضفى على مدائحه ملامح غزليّة، فمن هذا ما جاء في تهنئة الملك بقدومه من مالقة؛ حيث ختم قصيدته بقوله[4]:

كـزَهْـرٍ نـضـيـرٍ أوْ كـدُرٍّ مُـنَـظَّـمٍ ... تُـبَـسِّـمُ مِـنْ مَـثْـنُـوِّهِ خـيـرُ مَـبْـسَـمِ

ولَـعَـلْـيـتُـهـا قَـدْمًـا إلـيـكَ مـدائـحًـا ... وَدونَـكَـهـا مِـنْ خِـدْرِ فِـكْـري غـادةً

عَمَدَ ابن فُركون في كثير من خواتيم قصائده إلى وصف هذه القصائد، والاعتزاز بقيمتها، كما في قوله[5]:

فـإلـيـكَـهـا غَـــرّاءَ رائـقـةَ الـحُـلـى ... حَـيَّـتْ وقَـدْ أسْـدَتْ لَـدَيْـكَ حِـبـاءهـا

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص133.

(2) السّابق، ص360.

(3) حِجْرُ الكعبة: هو ما حواه الحطيم المُدار بالبيت جانب الشّمال، أو هو ما بين الرّكن وزمزم والمقام. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ح ج ر)، والفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادّة (ح ط م).

(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص123.

(5) السّابق، ص374.

فحصتُ عن المعنى الشَّرود فأعجزتْ ... كيف المعاني إعجابها لفصاحتها

غريبةٌ أرسلتْ من إغرابها ... خيلًا تقابلُ بالصّهيلِ رغامَها

كان ابن فُركون حريصًا على التأكيد أنّ ما يقوم به تجاه الممدوح قادرٌ على جعل مفاخره وشمائله تنتشر بين النّاس، حين يمدحه بشعره الذي ستتناقله الألسن وتتناقل معه مفاخر الممدوح، فأفاض على قصائده من جميل الوصف، ما جعلها تليق بمقام الملك.

وقد جمع ابن فُركون أحيانًا الدّعاء إلى وصف قصائده معًا، كما في واحدة من أواخر قصائده عام (819)[1]، ومنها قوله[2]:

خُلقًا مُمجّدةً عهدَ الشّباب ولذْ ... أغنى مديحك عن وصفٍ وتشبيبِ

فمدحُ مولاي قد راق النّظامُ بما ... إحسانُهُ زادهُ من حُسنِ تهذيبِ

كذلك الرّوضُ إنْ مرّ النّسيمُ به ... زها بما نالهُ من نفحةِ الطّيبِ

لا زلتَ تستقبلُ العمرَ الجديدَ وما ... يمرُّ منهُ عطاءٌ غيرُ محسوبِ

ولعلّ ابن فُركون لم يكن يهدف من وراء هذا الاعتناء بتصوير قصائده، إلاّ لفت الانتباه إليها، ونيل إعجاب الممدوح بها، وكسب مودّته، وهذا ما صرّح به في قوله[3]:

مولاي خُذها منحةً فذّةً ... ولفظُها عن مقصدي مُعربُ

فبوركَ العقدُ لمن نالهُ ... فوقَ السّحابِ ذيلَهُ يسحبُ

وختام ابن فُركون قصائده على هذا النّحو من التّفنّن يشير إلى مقدرته على النّسج من غير تعب منذ بداية قصيدته إلى نهايتها، وإن بدا مُتكلّفًا أحيانًا.

ومع أنّه بذلَ كلّ ما في وسعه، فإنّه لم ينِ يشير إلى تقصير مدحه عن بلوغ الغاية في إيفاء الممدوح حقّه، ومن هذا ما قاله «عند وصول البشير من السّيّد الأمير أبي الحسن ـ وصل

---

(1) انظر: ابن فركون: الديوان، ص379.
(2) السابق، ص381.
(3) السابق، ص109.

الله عزّ ـ بدخوله جبل الفتح عصمه الله»(1)، وذلك عام (817هـ)(2):

علي أنّني قصّرتُ في وَصْفِكَ الذي ... هُوَ البَحْرُ لا يُفْنَى على كَثْرَةِ النَّضْحِ
إذا الله قَدْ أثْنى عَلَيْكَ فَما الذي ... يُوَفّيهِ عَبْدٌ مِنْ عَبيدِكَ بالمَدْحِ؟

وخلاصة القول أنّ ابن فُركون قد نظم شعره في مُطوّلات ومقطوعات ونُتف، وكان أكثر نظمه من القصائد، التي اتّخذت شكل القصيدة العربيّة التّقليديّة، مع محاولته الخروج على هذا الشّكل بما نظمه من مُخمّسات ودوبيت ومُوشّح.

وأحكم ابن فُركون بناء قصائده وفق بُنى أربع أساسيّة، وبرز في كلّ واحدة اهتمامُه البالغ، فاعتنى بمطالع قصائده وجوّدها وراعى فيها مناسبة القول، وركّز في مقدّمات قصائده على موضوع الغزل لما له من أثر واضح في نفوس المُستمعين، ومع ذلك لم تكن مُقدّماته تقليديّة تمامًا، إنّما كان يترجّح فيها بين مذهب أهل البادية حينًا ومذهب أهل الحاضرة حينًا آخر، كما أنه استغنى أحيانًا عن مُقدّمته، فباشر موضوعه مباشرة.

وبرع إلى حدّ كبير في تخلّصه من المُقدّمة إلى الغرض الرّئيس، وكان مذهبه مذهب المُحدَثين في الانتقال إلى غرضه الرّئيس وهو المدح، ثمّ ختم قصائده بخواتيم دعا فيها للملك أو افتخر فيها بشاعريّته.

اعتنى بقصائده واهتمّ بصياغتها وسَبْكها، غير أنّه وقع في أسر المدحة فعمد إلى التّكرار، حتّى كادت بعض مدائحه أن تكون نسخًا مكرّرة على الرّغم من محاولته التّنويع، وقد تلطّف وسلك كلّ سبيل ليخرج مدائحه في أبهى حلّة، تليق بممدوحه الملك الشّاعر.

2 - اللّغة الشّعريّة

اللّغةُ ركنٌ أساسيٌّ في تكوين القصيدة، وهي وسيلة الشّاعر في التّعبير، وبقدر ما يعي

(1) ابن فركون: الديوان، ص108.
(2) السابق، ص183.

الشّاعر خصائص لغته تكمن قدرته على بلوغ معانيه وتبليغها، ويشكّل اللّفظ أساس لغة الشّاعر، وقد أدرك النّقّاد العرب القدماء أثره في بناء القصيدة، فاشترطوا «أن يكونَ سَمْحًا، سَهْلَ مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونقُ الفصاحة، مع الخلوّ من البشاعة»[1]، وللشّعراء كما يرى ابن رشيق (456) «ألفاظٌ معروفة، وأمثلة مألوفة، لا ينبغي للشّاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها»[2].

والألفاظ مادّة الكلام، فيها تجسّد المعاني والفِكَر والأخيلة، وهي وسيلة الشّاعر إلى التّعبير عمّا في نفسه من مشاعر وعواطف، وبالقدر الذي تأتي فيه ألفاظ الشّاعر متناسقة متآلفة من غير نبوٍّ أو تفكّكٍ أو تكلّفٍ يكون الحُكم على شاعريّته بالأصالة والصّدق، فمهمّة الشّاعر أن يوفّر للألفاظ جوًّا من الألفة والتّوافق والالتئام فيما بينها. وهذا يقود بالضّرورة إلى التّعريج بالحديث إلى قضيّةٍ شغلت حيّزًا واسعًا في كتب النّقد، ألا وهي قضيّة «اللّفظ والمعنى».

انتصر فريق من النّقّاد العرب القدامى للّفظ عندما قرّر الجاحظ (255) أنّ «المعاني مطروحةٌ في الطّريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ والبدويُّ والقرويُّ والمدنيُّ، وإنّما الشّأنُ في إقامة الوزن، وتخيُّر اللّفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطّبع وجودة السّبك»[3]، ورأى أنّها مُمتدّة واسعة على عكس الألفاظ فإنّها محصورة محدودة، فـ «المعاني مبسوطةٌ إلى غير غاية، ومُمتدّةٌ إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورةٌ معدودة، ومُحصّلةٌ محدودة»[4]، ووافقه بعد ذلك أبو هلال العسكريّ (395) في مذهبه حيث قال: «وليس الشّأن في إيراد المعاني؛ لأنّ المعانيَ يعرفها العربيُّ والعجميُّ والقرويُّ والبدويُّ، وإنّما هو في جَودة اللّفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه،

(1) قدامة: نقد الشّعر، ص28.

(2) ابن رشيق: العمدة، 257/1.

(3) الجاحظ، عمرو بن بحر (255): كتاب الحيوان، تحقيق عبد السّلام مُحمّد هارون، دار الجيل-بيروت، 1996/1416، 8ج، 131/1-132.

(4) الجاحظ: البيان والتّبيين، تحقيق وشرح عبد السّلام مُحمّد هارون، دار الجيل-بيروت، د.ط، 4 أجزاء، 76/1.

مع صحّة السّبك والتّركيب، والخُلوّ من أَوَدِ النّظم والتّأليف، وليس يُطلب من المعنى إلاّ أن يكون صوابًا»[1].

وهناك فريق من النّقّاد ومنهم ابن قُتيبة (276) انتصر للمعنى ولم يعتدّ باللّفظ إلاّ بشرف معناه، ولم يرفع الشّكل إلاّ بنُبل مغزاه[2]. والرّأي هو موافقة الفريق الأوّل في ضرورة العناية باللّفظ وجودة السّبك، وموافقة ابن قتيبة على شرف المعنى ونبل المغزى؛ لأنّ الأدب الجيّد يستوجب تلاؤمًا وتوافقًا بين اللّفظ والمعنى، واهتمامًا بهما على حدّ سواء بحيث يتّصفان ويتوازنان، فلا يتقدّم المعنى ولا يتأخّر اللّفظ، وبهذا يتحقّق التّلاحم بين اللّفظ والمعنى من غير فصل بينهما، وهذا مذهب ابن رشيق الذي يرى أنّ «اللّفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الرّوح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوّته»[3].

وجملة القول في هذا الأمر أنّ يوازن الشّاعر بين اللّفظ والمعنى، وأن يقوم بانتقاء الألفاظ المناسبة للمقام، الملائمة للموضوع؛ ومن ثمّ يعمل على إكساب تلك الألفاظ أثواب المعاني، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجُرجانيّ (481) في «دلائل الإعجاز»[4]. وهذا يعني أنّ الكلمة مفردةً ليست قادرة على بعث الحياة في النّصّ الشّعريّ، وإنّما يرجع ذلك إلى طبيعة العلاقات القائمة بين المفردات المتجاورة، وما يتحقّق بينها من تآلف وانسجام، يضفي على النّسيج اللّغويّ ظلالاً فنّيّة، ويمنحه إيقاعات موسيقيّة تزيد من روعته وإبداعه.

ولغة ابن فُركون هي لغة الشّعر الأندلسيّ في مرحلة القرن التّاسع الهجريّ، ذات الخصوصيّة والطّابع المميّز، «فهي تلك اللّغة المرتبطة بتجربة خاصّة، تختلف عن سابقاتها، من حيث طبيعة التّكوين الثّقافيّ لأصحابها من جهة، ومن حيث الظّروف النّفسيّة والتّاريخيّة السّياسيّة من جهة أخرى»[5].

---

(1) أبو هلال العسكريّ: كتاب الصّناعتين، ص63-64.
(2) انظر: ابن قتيبة: الشّعر والشّعراء، ص21، وما بعدها.
(3) ابن رشيق: العمدة، 252/1.
(4) انظر: الجرجانيّ، عبد القاهر بن عبد الرّحمن (471): دلائل الإعجاز، تحقيق وشرح محمّد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة – مصر، 1400/1980، ص13.
(5) الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص382.

وتختلف ألفاظ ابن فَركون بين الرّقّة والسّهولة، والجزالة والقوّة بحسب الغرض الذي ترد فيه، وما تظمه الشّاعر من شعر في الغزل والإخوانيّات والمديح النّبويّ تصدق عليه صفات البساطة والسّهولة، والبعد عن غريب اللّفظ، والميل إلى الرّقّة والسّلاسة، ومنه هذه الأبيات الغزليّة التي تنساب فيها الألفاظ رقّةً وسهولة، والتي قالها وقد تذكّر عهده بالحبيبة، فراح يُنشد[1]:

قد كان طيبُ الوصلِ لمحةَ بارقٍ ... لمعًا عليها بعد ذلك آفا

عهدي بها والسِّحرُ من أجفانها ... كُحْلُ النُّهى عن صبرِها يَنهاها

عهدي بها والوردُ من وجناتها ... باللّحظِ يُمنَعُ من يرومُ جناها

عهدي بها والطِّيبُ يُذكي عَرفَهُ ... منها فأحيا النَّفسَ إذ حيّاها

تحكي الحدائقَ نضرةً وشمائلًا ... فلذاك أصبو إذ تهبُّ صباها

تحكي الكواكبَ رفعةً وتهلُّلًا ... فأبيتُ من كَلَفٍ بها أرعاها

فألفاظ هذه الأبيات «الوصل، السّحر، الورد، الطّيب، تهبّ، تحكي،..»، سهلة بسيطة معبّرة، عمد الشّاعر فيها إلى التّكرار «عهدي بها، تحكي»، مؤكّدًا تذكّر ما كان من الحبيبة، ومحقّقًا نغمًا موسيقيّة تتردّد في النّصّ، ممّا زاد من وقعها في النّفس، فأصبحت أكثر ارتباطًا بمعاناته الشّعوريّة.

ولإخوانيّاته السّمة ذاتها، ومنها قوله في الجواب على قصيدة، أرسلها إليه قاضي الجماعة الشّريف أبو المعالي الحسنيّ[2]:

أهلًا بالروضِ مسروبِ الطائرِ الغرد ... بما انتحى نهرُهُ من سيفه الفرد

فهزَّ نفسي جناحيهِ وخفقَهما ... حثَّ السابقِ للأقصى من الأمدِ

عهدي به وأرانا أكؤسًا عاتيةً ... تقسِّمُ الرّاحَ بين الرُّوحِ والجسدِ

---

(1) ابن فَركون: الدّيوان، ص168.

(2) السّابق، ص294.

ولحظةٌ يرتعي المرعى المخضوب بها   وجنةٌ يزدهي بالحَلْي والجيد

تخيّلته حين أبدى لي بدائهه   أنّي زهيتُ بعقدٍ منه منعقد

أو أنّ عارفةً والى الشريف بها   فأغنيتُ أملي بالمجد والحمد

مالي وللروض أستهدي أزاهره   والزُّهر في أُفق العلياء طوعُ يدي

وإذا كانت السّهولةُ والرّقّة صفتي شعره الغزليّ والإخوانيّ، فإنّ القوّةَ والجزالة سمتا شعره في تصوير الحرب، وما رافقها من روح حماسيّة، كما في قوله في عيديّة الأضحى عام (819)، وهي آخر قصيدة أنشدها ابن فُركون بين يديْ مليكه بلفظه[1]:

ومذْ خفقتْ أعلامُ نصرك أخفقتْ   مساعٍ رجائيّاتٌ للعدوّ مطامعُ

فخاف لدى حُمْر البُنود زحائفٌ   وعاين أذى زُرْق النُّصول وخاشعُ

مواقفُ عزٍّ من تطلُّعِ الشّمسُ عندها   نجومًا لها في الدّارعين مطالعُ

كذلك بيضُ الهند وهي جداولٌ   مصارفُها للمعتدين مصارعُ

وقد حلّتْ عُوجُ القِسيّ منازلٌ   بها ينتحي الحربُ العوانُ ونازعُ

إذا خيّمتْ فوق الرُّبا فأهلّةٌ   لها فوق أجرام السّحاب مطالعُ

وتأتي ألفاظ هذه الأبيات «خفقت، أخفقت، مطامع، البنود، النّصول، الدّارعين،...»، وهي ألفاظ جزلة قويّة لتصوّر الحرب بما يناسبها من قوّة وشدّة، ولتنقل إلى القارئ الإحساس بما في الحرب من حركة وصوت.

تنوّعت ألفاظ ابن فُركون بين الرّقّة والجزالة، وناسبت الأغراض التي استُخدمتْ فيها في هذه النّصوص، ونصوص الدّيوان الكثيرة، وهذا كلّه يؤكّد أنّ لكلّ لفظ من ألفاظ اللّغة وقعًا خاصًّا على أذن السّامع، وتأثيرًا في نفسه، وقد تنبّه النّقّاد العرب إلى مثل هذا، فقال ابن الأثير (637): «اعلمْ أنّ الألفاظ تجري من السّمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص375-376

الجزْلة تتخيّل في السّمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرّقيقة تتخيّل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج»[1].

جاءت مفردات ابن فركون في شعره تحمل معانيه وفكره، وتعبّر في قوالبها التّركيبيّة عن مشاعره وعواطفه، فبرزت من خلالها مشاعر الإعجاب بالممدوح، ومن هذا قوله يمدح يوسف الثّالث[2]:

وإنْ غاضَ مِنْ جدواهُمُ نيلُ نائلٍ ... فَذلكَ البَحْرُ الّذي فاضَ مدُّهُ

وإنْ دَرَجوا قدْ خلّفوا مِنكَ ناصرًا ... هُدا الدّينِ للنّصْرِ العزيزِ يُعِدُّهُ

ليعْلَمَ أهلُ الشِّرْكِ أنّكَ فيهمُ ... تُجاهدُ حتّى يُوهِنَ الكُفْرَ جَهْدُهُ

وإنَّ العُلا مِنْ بَعْدِهِمْ بكَ شُيّدتْ ... مَعالِمُها والفتحُ أُنْجِزَ وَعْدُهُ

وكما عبّر ابن فُركون بهذه اللّغة عن الإعجاب والحبّ والشّعور بالرّضا عبّر بلغة أخرى عن الغضب والسّخط والنّقمة، مشحونة بالحدّة والتّوتّر والانفعال، وهذه الصّفة تعيّن بها لغته في الهجاء، ومنها قوله يهجو المدعوّ يحيى، وهو واحد من الذين أسهموا في أحداث جبل الفتح عام (817)[3]:

ويحيى الّذي قدْ فرّقَ اللهُ جَمْعَهُ ... فَفَرَّ إلى أقصى البلادِ وفرّطا

وكانَ لمَوْلاهُ حُقوقٌ عظيمةٌ ... عليْهِ وَجَلّتْ أنْ تُضاعَ وتُغْمَطا

ولكنْ منْ تُرْضيهِ أفعالُ غَدْرِهِ ... إذا رامَ أنْ يَرْضى [بها] اللهُ أسْخَطا[4]

فلا أمَلَ مِنْ قَبْلُ إلاّ مُخيّبٌ ... ولا عَمَلَ مِنْ بعْدُ إلاّ وأُحْبِطا

---

(1) ابن الأثير، نصر الله بن محمّد (637): المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، مصر، 1358/1939، جزآن، 178/1.

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص135.

(3) السّابق، ص189.

(4) عجز البيت مكسور في الأصل؛ وأضفت (بها) ليستقيم الوزن، وصحّحه محقّق الدّيوان في الحاشية: «إذا رام أن يرى رضا الله تسخّطا».

فلله غادرته حالة واهي القوى ... وفي وحلٍ من غدره متورطا

وأظهرَ تقوى الله حينًا ولقد غدا ... لئيمًا نميمًا قائل الرأي أمعطا

وخادع بالرُّجعى إليه فمنهما ... تورّط في نار الجحيم تورّطا

نقلت مفردات ابن فُركون في هذا النّصّ ـ ومن خلال سياقاته التّركيبيّة ـ مشاعرَ الغضب والسّخط على المهجوّ، وأبرزت سوء نواياه، وقبح أفعاله.

وتُبيّنُ قراءةُ شعر ابن فُركون أنّ ألفاظه واضحة عمومًا، بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، في مختلف موضوعاته التي نظم فيها القول، غير أنّ الفهم قد يقصر أحيانًا عن معاني عدد من أبياته لما يُصادف من غرابة ألفاظ استخدمها، وإذا كان في شعره ألفاظ غريبة، فإنّها ليست كثيرة أو كثيفة؛ بل جاءت قليلة متناثرة، ومن ذلك قوله عندما وصف كرَمَ الملك، واستنكر أن تُنسب يمينُه إلى الغيث المُلِثّ، فالغيث لا يُجاريها في الجود والعطاء، فإذا عُرِف أنّ معنى «المُلِثّ» هو المُداوم الذي لا ينقطع[1] زالت غرابة هذه الكلمة، وفُهِم معنى قوله[2]:

أتُعزى إلى الغيث المُلِثّ يمينُهُ ... وما ساجلتها في ندى وتكرُّمِ

وقوله في بيت آخر[3]:

وإنْ يحمل الغيثُ المُلِثُّ بجوده ... فجودك الساقَ المسيطة بمثله

وقد وردت في شعره ألفاظ غريبة أخرى من مثل: «أهطعَ»[4]، «المُتَخمّطُ»[5]،

---

(1) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ل ث ث).

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص123.

(3) السّابق، ص124.

(4) انظر: السّابق، ص142. أهطع: أقبل على الشّيء ببصره فلم يرفعه، أو أقبل مُسرعًا خائفًا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (هـ ط ع).

(5) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص188. المُتخمّطُ: شديدُ الغضب، الذي له ثَورةٌ وجَلَبة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (خ م ط).

«أَمْعَطْ»[1]، «سَجْسَجٌ»[2]، جاءت موزّعة في مواطن من ديوانه.

والوقوفُ على ألفاظ غريبة في شعر ابن فُركون أمر طبيعيٌّ، وذلك لامتداد الزّمن بيننا وبينه، فقد سقطت ألفاظ من الاستعمال مع الأيّام، ومع ذلك فإنّ السّمة العامّة لشعره هي وضوح مفرداته، وهذه سمة يشترك فيها مع شعراء عصره[3]، فهي عامّة في أشعار الغرناطيّين، الذين دُرست أشعارهم كابن الجيّاب (749)[4]، وابن زمرك (796)[5]، ويوسف الثّالث (820)[6].

وجاءت ألفاظ ابن فُركون عربيّة فصيحة، غير ما ظهر فيها من ألفاظ مُعرّبة وهي قليلة معدودة تفرّقت بين صفحات الدّيوان الكثيرة، ومنها كلمة «بَنْد»، في قوله عندما شبّه الضّحى بوجه الملك يوسف الثّالث، وشبّه حُمرة الفجر بأعلامه الحمراء الخفّاقة[7]:

كَـأَنَّ الضُّحى وَجْـهُ الخَـلِيفَةِ يُوسُـفٍ ... وَمـا احْـمَـرَّ فِيهِ مِـنْ سَنـا الفَـجْرِ بَـنْـدُهُ

ووردت في شعره كلمات مُعرّبة أخرى، من مثل: «فِرِنْد»[8]، «إِبْرِيز»[9]، وهما من

---

(1) انظر: ابن فركون: الديوان، ص189. أمعط: خبيث. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (م ع ط).

(2) انظر: السابق، ص128، و194. سَجْسَجٌ: ظلّ سجسجٌ: مُعتدل لا حرّ فيه ولا برد. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (س ج س ج).

(3) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص390.

(4) انظر: النّقراط: ابن الجيّاب، ص338.

(5) انظر: الحمصي: ابن زمرك، ص187.

(6) انظر: يارجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص179.

(7) ابن فُركون: الدّيوان، ص134. والبَنْد كلمة فارسيّة معناها العَلَم الكبير. (انظر: العنيسيّ، طوبيا: تفسير الألفاظ الدّخيلة في اللغة العربيّة مع ذكر أصلها بحروفه، دار العرب – القاهرة، 1964–1965، ص13). وتكرّرت هذه الكلمة في الدّيوان بصيغتي المفرد (بَنْد)، والجمع (بُنود) في الصّفحات 152، 158، 209، 215، 217، 222، 247، 362، 376.

(8) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص134، 337، 343. والفرند كلمة فارسيّة مُعرّبة، معناها وشي السّيف وجوهره وحليته. (انظر: العنيسيّ: تفسير الألفاظ الدّخيلة، ص51، وشير، إدي: كتاب الألفاظ الفارسيّة المُعرّبة، دار العرب–القاهرة، ط2، 1987–1988، ص119).

(9) انظر: السّابق، ص349، 353. والإبريز كلمة يونانيّة مُعرّبة، وقد يُحتمل أن تكون فارسيّة، ومعناها الذّهب الخالص. (انظر: العنيسيّ: تفسير الألفاظ الدّخيلة، ص1، وشير: كتاب الألفاظ الفارسيّة المُعرّبة، ص6).

الكلمات التي دخلت اللّغة العربيّة، وعُرِّبَتْ واستعملها العرب استعمالهم للكلمات العربيّة.

ومعجمُ ابن فُركون اللّغويّ غنيٌّ ومتنوّعٌ بالمفردات، نَهَلَ موادّه من موارد عدّة، فصدر عنها بكثير من مفردات الحياة والدِّين والطّبيعة والأدب والتّاريخ، ومن خلاله تبرز ثقافته الواسعة، واطّلاعه على كثير من المصادر، التي ترفد شعره بعناصر لغويّة حيويّة، وأوّل مصادره القرآن الكريم، فقد استوحى ابن فُركون من القرآن الكريم كثيرًا من معانيه وألفاظه، ووظّفها بما يخدم موضوعه، ومن هذا قوله يمدح مليكه ووليّ نعمته يوسف الثّالث، وقد تدفّق الخير من كفّه ليغمرَ بنيلِ جوده السّائلين والمُحتاجين، فيغنيهم عن سؤال غيره[1]:

إذا فاض نيلُ الجودِ مِنْ كفِّ يوسفٍ   كفى نيلُهُ العافينَ أَنْ يهبطوا مصْرا

وفي قوله هذا إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[2]. ومن هذا أيضًا ما جاء في قصيدته، التي قالها في موسم الحجّ من عام (818)، وفيها تضرّع إلى الله أن ينال عفوه ورضاه، ويحظى بالجنّة[3]:

لعلّي أَحظى بالجِنانِ كرامةً   وقَدْ زُحزِحتْ عنّي جهنَّمُ هلْ مِنْ مَزيدِ

فقد اقتبس ابن فُركون مفردات عجز هذا البيت، من الآية الكريمة ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ ﴾[4]، ليبيّن شدّة ذلك اليوم الذي يُحاسب فيه الله خَلْقَه، فيلقي في جهنّم مَنْ ضلّ عن سبيل الهداية.

وفي إحدى إخوانيّاته التي راجع فيها أبا القاسم بن قُطبة على قصيدة أرسلها إليه، قال مُشيرًا إلى براعة أبي القاسم في النّظم، مُضمّنًا قوله مفردات من سورة الشّعراء[5]:

[illegible]   مــن يــراعــك انــفــلــق

(1) السّابق، ص106.
(2) البقرة، 61.
(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص325.
(4) ق، 30.
(5) ابن فُركون: الدّيوان، ص317.

في هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ ﴾[1].

وقال في واحدة من أجمل مدائحه، التي رفعها إلى مولاه الملك يوسف[2]:

أُحِبُّ مِنَ الأَسْمَاعِ مَا فِيكَ نَظْمُهُ   وَمَا البِرُّ إِلاَّ أَنْ أَرَى مِنْهُ مُنْفِقَا

وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[3]. كما ردّد ابن فُركون في عدد من قصائده عددًا من المفردات مع نعوتها، وردت في القرآن الكريم، من مثل: «نَسْيًا مَنْسِيًّا»، في قوله[4]:

وَلَمْ أَنْسَ لَمَّا اسْتَشْرَفَتْ قِبَابُهَا   وَقَدْ غَدَتْ نَسْيًا فِي المَعَاهِدِ مَنْسِيَا

و«أَمْرًا مَقْضِيًّا»، في قوله[5]:

وَأَجْعَلُ مَثْوَى زَنْدِهِ مُتَوَجِّهًا   إِذَا شِئْتُ أَمْرًا مِنْ مَرَامِي مَقْضِيَا

و«نَعِيم مُقِيم»، في قوله[6]:

طَالَمَا كَانَ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ   وَعَلَيْهِ مِنْ عِزِّ أُنْسِكَ حَارِسْ

وقوله[7]:

وَأَنَا الآنَ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ   بَعْدَ نَصْبٍ قَدْ مَسَّنِي وَعَذَابِ

وظهر أثر القرآن الكريم في مفردات ابن فُركون في مُحاكاته الفاصلة القرآنية، كما في

---

(1) الشعراء، 63.

(2) ابن فُركون: الديوان، ص203.

(3) آل عمران، 92.

(4) ابن فركون: الديوان، ص319. ورد هذا في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾، مريم، 23.

(5) ابن فركون: الديوان، ص320. ورد هذا في قوله تعالى: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾، مريم، 21.

(6) السابق، ص185. ورد هذا في قوله تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾، التوبة، 21.

(7) السابق، ص263.

قوله في أبيات ارتجلها، راجع فيها صديقه الكاتب أبا القاسم بن قُطبة، ومنها[1]:

هـذا هُـوَ النَّظْمُ الذي قَصَّروا عَـنْـهُ ولَـمَّـا يَـقْـطَـعُـوا وادِيَـهْ
خَـنْـسُوقُهـا الشُّـقـيـرُ نـادي بِـهِ ولَـوْ غَـدا يَـدْعُـو لَـهـا نـادِيَـهْ

صاغ ابن فُركون قوافي هذه الأبيات، مُحاكيًا الفاصلة في آيات من سورة العَلق، في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾[2].

ولم يصدر ابن فُركون في اختياره هذه المفردات عن عشوائيّة منه، إنّما كان اختياره مناسبًا للمعاني العامّة للأبيات التي وردت فيها. وهذه المفردات التي تشيع في شعره كثيرةٌ، يجمعها الحسّ الإسلاميّ العامّ في غرناطة، الذي جعل منها مفردات عامّة ومعروفة، ومُتداوَلة بين النّاس.

وكما نَهَلَ ابن فُركون من منهل القرآن الكريم نَهَلَ كذلك من منهل الحديث النّبويّ الشّريف، فسعى ابن فُركون نحوه ينهل من مَعينه الثّرّ ما يُعينه على أداء معانيه، وما يساعده على إيصال فكره، فظهرت في ثنايا قصائده مفردات الحديث النّبويّ الشّريف، ومنه قوله[3]:

دَعْ ما يَريبُ فإنّني أصْبَحْتُ مِنْ رَيْبِ الحَوادِثِ تَحْتَ ظِلٍّ أوْرَفِ

وفي هذا البيت من المفردات «دع ما يريب»، ما يوحي بالحديث النّبويّ: (دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ)[4]. وكما استخدم مفردات الحديث النّبويّ الشّريف استخدم كذلك مُصطلحات علوم الحديث، من مثل: «أحاديث صحيحة» و«مُرْسَلة»، كما في قوله[5]:

وَعَنْكَ أحاديثُ الهِباتِ صَحيحَةٌ عَلَيْكَ غَدَتْ وَقْفًا وَفي النّاسِ مُرْسَلَة

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص302.
(2) العلق، 18 – 17.
(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص129.
(4) النّسائي، أحمد بن شُعيب (302): سُنن النّسائي، تحقيق مكتب تحقيق التراث الإسلامي، دار المعرفة– بيروت، ط4، 1997/1418، 9ج، 732/8.
(5) ابن فركون: الدّيوان، ص103. كرّر الشّاعر مُصطلحي «الصّحيح والمرسل» غير مرّة، انظر: ابن فركون: الدّيوان، ص174، 204، 206، 225، 264، 266.

وأشار في أبيات عدّة إلى مُصطلحات أخرى كالمُسلسل[1]، والمُسند[2]، والمتواتر[3]، والرّواية والسّماع[4]. غير أنّه لم يستفد من زاد الحديث النّبويّ الشّريف استفادته من ألفاظ القرآن الكريم، وما ظهر منه في شعره كان أقلّ ممّا ظهر من القرآن الكريم، ولم يخرج استخدامه عن عدد محدود من الكلمات والمُصطلحات، فوقع في التّكرار.

ولم تكن مفردات القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف هي الوحيدة البارزة في شعره؛ فقد ظهرت فيه مفردات من أمثال العرب وأقوالهم، وكان هذا من خلال تضمين أبياته عددًا من الأمثال، كما في قوله[5]:

إذا ما طُـبا الأعْـراب يـوْمَ حليمةٍ   تَـصُـولُ فأسْـيافُ الجِـهادِ تُطُولُها

وفي هذا البيت ما يُشير إلى المثل المعروف «ما يومُ حليمة بسرٍّ»[6]، الذي يُضرب مثلاً للمشهور المُتعالم. وفي قوله[7]:

لا كـالذي لـمْ يـفْـهْ يـوْمًـا بـمَـكْرَمةٍ   ولـمْ يـجِـدْ قـطُّ إلاّ وَعْـدَ عُـرْقُـوبِ

وفيه إشارة إلى المَثَلَيْن «أخْلَفُ من عُرْقوب»[8]، و«مواعيدُ عُرقوب»[9]، اللّذين يُضربان مثلاً لمَن يخلف وعده ولا يفي به.

ووجد ابن فُركون في التّاريخ وأحداثه ووقائعه زادًا يُعينه على أداء معانيه، فظهرت في شعره مفردات كثيرة ذات بُعْد تاريخيّ، ومن هذا قوله[10]:

---

(1) انظر: ابن فركون: الدّيوان، ص174، 230.

(2) انظر: السّابق، ص184، 206، 225.

(3) انظر: السّابق، ص200.

(4) انظر: السّابق، ص204، 238، 264، 266.

(5) السابق، ص222.

(6) الميداني: مجمع الأمثال، 272/2.

(7) ابن فركون: الدّيوان، ص380.

(8) الميداني: مجمع الأمثال، 253/1.

(9) السابق، 311/2.

(10) ابن فركون: الدّيوان، ص163. ومُضمّنها في هذا البيت هي مدينة صنعاء.

رَمَى دارَةَ الشَّعثاءِ أحسنَ بِنارِهِ ... بِما قَدْ رَمَى سَيفُ بنُ ذي يَزَنٍ صَنْعا

أشار ابن فُركون في هذا البيت إلى حكاية سيف بن ذي يزن، الذي لجأ إلى كسرى من أجل مساعدته على طرد الأحباش من اليمن وصنعاء، فجهّزه كسرى بسفائن مملوءة بالرّجال، وشبّه ابن فُركون صنيع يوسف مع الشّعيد بصنيع كسرى مع سيف بن ذي يزن[1]. وبالإضافة إلى هذا فقد جاءت مفردات كثيرة تشير إلى أحداث تاريخيّة أخرى في مواضع عدّة من الدّيوان[2].

وديوان ابن فُركون غنيّ بأسماء الشّخصيّات التّاريخيّة، ذات البُعد الدّينيّ أو السّياسيّ، كشخصيّة النّبيّ يوسف عليه السلام [3]، والخلفاء العبّاسيين، وملوك اليمن والرّوم وبلاد فارس[4].

وفي ديوانه إشارات كثيرة إلى الشّخصيّات الأدبيّة، كالخليل بن أحمد الفراهيديّ (175)، الذي كنّى عنه بـ«صاحب العين» في قوله[5]:

وَما ضَمَّنتُ إلّا أحاديثَ عُلْقَةٍ ... أُبيحَ لها مِنْ صاحِبِ العَيْنِ شارِحُ

وقد أشار إلى كثير غيره في مواضع عدّة من ديوانه[6]، وفي هذا تظهر قراءة ابن فُركون للتّاريخ قراءةً واعيةً، صدر عنها بكثير من المفردات، التي أعانته على أداء معانيه.

وعمد ابن فُركون إلى علوم اللّغة العربيّة: نحوها وصرفها وعروضها وبلاغتها، فاستخدم مُصطلحاتها، كـ«حركات الرّفع والبناء الفتح»، كما في قوله يصف سفن الملك يوسف[7]:

وأرسلْتَ فوقَ البحرِ أجفانَكَ التي ... بها حَرَكاتُ الرَّفعِ تُبنى على الفَتحِ

---

(1) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص163، حاشية 111.
(2) انظر: السابق، ص185، 200، 218.
(3) انظر: السابق، ص130، 221، 269، 373.
(4) انظر: السابق، ص103، 146، 151، 179، 196،194، 217، 273، 365، 377، 380.
(5) السابق، ص110.
(6) انظر: السابق، ص122، 155، 156، 183، 255، 273، 291، 312، 338، 352.
(7) السابق، ص181.

وقد استخدم هذه المفردات وغيرها كثيرًا، وجاءت موزّعة في مواطن كثيرة من الدّيوان[1].

ووجد ابن فُركون في الفَلَك والعُلْويّات كثيرًا من المفردات، التي تُعينه على إيصال معانيه، من هذا استخدامه أسماء النّجوم كالنّثرة والشّعرى، كما في قوله[2]:

فَسَفَرْتُ بِمَاهِي نَثْرَةَ الأُفْقِ بَهْجَةً وَشِعْرٌ بِمَاهِي فِي مَحَاسِنِهَا الشِّعْرَى

واستخدم ابن فُركون أسماء أخرى كثيرة غير هذين الاسمين، ظهرت واضحة في كثير من أبياته[3].

جاء معجم ابن فُركون اللّغويّ غنيًّا بالمفردات المتنوّعة، التي شملت عددًا من العلوم والمعارف، فكشف هذا عن جانب من جوانب عصره الفنيّ بالمعارف والثّقافات، فعجّ ديوانه بما يشي بسعة ثقافته، واطّلاعه على معارف عصره، وما سبقه من عصور. غير أنّه على الرّغم من تنوّع مفرداته وتعدّدها ـ قد وقع في التّكرار عندما راح يكرّر مجموعة من الألفاظ التي ارتبطت بموضوع واحد، من مثل: «هنيئًا، بُشرى، الغيث، الهُمام، هام، الهام»، كما كرّر مجموعة من التّراكيب، من مثل: «أقامَ صَغاه»، «فتّقتها بُشرى»، «جُود يَمينه»، «هامَ الفُؤاد». ولعلّ السّبب في تكراره هذا أنّه وجد في هذه المفردات والتّراكيب قُدرةً على التّعبير عن معانيه، فآثر تكرارها في كلّ مرّة عَرَضَ له فيها أحدُ هذه المعاني، التي يستوجب وجود مثل هذه المفردات والتّراكيب.

كرّر ابن فُركون هذه المفردات والتّراكيب في عدد من قصائده، فجاءت متناثرة في كلّ قصيدة مرّة أو مرّتين، بيد أنّه عمد كثيرًا إلى تكرار مفردة أو تركيب في قصيدة واحدة في عدد من الأبيات المتلاحقة؛ فقد بدأ بيتًا في إحدى قصائده بقوله: «وما»، وكرّرها في

(1) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص109، 140، 155، 333، 350، 364، 374.

(2) السّابق، ص106. وجاء في مُحكم التّنزيل قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾، النّجم، 49.

(3) انظر: السّابق، ص142، 144، 190، 212، 227، 256، 274، 285، 288، 294، 299، 308، 330، 310، 312، 337، 339، 374.

صدور الأبيات اللاّحقة أربع عشرة مرّة، وهذا في قوله[1]:

وما هِمْتُ حالَ البُعْدِ إلاّ لأنّها قلوبٌ تلاقَتْ والجُسومُ نوازحُ

وعمد إلى ذلك أيضًا في قوله[2]:

كأنّ النّقا أُلْقِيَتْ نحوَنا جهابٌ إلى الرّجْم قد قَبّها

فقد ذكر بعد هذا البيت أحد عشر بيتًا، يبدأ كلّ واحد منها بـ«كأنّ». وممّا كرّره بالطّريقة نفسها «كأنّ، كأنّي به، كان، وهل، حيث، يا، كم، هذي، لكان» في مواقع عدّة من ديوانه. ولعله كان يسعى من وراء هذا التّكرار إلى ما يحقّق قيمة موسيقيّة واضحة في أبياته، غير أنّ كثرته قد خرجت به عن هذه الغاية.

ولم يكن تكرار ابن فُركون يقف عند حدّ المفردات أو التّراكيب، إنّما تعدّاه لأشطر أبيات كاملة؛ فقد كان يكرّر أشطرًا بعينها من دون تغيير، كما في قوله يمدح الملك يوسف الثّالث في أوّل قصيدة في الدّيوان، رفعها الشّاعر إلى الملك غداة بيعته[3]:

أَمَوْلايَ لا يَأتي بوصفِكَ شاعرٌ ولو أنّ قُسًّا فيه أعمَلَ مِقْوَلَهْ

فقد كرّر الصّدر نفسه في قصيدة أخرى حين أمرَ له المَلكُ «أيّده الله بتنفيذ الغزاة بحضرته العليّة، وسائر البلاد النّصريّة، وأبطأ الظّهير الكريم بذلك في العلامة»[4]، فقال[5]:

أَمَوْلايَ لا يبقى بوصفِكَ شاعرٌ ولو أنّه الطّائيُّ والمتنبّيُ

وقد سلك ابن فُركون هذا السّبيل في مواقع عدّة من ديوانه، فكرّر أشطرًا بألفاظها[6]،

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص110.
(2) السّابق، ص190.
(3) السّابق، ص104.
(4) السّابق، ص124.
(5) السّابق، ص125.
(6) انظر: السّابق، ص105 و173، 111 و155، 136 و152، 142 و158، 198 و215، 207 و210، 242 و386، 265 و269، 214 و340.

وكرّر أخرى بتغيير بعض ألفاظها[1].

وإذا كان ابن فركون قد كرّر أشطر أبيات في مواطن من ديوانه، فإنّه لم يعمد إلى تكرار أبيات كاملة إلاّ مرّة واحدة عندما كرّر بيتًا كاملاً في قصيدتين، قال في الأولى يمتدح فيها قطعة شعر، وصلته من الفقيه أبي بكر بن الأيسر عام (799)[2]:

فَأَبْدَى مُحَيَّاهَا لِيَ البِشْرَ وَالرِّضَا ... وَوَافَتْ عَلَى حُكْمِ السَّعَادَةِ بِالبُشْرَى

وَقَدْ رَاقَ لَوْنُ الحِبْرِ فَوْقَ بَيَاضِهَا ... كَمَا رَاقَ لَوْنُ الخَالِ فِي وَجْنَةِ العَذْرَا

وكرّر البيت ذاته في وصف قصيدة له، رفعها إلى الملك يوسف الثّالث غداة بيعته، فقال[3]:

فَدُونَكَهَا تُهْدِي الهَنَاءَ صَبِيحَةً ... مُهَلِّلَةً فَرْحَى مُزَوَّجَةً نَشْرَا

وَقَدْ رَاقَ لَوْنُ الحِبْرِ فَوْقَ بَيَاضِهَا ... كَمَا رَاقَ لَوْنُ الخَالِ فِي وَجْنَةِ العَذْرَا

وممّا يظهر واضحًا في لغة ابن فُركون ويجدر الوقوف عليه استخدامُه المُحسّنات البديعيّة، ولا سيّما الجناس والطّباق، وكانا أحبّ أنواع البديع لديه؛ إذ تندُر قصيدة أن تخلو منهما.

واستخدامُه المُحسّنات البديعيّة هو من روح العصر السّائدة آنذاك[4]، وهي موجودة عند ابن الجيّاب (749)[5]، وابن زمرك (796)[6]، ويوسف الثّالث (820)[7]، تُضاف إلى ذلك التّأثيرات المشرقيّة، التي كان لها أثرٌ واضحٌ في لفت الأنظار إلى المُحسّنات البديعيّة والزّخارف اللّفظيّة.

---

(1) انظر: ابن فركون: الديوان، 133 و 358، 183 و348، 204 و206، 219، 204 و230، و292.
(2) السّابق، ص288.
(3) انظر: السابق، ص106.
(4) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسي، ص391-393، والواثني: الشّعر الأندلسي، ص210.
(5) انظر: الفراط: ابن الجيّاب، ص385.
(6) انظر: الحمصي: ابن زمرك، ص191، وما بعدها.
(7) انظر: بازجي: ملك غرناطة يوسف الثالث، ص203-204.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مذهب الصّنعة قد فشا في الأندلس في القرن الخامس الهجريّ، وممّا أسهم في ذلك ظهور عدد المؤلّفات، التي اعتمدت على الصّنعة في مادّتها، مثل كتاب «إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس» لأبي القاسم الكلاعيّ (ق 6)[1]، وغيره. وقد أسهمت هذه المؤلّفات في الحديث عن تجويد الشّعر والعناية به، وأفردت للبديع صفحات كثيرة، واعتنت بالأساليب المسجوعة، ومختلف ضروب التّكلّف في صناعة الكلام شعره ونثره، وتوشيتها بشتّى أنواع الزّخارف اللّفظيّة والمعنويّة.

وقد أولع ابن فُركون بتزيين شعره بالمحسّنات اللّفظيّة، وكان الجناسُ بنوعيه التّامّ وغير التّامّ أكثرَ هذه المحسّنات استخدامًا لديه.

ومن التّامّ استخدامه الجناس المّماثل: وهو ما اتّفقت فيه الكلمتان المتجانستان في نوع الأحرف وعددها وهيئاتها وترتيبها، وكانتا من نوع واحد من أنواع الكلمة، اسمين أو فعلين أو حرفين[2]، ومن ذلك قوله يمدح الملك يوسف الثالث[3]:

جَـوادٌ جَـوادٌ إنْ تَـسـربـلَ لـلـنّدى ... فَـيَعجزُ مَـنْ يَـبْغي مَـدى الجُـودِ شَـدَّهُ

جانس بين «جوادٌ» و«جوادٌ»، واستخدم هذا الجناس ذاته في المدح كذلك[4]:

جَـوادٌ مَـتى ضَـنَّ الـمُـلوكُ فَـرِفْـدُهُ ... جَـوادٌ لَـهُ فَـضْـلُ السِّـباقِ إذا انْتَـمى

ومن ذلك أيضًا، قوله[5]:

كَـأنَّ عَطايا يوسُـفٍ وهِـبَ النّدى ... غَـوادٍ غَـوادٍ بـالـنَّـوالِ رَوائِـحُ

جانس بين «غوادٍ» و«غوادٍ»، وجمع الطّباق إلى الجناس في هذا البيت، فطابق بين «غوادٍ» الثّانية و«روائحُ».

(1) اعتنى بتحقيقه الدّكتور محمّد رضوان الدّاية، وصدر عن دار الثّقافة في بيروت، عام 1966.
(2) انظر: قوده، بسيوني عبد الفتّاح: علم البديع، دراسة تاريخيّة وفنّيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع، مؤسّسة المختار – القاهرة، ودار المعالم الثّقافيّة – الأحساء، ط2، 1418/1998، ص279.
(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص135.
(4) السّابق، ص230.
(5) السّابق، ص111.

واستخدم كذلك من الجناس التامّ الجناس المُستوفى: وهو ما اتّفقت فيه الكلمتان في نوع الأحرف وعددها وهيآتها وترتيبها، واختلفتا في نوع الكلمة، بأن تكون إحداهما فعلاً والأخرى اسمًا أو حرفًا، أو إحداهما اسمًا والأخرى حرفًا[1]، ومن هذا قوله[2]:

يُبْدي الحَنينَ إذا سَرى بَرْقُ الحِمى ... وإذا صَبا نَجْدٌ تَهُبُّ صَبا لَها

جانس بين «صَبا» الأولى وهي اسم، و«صَبا» الثانية وهي فعل.

واستخدم كذلك جناسَ التّركيب: وهو ما كان كلّ لفظ من لفظَيْه مُركّبًا أو أحدهما مُركّبًا والآخر مُفردًا[3]، كما في قوله[4]:

لَوْ أَلْفَيْتُ بالشُّهْبِ عارِفَةَ النَّدى ... لأَنالَها كَرَمًا وقالَ: أنا لَها

جانس بين «أنالَها» و«أنا لَها». وقوله في القصيدة ذاتها[5]:

ما جابَ آفاقَ البِلادِ بِفُطْرِها ... أوْ جالَها إلاّ شَقَى أوْجالَها

جانس بين «أوْ جالَها» و«أوْجالَها». ومنه كذلك قوله[6]:

تُرى العَذْلَ إذْ نأى أَوْصى بي ... كَيْفَ شاءَ الهَوى إلى أَوْصابي؟

جانس بين «أَوْصى بي» و«أَوْصابي» جَمْعُ وَصَبٍ، وهو التّعب.

وكما استخدم ابن فُركون الجناس التّامّ فقد استخدم غير التّامّ أيضًا: وهو ما اختلف فيه اللّفظان في واحد أو أكثر من هذه الأمور الأربعة، وهي: نوع الأحرف وعددها وهيآتها وترتيبها، ويأتي هذا الجناس على أنواع. وهي:

– الجناس المُضارع: هو ما تقارب فيه مخرجا الحرفين المُختلفين بين كلمتي

---

(1) انظر: قيود: علم البديع، ص280.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص115.
(3) انظر: قيود: علم البديع، ص281.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص116.
(5) السّابق، ص116.
(6) السّابق، ص263.

الجناس[1]، ومنه قوله يصف أبياتًا وجهها إليه الملك يوسف[2]:

فَلَفَقْتُهَا السِّرُّ وَالزَّهَرُ الأنيقُ إذا ... ما رَاقَ أَضْوَؤُهُ أو رَقَّ أَضْوَعُهُ

جانس بين «أَضْوَأُ» و«أَضْوَعُ» والهمزة والعين كلاهما حرفان حلقيان. ومنه قوله في مدح الملك[3]:

أَعِدَّ لِمُلْكِكَ رَأْيًا نَصِيحًا ... وَحَزْمًا فَسِيحًا وَعَزْمًا شَهِيرًا

جانس بين «حَزْمًا» و«عَزْمًا»، والحاء والعين كلاهما حرفان حلقيان.

– والجناس اللاحق: هو ما تباعد فيه مخرجا الحرفين المختلفين، بين كلمتي الجناس[4]، ومنه قوله في رثاء مولود الملك[5]:

شِهَابٌ تَوَارَى فِي الثَّرَى بَعْدَمَا بَدَا ... مَلَاذًا لِمُسْتَنْجِدٍ وَنُورًا لِمُسْتَنْهِدِ

جانس بين «مُسْتَنْجِد» و«مُسْتَنْهِد»، والجيم شجْرية والهاء حلقية. وقوله في قصيدة، راجع فيها صديقه أبا القاسم بن حاتم المالقيّ، المعروف بابن البنّا[6]:

هِيَ القَوَافِلُ تَجْنِيهَا لِتَظْفَرَ مِنْ ... تِلْكَ القَوَافِي بِأَخْلَافِهَا وَأَجْلَافِهَا

جانس بين «القَوافِل» و«القَوافِي»، وبين «أَخلافها» و«أَجلافها».

– والجناس الناقص: وهو ما اختلف فيه اللفظان في عدد الأحرف زيادةً أو نقصانًا، ولا يكون الاختلاف بأكثر من حرفين[7]، ومنه قوله في قصيدته التي نظمها «في الجناب النبوي

(1) انظر: فيود: علم البديع، ص284، وشيخ أمين، بكري: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البلاغة، دار العلم للملايين – بيروت، ط4، 1998، ص140.
(2) ابن فركون: الديوان، ص153.
(3) السابق، ص335.
(4) انظر: فيود: علم البديع، ص284، وشيخ أمين: البلاغة العربية، ص140.
(5) ابن فركون: الديوان، ص133.
(6) السابق، ص308.
(7) انظر: فيود: علم البديع، ص284، 285.

الكريم... وقد أطلّ موسم عام 818»[1]:

أيخفى جَوى قد ضمّنته جوانحي ... ودمعُ جُفوني عن ضميري مترجمُ؟

جانس بين «جَوَى» و«جَوانح».

– والجناس المُحرَّف: وهو ما اختلف فيه اللفظان في هيآت الأحرف؛ أي في الحركات والسكنات، واتّفقا فيما عدا ذلك من نوع الأحرف وعددها وترتيبها[2]، ومنه قوله[3]:

لو أفصحت أشكالُها بخطابها ... للمُبصرين لأوضحت إشكالها

جانس بين «أَشْكال» و«إِشْكال». وقوله يصف قصيدة أحد أصدقائه[4]:

فأشبهت زَهْرَ الرُّبا نفحةً ... وأشبهت زُهْرَ العُلا بادية

جانس بين «زَهْر» و«زُهْر».

– وجناس القَلْب: وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في ترتيب الحروف[5]، ومنه قوله[6]:

فيا راكبَ الوجناء يَطْوي بها الفلا ... يرُومُ بطيّ القَفْر أنْ يذهبَ الفقرا

جانس بين «القَفْر» و«الفَقْر».

وقوله[7]:

حمائمُ الفكرِ لدى روضِها ... بمَدْحِه أو حَمْدِه شادية

جانس بين «مَدْحه» و«حَمْده».

واعتمد ابن فُركون على الجناس في شعره لما فيه من بلاغة، ولما يُحدثه «من المفاجأة

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص322.
(2) انظر: قيود: علم البديع، ص286.
(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص119.
(4) السّابق، ص302.
(5) انظر: قيود: علم البديع، ص286.
(6) ابن فُركون: الدّيوان، ص105.
(7) السّابق، ص302.

وخداع الأفكار واختلاب الأذهان، إذ يتوهم السّامع أنّ اللّفظ مُردّد والمعنى مُكرّر، وأنّه لن يجني منه سوى التّطويل والسّآمة، وعندما يأتي اللّفظ الثّاني بمعنًى يُغاير ما سبقه تأخذه الدّهشة لتلك المفاجأة غير المُتوقّعة»[1]، ولهذا فقد أكثر ابن فُركون من الجناس في شعره، مع أنّ كثرته مذمومة[2]، غير أنّه عبّر بهذا عن ذوق العصر[3]، وكشف من خلاله عن مقدرته في اقتناص المعاني، وتوليد الألفاظ.

وكما زيّن ابن فركون شعره بالمُحسّنات اللّفظيّة زيّنه كذلك بالمُحسّنات المعنويّة، وكان أبرزها الطِّباق: وهو مبنيٌّ على أساس الجمع بين الأضداد، وأهمّ ما يؤدّيه الطِّباق هو جلاء صورة كلّ ضدّ بضدّه؛ إذ تقوم في العقل مقارنة بين كلّ منهما، أو الجمع بين الضّدّين للحكم عليهما بحكم واحد.

والطِّباق في شعر ابن فُركون كثير، ينمّ على ولعه الشّديد به، وظهر في مختلف الأغراض، ومنه قوله[4]:

فكُلُّ مرامٍ أبتغيه مُمنَّعٌ   وكُلُّ بعيدٍ أرتجيه قريبُ

طابق بين «بعيد» و«قريب».

وقوله[5]:

قد هدأتْ للمرام وهي حيارى   وأنتَ بالسُّهاد وهي نواعس

طابق بين «هدأت» و«حيارى»، وبين «السُّهاد» و«نواعس». وقوله[6]:

فلُمْتَ بما قد أعدّ النّفرُ عنهُ   وداويتَ بالجمرِ ما أقرحا

---

(1) انظر: فيّود: علم البديع، ص294.

(2) انظر: الجرجانيّ، عبد القاهر بن عبد الرّحمن (471): أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه محمود محمّد شاكر، دار المدنيّ – جدة، مطبعة المدنيّ – القاهرة، ط1، 1412/1991، ص8، 11.

(3) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص328، 391، والوائلي: الشّعر الأندلسيّ، ص240.

(4) ابن فركون: الدّيوان، ص155.

(5) السّابق، ص184.

(6) السّابق، ص191.

تجود إذا ضنّ صوب الحيا ۞ وتقبلُ والدهرُ قد أعرضا

تطابق بين «قمْت» و«قعد»، وبين «داويْت» و«أمْرض»، وبين «تجود» و«ضنّ»، وبين «تقبلُ» و«أعرض».

والجمع بين المتضادّات يكسو الكلام جمالاً ويزيده بهاءً ورونقًا، ولا تقف وظيفة الطّباق عند الزّخرف والزّينة الشّكليّة، بل تتعدّاها إلى ما هو أسمى وأعمق، فلا بدّ أن يكون هناك معنًى لطيف ومغزًى دقيق وراء جمع الضدّين في إطار واحد[1]، ولعلّ هذا ما حدا بابن فُركون وشعراء عصره الغرناطيين إلى الإكثار من الطّباق في شعر هذه المرحلة[2].

وخلاصة القول أنّ لغة ابن فُركون مثّلت لغة الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ، وهي لغة ذات خصوصيّة وطابع مُميّز، وكانت ألفاظه تعبّر عن معانيه، واختلفت بحسب الغرض الذي وردت فيه، وارتبطت بالموضوع وبحالة الشّاعر النّفسيّة، وحملت معانيه وفكره وعبّرت عن مشاعره وعواطفه وكانت لغةً واضحة بسيطة عدا قليل من الغرابة، وعربيّةً فصيحة عدا ما ظهر منها من ألفاظ مُعرّبة.

ومعجمه اللّغويّ غنيّ ومتنوّع بالمُفردات، نهل موادّه من موارد عدّة، فصدر عنها بكثير من مفردات الحياة والدّين والطّبيعة والأدب والتّاريخ، وبرزت من خلالها ثقافته الواسعة، غير أنّه وقع في التّكرار عندما راح يردّد كثيرًا من المفردات والتّراكيب.

3 – موسيقا الشّعر

يتّفق النّقّاد والدّارسون العرب القُدامى والمحدثون على أنّ الشّعر صيغة موسيقيّة، «فليس الشّعر في الحقيقة إلاّ كلامًا موسيقيًا، تنفعل لموسيقاه النّفوس، وتتأثّر بها القلوب»[3]، وإلى هذا ترتكز أهمّيّة الموسيقا في الشّعر، والتي «تستطيع أن تُقيم بناءً مُتكاملاً يجمع بين

(1) انظر: فيود: علم البديع، ص136.
(2) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص391-393.
(3) أنيس، إبراهيم: موسيقى الشّعر، دار القلم-بيروت، ط4، 1972، ص22.

التأليف القائم في أعماق الفنّان والفائر في نفسه، وبين غيره من المتلقّين في قدرة فنّيّة على جعل إيقاعات النّفس تجذب الآخرين بواسطة النّغم الشّعريّ، الذي تعطي مذاقه موسيقا الشّعر»[1]. وفي الشّعر نوعان من الموسيقا: موسيقا خارجيّة، وموسيقا داخليّة.

أ–الموسيقا الخارجيّة:

تقوم موسيقا الشّعر الخارجيّة على ركنين أساسيّين من أركان القصيدة هما الوزن والقافية.

1 –الوزن: الوزن عنصر مهمّ من عناصر القصيدة، ولا يمكن فصْلُه عن سواه من مكوّناتها[2]، وقد احتلّ مكانة بارزة في دراسة البنية الموسيقيّة للقصيدة، فهو ركن أساسيّ للشّعر؛ بل هو «أعظم أركان حدّ الشّعر، وأولاها به خصوصيّة، وهو مُشتمل على القافية، وجالب لها ضرورةً»[3].

وليس الوزن مُجرّد تفعيلات مُنفصلة عن المعنى، تُلقّن وتُحفظ، ولكنّه لصيق بالمعنى وغير مُنفصل عنه، ويساعد على تأكيد المعنى، وتثبيته في الذّهن، وصونه من الضّياع[4].

ومهما بلغت معرفة الشّاعر بصناعة الشّعر وتحسينه تبقى حاجتُه لمعرفة خصائصه ضروريّةً، «فلم يكن الشّاعر العربيّ ينظم الشّعر دون شعور بخصائصه وموسيقاه، بل كان يعمد إليه عمدًا، ويقصد إليه قصدًا»[5].

نظم الشّعراء العرب أشعارهم على الأوزان الخليليّة، غير أنّها لم تحظَ بعناية مُتكافئة من لدن الشّعراء، فقد شاع استعمال عدد من البحور، وقلّ استعمال عدد منها، فمن البحور التي ذاع استعمالها الطّويلُ والكاملُ والبسيطُ والخفيفُ والوافرُ، أمّا البحور الأخرى فقد قلّ استعمال عدد منها، ونَدر استخدام عدد آخر[6].

---

(1) عيد، رجاء: التّجديد الموسيقيّ في الشّعر العربيّ، منشأة المعارف–الإسكندريّة، د.ت، ص12.
(2) انظر: عيد: التّجديد الموسيقيّ، ص9.
(3) ابن رشيق: العمدة، 268/1.
(4) انظر: عيد: التّجديد الموسيقيّ، ص9.
(5) أنيس: موسيقى الشّعر، ص205.
(6) انظر: السابق، ص210–218.

ونظم شعراء غرناطة في القرن الثامن الهجريّ أشعارهم على البحور الخليليّة[1]، وتابعهم في ذلك شعراء القرن التاسع الهجريّ، الذين آثروا عددًا من البحور على سواها، «فحرصوا على ركوب ما كان طويلاً منها، كبحر الطّويل والكامل، والبسيط والسّريع، والوافر والرّجز والمديد، بنسب تتفاوت فيما بينها، وكانت الغلبة لبحر الطّويل»[2]. واستأثرت هذه البحور بأكثر أشعارهم، ولعلّ ذلك «لتوافر المقاطع الطّويلة فيها، وقصرها في الأخرى»[3].

وعلى نهجهم سار ابن فُركون، فنظم شعره على أوزان البحور العربيّة، واستخدم منها أحد عشر بحرًا[4]، وهي على التّرتيب: الطّويل، الكامل، البسيط، الخفيف، المُتقارب، السّريع، الوافر، الرّمل، المُجتثّ، الرّجز، المُنسرح، وترَكَ من البحور: المُضارع، الهزج، المُقتضب، المَديد، المُتدارك، فلم ينظم عليها شيئًا من شعره.

استخدم ابن فُركون مثل سابقيه ومعاصريه من شعراء غرناطة[5] الأوزانَ المعروفة، كالطّويل والكامل والبسيط والوافر والخفيف؛ لأنّها من أكثر البحور شيوعًا، و«يطرقها كلّ الشّعراء، ويكثرون النّظم منها، وتألفها آذان النّاس في بيئة اللّغة العربيّة. أمّا المُتقارب والرّمل والسّريع فتلك بحور تذبذبت بين القلّة والكثرة، يألفها شاعر ويكاد يُهملها آخر»[6].

فالبحر الطّويل هو الأثير إلى نفس ابن فُركون؛ فقد استأثر بأكبر عدد من نصوصه، واحتلّ

---

(1) انظر: النّقراط: ابن الجيّاب، ص370.
(2) الواظي: الشّعر الأندلسيّ، ص231.
(3) الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص313.
(4) انظر ملحق الجداول: جدول البحور الشّعريّة التي نَظَم عليها ابن فُركون، وفيه نسبة ما نظمه عليه في كلّ بحر.
(5) جاء ترتيب البحور الأولى التي نَظَم عليها عدد من شعراء غرناطة كالآتي:
- ابن الجيّاب: الكامل والطّويل والبسيط. (انظر: النّقراط: ابن الجيّاب، ص348).
- ابن زمرك: الطّويل والكامل والبسيط. (انظر: الحمصيّ: ابن زمرك الغرناطيّ، ص180).
- يوسف الثّالث: الطّويل والكامل والبسيط. (انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص319).
- عبد الكريم القيسيّ: الكامل والطّويل والبسيط. (انظر: السّابق، ص319).
(6) أنيس: موسيقى الشّعر، ص210.

مرتبة الصّدارة[1]، وهذا البحر أكثرُ بحور الشّعر شيوعًا واستخدامًا؛ إذ «ليس بين بحور الشّعر ما يُضارع البحر الطّويل في نسبة شيوعه، فقد جاء ما يقرب من ثلث الشّعر العربيّ القديم من هذا الوزن»[2].

ولعلّ اختيار ابن فُركون لهذا الوزن راجع لطول نَفَس هذا البحر، وكثرة تفاعيله، وما يتميّز به من عظمة وجلال، فإليه يتّجه أصحاب الرّصانة، وفيه ينكشف أهل الرّكاكة والهجنة[3]، ويتميّز بطول تفاعيله الثّمانية، التي تسمح للشّاعر بامتداد زمنيّ طويل، وإيقاع بطيء، فيحشد معانيه، ويعرض فكره وصوره في ألفاظ وتعابير كثيرة، كما يتميّز بمعالجة الموضوعات الجدّيّة، التي تحتاج إلى طول نفس، كالمدح والرّثاء والفخر[4].

وممّا نظمه ابن فُركون على هذا البحر قوله في مدح الملك يوسف الثّالث في واحدة من قصائده المُبكّرة عام (811) قال فيها[5]:

يَنُمُّ مِنَ الأَمْداحِ طِيبُ ثَنائِهِ ... فَتَسْري بِرَيّاهُ الرِّياحُ اللَّواقِحُ

يَفيضُ عَلى العالَمينَ جُودُ يَمينِهِ ... فَتُزْري النَّدى عَنْهُ السَّحابُ الرَّوائِحُ

لَقَدْ أُتْقِنَ القُصّادُ مِنْهُ مَعانَةً ... لَها القَصْدُ تُبْرِزْ بِها السَّعْيُ ناجِحُ

وركب ابن فُركون هذا البحر، فنظم عليه عددًا من مُقدّماته الغزليّة، وممّا قاله في هذا[6]:

أَمِنْها سُرى طَيْفٍ إِلَيَّ حَبيبِ؟ ... وَلَيْسَ سِوى نَجْمِ السَّماءِ رَقيبُ

---

(1) استأثر البحر الطّويل بأكبر عدد من مجموع أبياته، وهو ألفان ومئة واثنان وعشرون بيتًا، وكانت له النّسبة الكبرى بين الأبيات التي ارتجلها الشّاعر أو جاءت من دون رويّة أو نُظمت للحين من أمره، فكان المجموع 169 بيتًا، وبلغت نسبته العليا في العيديّات، فكانت عشر عيديّات من أصل 19 عيديّة. انظر ملحق الجداول: جدول الأبيات التي ارتجلها الشّاعر أو جاءت من دون رويّة أو نُظمت لحين من أمره، وجدول أوزان العيديّات.

(2) أنيس، إبراهيم: موسيقى الشّعر، ص69.

(3) انظر: الطّيّب، عبد الله: المُرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار جامعة الخرطوم للنشر – الخرطوم، ط4، 1991، ج4، 362/1.

(4) السّابق، 115/1.

(5) ابن فُركون: الدّيوان، ص111.

(6) السّابق، ص154.

أنَّى وَظَلامُ اللَّيلِ يَسْحَبُ ذَيلَهُ وَلِلْبَرقِ ثَغرٌ في دُجاهُ خَبيبُ

تَطَلَّعَ عَقاقَ الجَناحِ كأنَّهُ فُؤادُ مُحِبٍّ قَدْ جَفاهُ حَبيبُ

ووجد ابن فُركون في هذا البحر سبيله إلى الرِّثاء، فقال مُرتجلاً يرثي مولودًا للملك يوسف الثّالث[1]:

بُنيَّ لَقَدْ جازَ الأَسى مُنْتَهى الحَدِّ فَيا لَيْتَ حُسْنَ الصَّبْرِ في مِثْلِها يُجْدِي

تَعابُ بِهِ باتَتْ مِنَ الدَّهْرِ عَثْرَةً وَضَلَّتْ بِهِ الأيّامُ عَنْ سَنَنِ الرُّشْدِ

وجاء وزن الكامل في المرتبة الثّانية بين الأوزان التي نَظَمَ عليها ابن فُركون شعره[2]، وكثيرٌ من أشعار العرب منظومٌ على هذا الوزن؛ لأنّه أكثرها «جلجلة وحركات، وفيه لون خاصٌّ بالموسيقى يجعله - إنْ أُريدَ به الجدّ - فخمًا جليلاً، مع عنصر ترنُّميّ ظاهر، ويجعله - إن أُريد به إلى الغزل وما يمجراه من أبواب اللّين والرّقّة - حلوًا مع صَلصلة كصلصلة الأجراس»[3].

ووجد ابن فُركون في هذا الوزن غايته، فنَظَمَ عليه قدرًا كبيرًا من شعره، موفّرًا لهذا الوزن إيقاعًا هادئًا رصينًا. ومن هذا ما قاله في مدح الملك يوسف الثّالث[4]:

هُوَ ناصِرُ الدِّينِ الخَليفَةُ يُوسُفُ مَلِكٌ غَدا كَهْفَ المُلُوكِ ثِمالَها

مَلِكٌ كَأنَّ الشَّمْسَ غُرَّةُ وَجْهِهِ تَهْدي إلى سُبُلِ الهُدى ضُلاّلَها

مَلِكٌ كَأنَّ الغَيْثَ جُودُ يَمينِهِ مَهْما أنالَ العافينَ نَوالَها

وممّا قاله على هذا الوزن في الغزل[5]:

---

(1) ابن فُركون: الدِّيوان، ص132. لابن فُركون أربع مراثٍ، نظم ثلاثًا منها على الطّويل ونظم واحدة على المتقارب. انظر: الدّيوان، ص358، 360، 382.

(2) استأثر الكامل بـ869 بيتًا، وكانت له النّسبة العليا من مجزوءات الشّاعر. انظر ملحق الجداول: جدول البحور المجزوءة التي نَظَم عليها الشّاعر.

(3) الطّيّب: المُرشد إلى فهم أشعار العرب، 1/246.

(4) ابن فُركون: الدِّيوان، ص116.

(5) السابق، ص259.

يا حادي الأظعان مالك والسُّرى؟ ... اللهَ في الرَّمَقِ الَّذي هو باقِ

هي دارُ أحبابي وموضعُ صبوتي ... ومحلُّ جيراني وربعُ رفاقي

جار الزمانُ بشملهم ولعلّهُ ... يومًا يجودُ بعادةِ الإشفاقِ

ونظم ابن فُركون على هذا الوزن قوله في وصف عشيّة[1]:

شمسُ العشيّةِ آذنتْ بغروبها ... كالكأسِ راقَ بها سنا مشروبها

مُصفرّةً تبدي الشُّحولَ عليلةً ... فكأنّها تشكو لفراقِ حبيبها

فكأنّما هي في العشيِّ مسافرٌ ... ألقتْ على مرآهُ بعضَ شحوبها

واحتلّ المرتبة الثّالثة وزنُ البسيط، وهو لا يختلف عن الطّويل كثيرًا، فهو من أطول بحور الشّعر العربيّ، وأعظمها أُبّهة وجلالة، وإليه يعمد أهل الرّصانة[2]. وممّا قاله على هذا الوزن عبديّة، هنّأ فيها الملك[3]:

هذي سُعودُكَ قد حثّتْ طوالعُها ... واستشرفتْ من ثناياها طلائعُها

آثارُ مُلكِكَ لا تَبلى نضارتُها ... أنوارُ أُفقِكَ لا تخبو سواطعُها

آياتُ حمدِكَ تستجلي مواقعُها ... آياتُ هديِكَ تستجلي نواصعُها

وقال في الوصف على لسان بناء أنشأه الملك عام (815)[4]:

أحرزتُ من كلِّ وصفٍ رائقٍ حسنٍ ... ما لم يُنَلْ مثلُهُ في سالفِ الزّمنِ

إنْ حلّ من مظهري مولايَ أفقَ علًا ... فأينَ صنعاءُ أو سيفُ بنُ ذي يزنِ؟

هذا هو المصنعُ الأعلى فحلَّ به ... طرزَ السُّعودِ ودعْ غُمدانَ لليمنِ

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص254.
(2) انظر: الطّيّب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، 1/362.
(3) ابن فركون: الديوان، ص210-211.
(4) السابق، ص272.

ونظم ابن فُركون أبياتًا، صدّر بها رسالة، بعث بها إلى أبي بكر بن الأيسر، الذي أرسل إليه قطعةَ شعْرٍ، فقال ابن فُركون في صدر رسالته، مُصوّرًا قطعة الشّعر هذه[1]:

أهلاً بقطعةِ شعرٍ راقَ منظرُها ... فكلُّ قلبٍ إليها قد صبا وَصَغا

عقيلةٌ ذهبتْ بالعقلِ حينَ غدتْ ... تُزري سَناها بنورِ الشّمسِ إذْ بزغا

أتى بها أوحدٌ أضحتْ فصاحتُهُ ... تكلُّ عن نعتِها ألسُنُ البُلغا

نظم ابن فُركون جُلّ شعره على الطّويل والكامل والبسيط؛ لأنّها تلائم غرض المدح، الذي نظم فيه ابن فُركون أكثر شعره[2]، وأجدرُ بالمدح «أن يكون في قصائد طويلة، وبحور كثيرة المقاطع، كالطّويل والبسيط والكامل»[3].

ومع ذلك فإنّ ابن فُركون لم يلتزم بحرًا بعينه، يخصّ به أغراضًا شعريّة معيّنة، فقد نظم أغراضه جميعها على كلّ البحور، فكما ورد في كلّ من الطّويل والكامل والبسيط المدحُ والرّثاء والغزلُ وغيرُها، وردت أيضًا هذه الأغراض في باقي البحور، التي استخدمها ابن فُركون، والأمثلة على هذا كثيرة[4].

وقد غلب على ابن فُركون استخدامُه الأوزان التّامّة ذات المقاطع الطّويلة في شعره، أمّا المجزوءة فقليلة[5]، وبالرّبط بين البحور التّامّة والطّويلة المقاطع وبين طول النّفَس يظهر ابن فُركون شاعرًا طويل النّفَس؛ لأنّ البحور ذات المقاطع الطّويلة كالطّويل والكامل والبسيط هي الغالبة على شعره.

وهكذا نجد أنّ ابن فُركون لم يخرج في اختياره بحورَ قصائده ومقطّعاته على ما سار

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص287.

(2) لم أقف طويلاً عند قضيّة اختيار الشّاعر الوزن، والصّلة بينه وبين غرض القصيدة؛ لأنّها قضيّة لم يحسم القول فيها النّقّاد القدماء، ولم يتّفق الدّارسون المعاصرون على رأي فيها. (انظر تفصيل آرائهم ومناقشتها عند: بكار: بناء القصيدة، ص160-168. ونافع، عبد الفتّاح صالح: عضويّة الموسيقى في النّصّ الشّعري، مكتبة المنار - الزّرقاء، ط1، 1405/1985، ص69، وما بعدها).

(3) أنيس: موسيقى الشّعر، ص196.

(4) انظر: ابن فركون: الدّيوان، ص137، 255، 361.

(5) انظر ملحق الجداول: جدول البحور المجزوءة التي نظم عليها الشّاعر.

عليه شعراء عصره، ولم يخرج على أوزان الشّعر الخليليّة، فهو لم يتخطَّ «إلزام النّقّاد القدامى الشّعراء بالتّقيّد بعروض الخليل، حتّى إذا ما خرج الشّاعر عنه قليلاً، أو غيّر في إحدى التّفعيلات عدّوه خارجًا على العروض، وحاكموه أمام محكمة الشّعر، الذي لم ينحرف قيد أنملة عن عروض الخليل»[1].

2 – القافية: كان تحديدُ القافية موضعَ خلافٍ بين العروضيّين[2]، فقيّدها كلّ واحد منهم بما شاء، ولعلّ تقييد الخليل بن أحمد الفراهيديّ (175) لها هو الرّاجح والمعمول به، وهي عنده «من آخر البيت، إلى أوّل ساكن يليه، مع المتحرّك الذي قبل السّاكن»[3]، ولأهمّيّة القافية في الشّعر عدّها ابن رشيق (456) «شريكة الوزن في الاختصاص بالشّعر، ولا يُسمّى شعرًا حتّى يكون له وزن وقافية»[4]، وتكرّر القافية في أواخر الأبيات، «وتكرارها هذا يكون جزءًا هامًّا من الموسيقى الشّعريّة، فهي بمثابة الفواصل الموسيقيّة يتوقّع السّامع تردّدها، ويستمتع بمثل هذا التّردّد، الذي يطرق الآذان في فترات زمنيّة منتظمة، وبعد عدد معيّن من مقاطع، ذات نظام خاصّ يسمّى بالوزن»[5].

ووجود القافية في القصيدة يُتمّم الوزن ويتكامل معه، فـإذا كان الوزنُ ذا صلة عضويّة بالنّصّ الشّعريّ بما يبثّه من موسيقى ذات إثارة في النّفس والحسّ معًا فإنّ هذه الموسيقى تعظم وتتنامى وتؤثّر إذا توافرت القافية، فهي تضيف بموسيقاها قوّة ومفعولاً لا تتوافران عن طريق الوزن وحده»[6]، ولهذا كان للنّقّاد القدماء اهتمام بالغ بالقافية، فطلبوا إلى الشّعراء تحسينها والاهتمام بها، وبصّروهم بعيوبها ومحاسنها مباشرة، وعن طريق ما وجّهوه فيها

---

(1) بكّار: بناء القصيدة، ص196.

(2) انظر تفصيل آرائهم عند: ابن رشيق: العمدة، 1/294–295، والخطيب التّبريزيّ: الوافي في العروض والقوافي، تحقيق فخر الدّين قباوة، دار الفكر – دمشق، 1423/2002، ص199–200، وابن السّرّاج الشّنتريني، محمّد بن عبد الملك (549 أو 550): المعيار في أوزان الأشعار والكافي في علم القوافي، تحقيق محمّد رضوان الدّاية، دار الأنوار – بيروت، ط1، 1388/1968، ص89–91.

(3) الخطيب التّبريزيّ: الوافي، ص199.

(4) ابن رشيق: العمدة، 1/294.

(5) أنيس: موسيقى الشّعر، ص273. وانظر: الطّيّب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، 825/3.

(6) نافع: عضويّة الموسيقى، ص74.

من نقد إلى كثيرين منهم»[1].

واهتمّ الغرناطيّون بالقافية في شعرهم، فجاءت «تشي بوعي الشّعراء الدّقيق بها، وإدراكهم لقيمتها في العمل الشّعريّ؛ ومن ثمّ أولوها عناية خاصّة لا تقلّ عن تلك التي أولوها لاختيار الوزن؛ ومن ثمّ لا بدّ أن تنعكس عليها آثار مجهوداتهم، سواء منها اللّغويّة أو الفنّيّة أو النّفسيّة من البحث عن الكلمات المناسبة، ووضعها في المكان المناسب، مع ما تقدّمه من ومضات إيحائيّة دالّة ومعبّرة عن إحساساتهم، وحالاتهم النّفسيّة»[2].

ولم تكن عناية ابن فُركون بالوزن الشّعريّ أقلّ من عنايته بالقافية؛ فقد كان من الشّعراء الذين يحسنون اصطفاء قوافيهم، من حيث ترتيب أصواتها، ويتبيّن هذا من خلال اختياره لفظ القافية في شعره[3]، فقد كان أعلاها نسبة في شعره المُتدارك[4]، فالمُتواتر[5]، فالمُتراكب[6]، فالمُترادف[7]، وخلا شعره من المُتكاوس[8]. وهو في هذا مثل شعراء غرناطة الذين آثروا «تفضيل قافية المُتدارك، فقلّ ورود القوافي الأخرى، ممّا يعني إضافةً نغميّةً جديدةً للقصيدة»[9]، وهذا يعطي صورة واضحة المعالم، دالّة على عناية ابن فُركون بتنظيم قوافيه، وبترتيب حروفها لتعطيَ نغمًا شجيًّا تستمتع به الأسماع، وتطيب له النّفوس، ويحسن وقعه وأثره في السّامعين.

---

(1) بكار: بناء القصيدة، ص180.
(2) الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص326. وانظر: الوائلي: الشّعر الأندلسيّ، ص232.
(3) انظر ملحق الجداول: جدول لفظ القافية.
(4) المُتدارك: حرفان متحرّكان بين ساكنين في آخر البيت (ابن رشيق: العمدة، 1/324، وابن السّرّاج الشّنترينيّ: المعيار، 91-92)، وبلغت النّسبة في شعره 62 % (تقريبًا).
(5) المُتواتر: حرف متحرّك بين ساكنين في آخر البيت (ابن رشيق: العمدة، 1/324، وابن السّرّاج الشّنترينيّ: المعيار، ص 92)، وبلغت النّسبة في شعره 28 % (تقريبًا).
(6) المُتراكب: ثلاثة أحرف ساكنة في آخر البيت (ابن رشيق: العمدة، 1/323-324، وابن السّرّاج الشّنترينيّ: المعيار، ص91)، وبلغت النّسبة في شعره 8 % (تقريبًا).
(7) المُترادف: اجتماع ساكنين في آخر البيت (ابن السّرّاج الشّنترينيّ: المعيار، ص92)، وبلغت النّسبة في شعره 2 % (تقريبًا).
(8) المُتكاوس: أربع أحرف متحرّكة في آخر البيت (ابن رشيق: العمدة، 1/323، وابن السّرّاج الشّنترينيّ: المعيار، ص91).
(9) الوائلي: الشّعر الأندلسيّ، ص233.

وكما أَحسنَ ابن فُركون في ترتيب الحروف ضمن القافية، فإنّه أَحسنَ اختيار حرف الرّويّ فيها[1]، فاستخدم الدّال[2]، واللاّم[3]، والميم[4]، وهي من الحروف التي يكثر استعمالها رويًا في الشّعر العربيّ، وهذه الحروف هي الرّاء، واللاّم، والميم، والنّون، والباء، والدّال، والسّين، والعين[5].

وقد نَهَجَ ابن فُركون في اختياره حروف الرّويّ نَهْجَ شعراء غرناطة السّابقين له كابن الجيّاب[6]، وابن زمرك[7]، وكذلك شعراء غرناطة في القرن التّاسع الهجريّ[8]، فقد «اختار جلُّ الشّعراء اللاّم رويًا، ثمّ يليه في المرتبة الحروفُ الأخرى، كالرّاء، والدّال والباء والنّون والميم والقاف والفاء، واشترك كل من الفاء والزّاي والهمزة والألف والغين والحاء بالمرتبة نفسها، وكذلك الضّاد والعين بنسب متماثلة»[9].

وفيما يبدو أنّ شعراء غرناطة فضّلوا هذه الحروف، التي تمثّل القوافي الذُّلل الكثيرة الورود في ديوان الشّعر العربيّ، «لما تتمتّع به من سهولة المخرج وخفّة حروفها وانسيابها»[10].

وكان حرف الزّاي أقلّ الحروف التي استخدمها ابن فُركون رويًا في شعره[11]، وحرف الزّاي من الحروف النّادرة الاستعمال في الشّعر العربيّ[12]. ولا يزيد عدد أبيات ابن فُركون

---

(1) انظر ملحق الجداول: جدول الأحرف التي استخدمها الشّاعر رويًا.
(2) بلغت نسبة استخدامه رويًا في شعره 14 % (تقريبًا).
(3) بلغت نسبة استخدامه رويًا في شعره 12 % (تقريبًا).
(4) بلغت نسبة استخدامه رويًا في شعره 11 % (تقريبًا).
(5) انظر: أنيس: موسيقى الشّعر، ص275.
(6) جاء في شعر ابن الجيّاب حرف اللاّم أوّلاً، والدّال ثانيًا، والميم ثالثًا. انظر: النّقراط: ابن الجيّاب، ص373-377.
(7) جاء في شعر ابن زمرك حرفُ اللاّم أوّلاً، والدّال رابعًا، والميم سادسًا. انظر: الحمصي: ابن زمرك، ص181-182، 245.
(8) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص340-342.
(9) الوائلي: الشّعر الأندلسيّ، ص232.
(10) السابق، ص233.
(11) بلغت نسبة استخدامه رويًا في شعره 0،0449 %.
(12) انظر: أنيس: موسيقى الشّعر، ص275.

التي جاء رويّها الزاي على بيتين قالهما الشّاعر في مدح يوسف الثّالث، وهما[1]:

جُــودُ ابــنِ نَـصْـرٍ يُـوسُـفٍ   لِـكُـلِّ وَعْــدٍ مُـنْـجِـزِ

لَا جَــاهَ يَـحْـيَـى عَـبْـدَهُ   بِـمُـعْـجِـبٍ بَـلْ مُـعْـجِـزِ

ولا يخفى ما للرّويّ من أثر بارز في إضفاء النّغم على القصيدة، فالشّعر يحسن وقعه على السّمع لحسن وقع قافيته، وحسن وقع رويّه، ويسوء وقعه لضعف قافيته، وسوء وقع رويّه، حتّى لو تضمّن المعاني البليغة والصّور الشّعرية الرّائعة.

وتنوّع استعمالُ ابن فُركون للقافية بين مُقيّدة ومُطلقة[2]، وكان للمُطلقة في شعره نصيب أكبر من المُقيّدة[3]، وكذلك كانت نسبة المُطلقة إلى المُقيّدة في شعر شعراء غرناطة[4]، وهذا دليل اهتمام وعناية باختيار القوافي. وقد عرفت المُطلقة انتشارًا كبيرًا، فمعظم الشّعر العربيّ منظوم عليها[5].

والقافية المُقيّدة هي النّوع المُناسب للغناء، الذي انتشر في الشّعر العباسيّ أكثر منه قبل الإسلام، ولعلّ سبب انتشاره يعود إلى ازدهار الغناء في تلك الفترة، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ نسبة شيوعها ضئيلة في الشّعر العربيّ[6].

وكانت لابن فُركون محاولات في الخروج على القافية المُوحّدة، وكانت شكلاً من أشكال التّجديد في شعره، وتمثّلت بما نظمه من مُخمّس وموشّح ودوبيت.

فقد نظم ابن فُركون أربع مُخمّسات، وهي منظومات خُماسيّة تتألّف من قطع عدّة،

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص280.

(2) القافية المُقيّدة هي التي يكون رويّها ساكنًا، فيتحرّر الشّاعر بذلك من حركات الإعراب في آخر القافية، أمّا المُطلقة فهي التي يكون رويّها مُتحرّكًا. انظر: ابن رشيق: العُمدة، 1/298 وما بعدها.

(3) بلغت نسبة القوافي المُطلقة في شعره 95% (تقريبًا)، أمّا المُقيّدة فقد بلغت نسبتها 5% (تقريبًا). انظر ملحق الجداول: جدول نوع القافية.

(4) بلغت نسبة القوافي المُطلقة في شعر شعراء غرناطة 93%. انظر: الوائلي: الشّعر الأندلسيّ، ص232، والحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص335.

(5) انظر: أنيس: موسيقى الشّعر، ص289.

(6) انظر: السابق، ص289.

كلّ قطعة من خمسة أشطر، للأربعة الأولى رويّ واحد، وللخامس رويّ يتفق مع الشّطر الخامس لكلّ قطعة[1]، ومن مُخمّسات ابن فُركون مُخمّس خمّس فيه ثلاثة أبيات أرسلها إليه الملك يوسف، عام (812)، ومنه قوله[2]:

إلا الأُفْقُ لَمْ يَنْسَخْ بِرائِقِ بَدْرِها   أَعَلَّلُ قَلْبي المُسْتَهامَ بِذِكْرِها

وَمِنْ عَجَبٍ أنّي مُطيعٌ لأَمْرِها   وَتَزْعُمُ أنّي لا أُبالي بِهَجْرِها

وأنَّ الهَوى مِنّي خِداعٌ لَها يَجْري

وعلى الرّغم من محاولة ابن فُركون الخروج على القافية بمُخمّساته، فإنّه تقيّد بشرط ابن رشيق الّذي استثنى اختلاف القوافي في المُخمّسات، ولم يعدّه عيبًا[3]، لقد ظلّ ابن فُركون مُلتزمًا بما قيّده النّقاد، وإن خرج على ذلك خرج إلى ما أجازوه.

وكانت محاولته الثّانية الموشّحة الوحيدة في «مظهر النّور»، فقد نظم موشّحة من نوع المُخمّس المُمتزج[4]، تتألّف من مطلع وقُفل مُربّعين، وخمسة أبيات على شكل مُخمّسات، وهي تتالى على هذا النّحو[5]:

لِلنَّحْلِ فِي رَوْضِهِ الباسِمْ   سَالَ دَمْعٌ سَفُوحْ

فأتَتْني فِيهِ وَهْوَ نَشْوانْ   كُلُّ غُصْنٍ مَرُوحْ

* * *

مَا لَهُ فِيهِ تَبَسُّمُ الزَّهَرْ   مِنْ دُمُوعِ الغَمامْ

حِينَ تَبْدُو كأنَّها الزُّهُرْ   فِي سَماءِ الكِمامْ

---

(1) انظر: فاخوري: موسيقا الشّعر، ص201.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص247.
(3) انظر: ابن رشيق: العمدة، 1/268.
(4) انظر: غازي، سيّد: في أصول التّوشيح، دار المعارف–مصر، ط2، 1976، ص34.
(5) ابن فُركون: مظهر النّور، ص111–112.

فلنا الفضلُ فيه والشهرُ   نحفظها للأيام

• • •

صحبنا اللهو من وُرد الحمائم   يغتدي أو يروح
وفؤادي تسلسل ورد فتّانْ   بعد طول النزوح

• • •

وقد شاع فنّ التوشيح في استعمال شعراء غرناطة، وأسهم في شيوعه تفشّي الغناء فيها[1]، وكان هذا اللّون يستميل الغرناطيين؛ «لما عُرف عنهم من ميلهم إلى اللّهو والمرح والموسيقا»[2].

وكانت آخرُ محاولات ابن فُركون قصيدةً من الدّوبيت، وهو واحد من الفنون الشّعريّة المُحدَثة، اخترعه الفُرس واقتبسه منهم العرب، ومعناه «بيتان»، لأنّهم لم يكونوا ينظمون منه أكثر من بيتين، وسمّوه أيضًا الرُّباعيّ لاشتماله على أربعة أشطر[3]، وقد كان للغرناطيين إسهام في هذا الفنّ[4]، ونظم مثلهم ابن فُركون قصيدته هذه، حين وجّه إليه الملك بيتين من الدّوبيت، وأمره «بنظم فيه على حروف المعجم»[5]، وممّا قاله فيها[6]:

قلبي كَلِفٌ بظبيةٍ حسناء   يأتي وصفها بالروضة الغنّاء
كم قد أطلعتْ من غرّةٍ غرّاء   يلتاح جمالها لعين الرائي
يا من لجفونٍ دمعها ينسكبُ   ومن لضلوعٍ جمرها يلتهبُ[7]

(1) انظر: بازجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص270.
(2) السابق، ص270.
(3) انظر: فاخوري: موسيقا الشّعر، ص191.
(4) انظر: بازجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص278.
(5) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص233.
(6) السابق، ص233.
(7) ضبط محقّق الدّيوان كلمات صدر البيت على هذا النحو: «يا من لجفون دمعها...»، وهذا خطأ بيّن، =

عُذّالي إذا نُحتُ بوَجدي عَنَّبوا ... والشِّعرُ عن العَهودِ لا تحتجب

ومع أنّ ابن فُركون كان شديد العناية بقوافي أبياته، حريصًا على اختيار حروفها، فإنّها لم تخلُ من عيوب تشوبها، كالإيطاء: وهو تكرار لفظ القافية ومعناها قبل سبعة أبيات، وهو عيب من عيوب القافية إذا تكرّر قبل سبعة أبيات؛ لأنّه ضرب من العيّ، أمّا إذا تكرّر اللّفظ دون المعنى فلم يكن عيبًا[1]، «وخطرُ الإيطاء على وجه العموم، أمرٌ يتقبّله الذّوق، لأنّ الذّوق السّليم يكره التّكرار، ما لم يدعُ إليه داعٍ قويٌّ»[2]. وقد ورد الإيطاء في شعر ابن فُركون خمس مرّات، وجاء ذلك في قوله[3]:

وقائعٌ يمتحن اللهُ العبادَ بها ... حتّى تُبيَّن عاصيها وطائعها

فقال بعد ستّة أبيات:

مَن كان ينصر خلافة ثورةً وعلا ... فخصمها قاصرٌ عنها وطائعها

وفي قوله[4]:

فأنلتَ ما شئتَ من النِّعَم التي ... يُرجى وإنْ عظُمتْ لديك مزيدُها

فقال بعده مباشرة:

وأفدتنا بعهدٍ عائدٍ لك بالمنى ... ولتهنأ الدُّنيا لديك مزيدُها

وفي قوله[5]:

وعندي وُدٌّ ليس يَبلى جديدُه ... وحبٌّ غدتْ أشـــواقه متضاعفة

فقال بعد بيت واحد:

= والصّواب ما أثبتّه، وبه تضبط الوزن، ويتمّ المعنى.

(1) انظر: ابن رشيق: العُمدة، 1/320.

(2) الطّيّب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، 1/45.

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص212.

(4) السّابق، ص219.

(5) السّابق، ص321.

فجازاك عنّي يا أخي خيرَ ما جزى ... إلهٌ غدت ألطافُه متعاقبة

وفي قوله[1]:

إذا لجأ الدّينُ الحنيفُ لنصره ... رأى رأيَه كهفًا منيعًا ومَوْئلا

فقال بعد بيت واحد:

إذا عزّ خطبٌ أو تفاقم مُعضِلٌ ... وجدناه رُكنًا مستقلًّا ومَوْئلا

وفي قوله[2]:

بماذا عسى أُثني على قومك الأُلى ... رقت رتبةُ العلياء فيهم تفضُّلا

فقال بعده مباشرة:

ولكنّني أُهدي نظامي قلادةً ... تُريك من الألفاظ دُرًّا مُفصّلا

وهذا العيب في شعر ابن فُركون واحد من عيوب شعر القرن التّاسع الهجريّ لدى عدد من شعراء غرناطة[3] خلافًا لمَنْ وجد غير هذا[4].

فالإيطاء هو أهمّ عيوب القافية في شعره، وهو قليل وفي مواطن معدودة، ولا ريب في أن قلّة عيوب القافية في شعره مردّها إلى عناية ابن فُركون بشعره، وسعيه إلى تحسينه.

وهكذا يبدو ابن فُركون ذلك الصّانع الماهر الموهوب، غير أنّه ألزم نفسه بقيود البلاط والنّقد، ولم يسعَ إلى الخروج عنهما، ولو فعل لكان واحدًا من أبرز الشّعراء الذين خُتم بهم الشّعر الأندلسيّ في حقبته الأخيرة.

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص383.

(2) السّابق، ص384.

(3) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص337-338.

(4) يرى قواتي أن شعراء غرناطة تجنّبوا الوقوع في عيوب القوافي كالإيطاء والتّضمين والإصراف والإقواء والسّناد، (قواتي: الشّعر الأندلسيّ في عهد بني الأحمر، ص243). وهذا يخالف النّتيجة التي وصل إليها الحسيني، وما وصلتُ إليه في هذا البحث.

ب- الموسيقا الدّاخليّة:

اهتمّ ابن فُركون بالوزن والقافية، وهما جانبا الموسيقا الخارجيّة، واهتمّ كذلك بالموسيقا الدّاخليّة التي تأتي بعد الوزن والقافية، ويدخل فيها الجناس والطّباق، وسائر المُحسّنات، مع تركيب الكلام وترتيب الكلمات وتخيّرها، وكلّ ما من شأنه أن يُعين على تجويد البنية، والتّزيين في أبيات القصيدة[1]، وقد استخدم الشّعراء هذه المُحسّنات كثيرًا تحسينًا لأساليبهم وتنميقًا لكلامهم حتّى «أسرف الشّعراء والأدباء في العصور المتأخّرة غاية الإسراف في استعمال المُحسّنات البديعيّة، إمّا إعجابًا بها أو إخفاءً لفقرهم بالمعاني»[2].

وقد برزت الموسيقا الدّاخليّة في شعر ابن فُركون من خلال استخدامه مجموعة من الأساليب اللّفظيّة والمُحسّنات المختلفة، وأهمّها:

1 - التّكرار: وهو وسيلة من وسائل تحسين الإيقاع وتقويته، وهو عامل من عوامل الإطراب، سعى إليه الشّاعر للتّأثير في ذهن السّامع، ومن شعراء غرناطة مَن استخدمه في شعره[3]، وإليه عمد ابن فُركون في عدد من قصائده، ومن هذا قوله يرثي عليًّا أخا يوسف الثّالث[4]:

وكانَ حُسامًا لِحَرْبِ العِدا ... فقلّتْ أكُفُّ الرّدى غَرْبَهْ

وكانَ غمامًا يُحيّي الزّمرّدَ ... رَبيعي، فقدْ منعتْ سكْبَهْ

وكانَ سماءً لنُورِ الهُدى ... فقدْ قلّبتْ للثّرى قُطْبَهْ

وكانَ أمانًا لمنْ أمّهُ ... فما بالُها رَوّعتْ سِرْبَهْ؟

وكانَ لقُصّادِهِ مَوْرِدًا ... فأنّى وقدْ كدّرتْ شِرْبَهْ

وكانَ لدَوْلةِ مولى المُلوكِ ... ذُخرًا يسودُ العُلا قُرْبَهْ

(1) انظر: بكّار: بناء القصيدة، ص197.

(2) عتيق: علم البديع، ص9.

(3) انظر: النقراط: ابن الجياب، 296-298.

(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص361.

وَكَـانَ تَنهَابُ المَعَالِي مَطْمَحَهُ   فَمَا لِلَّيَالِي أَتَتْ خَزَنَهُ؟

أراد الشّاعر من وراء تكرار «وكان» تقوية نغم أبياته، وإضفاء رنّة لفظيّة قويّة عليها.

ومن التّكرار أيضًا قوله يصف الحرب [1]:

حَيثُ الظُّبَا قَد هَمَينَ في هَامِ العِدَا   حَتَّى تَرَكْنَ غَمِيدَهَا مَغْمُودَا

حَيثُ الوُرَادُ الغُرُّ تَنتَهِزُ الوَغَى   هَيْمَا تُرَتِّلُ في النَّجِيعِ زُرُودَا

حَيثُ القِسِيُّ مَحَارِبٌ أَضحَتْ لَهَا   هَامُ الأَعَادِي رُكَّعًا وَسُجُودَا

حَيثُ العَزَائِمُ في المَيَادِينِ الَّتِي   قَادَتْ إِلَيْهِنَّ الجِيَادَ القُودَا

حَيثُ النَّدَى وَالحِلْمُ يُنجِزُ مَوعِدًا   لِلمَكْرُمَاتِ وَلا يُنجِزُ وَعِيدَا

حَيثُ العُلا وَالبُوسَعِيدِيُّ يُنِيلُهَا   جُودًا فَلا عَدِمَتْ لَدَيْهِ وُجُودَا

وعمد الشّاعر إلى هذا التّكرار لتقوية الوزن وزيادة رنّة اللّفظ بالاقتصاد في الكلمات عن طريق إعادة كلمة واحدة أو أكثر، وكأنّه يريد ألاّ تذهب عن القارئ رنّة الوزن وأثر اللّفظ تحت ثقل كلمات كثيرة متباينة إذا هو لم يعمد إلى التّكرار.

2 – **الجناس**: وهو تشابه الكلمتين في اللّفظ مع اختلاف في المعنى. وقد أورده ابن فركون كثيرًا جدًّا في شعره، وكأنّه كان يسعى إليه سعيًا، ويقصده قصدًا، حتّى صار القارئ يتوقّعه في أيّة لحظة.

والجناس ضرب من التّكرار الصّوتيّ، الذي تستحسنه الأذن، يرفد الموسيقا الخارجيّة للشّعر بجوّ من الموسيقا الدّاخليّة؛ إذ تأتي الكلمة في حشو البيت، ثمّ لا يلبث صداها أن يتردّد في موضع آخر منه، فتطرب له الأذن طربها للصّدى.

ويأتي الجناس فيزيّن المعنى ويمنحه طاقة موسيقيّة إضافيّة بما حمله من بُعد نغميّ للقصيدة، وإغناء للتّعبير المُراد توصيله بالقيم الموسيقيّة، مع مراعاة عدم التّكلّف في إيراده بالبيت الشّعري، فيغدو عندئذ زخرفة لفظيّة فارغة المحتوى. فالشّاعر قصد الجناس في

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص363.

قصائده على نحو كثير ممّا أضاف نغمًا جديدًا على أبياته ومنحه بُعدًا جماليًا وآخر نفعيًا عن طريق تعلّق السّامع بكلماته وولوجها نحو أذنه بصورة أسرع.

وقد استخدم شعراء غرناطة الجناس[1]، وعلى دربهم سار ابن فُركون، فاستخدم نوعي الجناس كليهما: التّامّ والنّاقص، غير أنّ النّاقص كان أكثر. ومن أمثلة الجناس التّامّ قوله[2]:

حَبانِي بالآمالِ والمالِ رِفْدُهُ ... فأغْنى وعن نَيْلٍ مِنْ دونِهِ أغْنى

جانس فيه بين «أَغْنى» و«أَغْنى»، وقوله[3]:

جَوادٌ جَوادٌ إنْ تُسَرْبِقْ للنَّدى ... فيُعجِزُ مَنْ يَبْغي مَدى الجُودِ حَدُّهُ

جانس فيه بين «جواد» و«جواد». استخدم ابن فُركون هذا اللّون من المُحسّنات بكثرة فلم تخلُ قصيدة منه، ومن الجناس الناقص قوله[4]:

خَطَبْتُ أَخي مَنْ يَسامُ الوَرى ... فكانَ المُرادُ وكانَ المَرادُ

جانس بين «المُراد» و«المَراد»، وقوله[5]:

يَسْتَرُّ بِمَنْشِئِكَ الغَرّاءِ مَطْلَعُهُ ... تَبارَكَ اللهُ مُنْشِيهِ وَمُطْلِعُهُ

جانس بين «مَطْلَعُهُ» و«مُطْلِعُهُ»، وقوله[6]:

إذا قَرُبَ الإصْباحُ غادَرَ بَعْدَهُ ... فُؤادي يَصْبُو والدُّمُوعُ تَصُوبُ

جانس بين «يَصْبُو» و«تَصُوب».

---

(1) الواظي: الشّعر الأندلسيّ، ص238–240، الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، التّقراط: ابن الجيّاب، ص385–390، والعمعي: ابن زمرك، ص194.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص127.
(3) السّابق، ص135
(4) السّابق، ص140.
(5) السّابق، ص152.
(6) السّابق، ص154.

وقد استخدمه في البيت الواحد غير مرة، كما في قوله[1]:

بمُستبِدٍّ في الحرب كُلَّ مُبَذِّلٍ ... ومُحرِّمٍ إبقاءَ كُلِّ مُحرِّفِ

جانس بين «مبدّد» و«مبذّل» وبين «محرّم» و«محرّف». وقوله[2]:

فلو أمِنَ المأمونُ فازت قِداحُهُ ... وأهدى الرّشيدَ الهديُ وافاهُ رُشدُهُ

جانس بين «أمن» و«المأمون»، وبين «أهدى» و«الهدي»، وبين «الرّشيد» و«رشده».

في هذه الأمثلة وفي كثير غيرها يظهر أثر الجناس الإيقاعيّ من خلال تكرار الكلمات، و«التّجاوب الموسيقيّ الصّادر عن تماثل الكلمات تماثلاً كاملاً أو ناقصًا، تُطرب له الأذن وتهتزّ له أوتار القلوب، فتتجاوب في تعاطف مع أصداء أبنيتها، وهذا يؤكّد بجلاء أهميّة الجناس في خلق الموسيقى الداخليّة في النّصّ الأدبيّ، وبناء ما بين ألفاظه من وشائج النّغيم»[3]، ولعلّ هذا ما دعا إلى اهتمام ابن فُركون بهذا الجانب الموسيقيّ الإيقاعيّ، وكثرة هذا النّوع في شعر المرحلة[4].

كما تظهر في استخدام ابن فركون هذا النّوع من المحسّنات مقدرتُه اللّغويّة على اقتناص الجناسات وتوظيفها بما يخدم المعنى والإيقاع معًا، وقد نوّع كثيرًا في أمثلته، فبرزت فيها مقدرته على الإتيان بكلماته، التي يجانسها فيشتقّ بسهولة ويُسْر ما شاء من جناسات تخدم المعنى والموسيقا معًا.

3 – الطّباق: وهو أن يأتي الشّاعر بالمعنى وضدّه، أو ما يقوم مقام الضدّ، وهو من المحسّنات التي استخدمها شعراء غرناطة كابن الجيّاب[5]، وابن زمرك[6]. واستخدمه ابن فُركون كثيرًا في شعره، ومن ذلك قوله[7]:

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص130.

(2) السّابق، ص135.

(3) انظر: فيّود: علم البديع، ص294.

(4) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسي، ص328، 391، والوائلي: الشّعر الأندلسي، ص240.

(5) انظر: الفقراط: ابن الجيّاب، ص394.

(6) انظر: الحمصي: ابن زمرك، ص192.

(7) ابن فُركون: الدّيوان، ص124.

وَمَنْ ذا يُبالي بالهواجرِ تَلْتَظي ... ونائلُهُ يَرْوي إذا هي تُظْمِئُ

طابق «يروي» و«تُظمئ»، وقوله[1]:

فكُلُّ مَرامٍ أبتغيه مُمَنَّعٌ ... وكُلُّ بعيدٍ أرتجيهِ قريبُ

طابق بين «بعيد» و«قريب»، وقوله[2]:

لنعمَ عبدًا بالسرورِ تبسطُ كفَّهُ ... ليقبضَ بسطَ الرِّزقِ واللهُ رازقُ

طابق بين «يبسط» و«يقبض»، وقوله[3]:

كثيرٌ بمثلِ غورِ الغرابِ اقتحامُها ... قليلٌ إلى ما خلفته التفاتُها

طابق بين «كثير» و«قليل».

وللطّباق، كالجناس، أثره الواضح في موسيقا الشّعر الدّاخليّة، غير أنّ هناك فرقًا بين الطّباق والجناس، من حيث جوهرهما والجرْس اللّفظيّ لكلّ منهما، «فالجناس عامل يظهر أثره في وحدة الجرْس، والطّباق عامل يظهر أثره في تنويع هذه الوحدة»[4].

ولعلّ ابن فُركون أدرك مع شعراء عصره الغرناطيّين، هذا الأمر، فكثر من الطّباق في شعر هذه المرحلة[5].

4 - لُزوم ما لا يلزم: وهو أن يأخذ الشّاعر نفسه بالتزام حروف وحركات في القافية لا تطلّبها قواعد علم القافية، وإنّما يفعل ذلك زيادة في الإيقاع الموسيقيّ للقافية[6].

وهو ممّا يرفد موسيقا الشّعر بعناصر جديدة، وهو من المحسّنات التي استخدمها شعراء

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص155.
(2) السّابق، ص209.
(3) السّابق، ص216.
(4) الطّيّب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، 2/301.
(5) انظر: الحمصي: الشّعر الأندلسيّ، ص391–393.
(6) انظر: أنيس: موسيقى الشّعر، ص304 وما بعدها.

غرناطة كابن الجيّاب(1)، وابن زمرك(2). وقد لجأ ابن فُركون إلى التزام حرف أو أكثر قبل حرف الرّويّ حرصًا منه على توفير أكبر قدر من الموسيقا لشعره، وإبرازًا لمقدرته على النّظم. ومنه قوله في إحدى خمريّاته(3):

دَعِ المِصْبَاحَ وَانْظُرْ يا نَدِيمِي ... لِشَمْسِ الكَأْسِ فِي اللَّيْلِ البَهِيمِ

وقوله في الوصف على لسان إحدى طاقات البناء، الذي أنشأه يوسف الثّالث(4):

أَنَا لِلْحُسْنِ مَرْقَبٌ مَشْهُورُ ... لاحَ فِيهِ المُؤَيَّدُ المَنْصُورُ

وقوله في قصيدة، راجع فيها قاضي الجماعة الشّريفَ أبا المعالي على أبيات وجهها هذا الشّريف إلى الشّاعر(5):

هِيَ الدَّيَارُ فَمَا تَبْدُو بَوَادِيهَا ... إِلاَّ اهْتَدَى كُلُّ مُشْتَاقٍ بِوَادِيهَا

وقوله في قصيدة أخرى، راجع فيها هذا الشّريف على أبيات بعثها إليه، «في شأن الزّيارة، وتجديد المودّة»(6):

خَلِّ عَنِ الطَّلَلِ المُحِيلْ ... مِنْ بَعْدِ حَادِثَةِ الرَّحِيلْ

ولزوم ما لا يلزم من محاسن الشّعر، لأنّ الأذن إنّما تنتظر تكرار حرف الرّويّ، الذي هو ركن أساسيّ في الموسيقا الخارجيّة للقصيدة، فإذا شفع الشّاعر حرف الرّويّ بحرف آخر قبل حرف الرّويّ طربت له الأذن وارتاحت له النّفس.

إنّ هذه الأساليب اللّفظيّة والمُحسّنات المختلفة، من تكرار وجناس وطباق ولزوم ما لا يلزم، وأخرى غيرها؛ تؤمّن للشّعر جمالاً موسيقيًا يؤثّر في المتلقّي، فيسهم - إذ ترتاح له النّفس - في جلاء المعنى وإيضاحه.

---

(1) انظر: النّفراطة: ابن الجيّاب، ص293-394.
(2) انظر: الحمصي: ابن زمرك، ص184-185.
(3) ابن فركون: الدّيوان، ص255.
(4) السّابق، ص275.
(5) السّابق، ص297.
(6) السّابق، ص298، 299.

وخلاصة القول أنّ موسيقا شعر ابن فُركون هي موسيقا شعراء غرناطة، وفيها برز تركيزه واضحًا بما وفّره من موسيقا خارجيّة وأخرى داخليّة، فحرص في الموسيقا الخارجيّة على اختيار البحر، فنحا نحوَ الشّعراء القدماء، وشعراء غرناطة، فنظم أكثر قصائده على البحور الخليليّة، وكانت الطّويلة منها هي الأثيرة عنده، فاستخدم مثل سابقيه ومعاصريه الأوزان المعروفة الشّائعة كالطّويل والكامل والبسيط، وهي البحور التي تصلح للمدح.

وكما برزت عناية ابن فُركون في اختيار الأوزان برزت عنايته كذلك في اختيار قوافيه من خلال اختياره حروفها ونوعها وترتيب أصواتها، ومع أنّه كان شديد العناية بقوافي أبياته، فإنّها لم تخلُ من عيوب تشوبها كالإيطاء.

وفي الموسيقا الدّاخليّة حرص على توفير عناصر موسيقيّة، تمثّلت في عدد من الأساليب والمُحسّنات، وبهذا برز اهتمامه الواضح بشعره وموسيقاه، فطغى اهتمامه بالموسيقا على اهتمامه بالمعنى نفسه، فغدا الشّعر عنده في مُجمله موسيقا، يهمّه أن يطرب أكثر من أن يُعمل الفكْر أو يحرّك العواطف، فكان ينتقي الأوزان ويعتني بالقوافي، ويهتمّ بالحروف والكلمات، فيجانس ويطابق بدقّة ومهارة، حتّى غدا الأمر عنده مَحض قول، في وسعه إنشاؤه بديهة وارتجالاً، فيخرج كما لو أنّه أعمل فيه فكره أو تروّى في صوغه.

4 – الصّورة الفنّيّة

تأتي الصّورة في مقدّمة الأساليب الفنّيّة، التي اعتمدها الشّاعر في التّعبير عن تجاربه وفكره، مُوظّفًا ما تبثّه من دلالات مختلفة، وما تثيره من إحساسات وخيالات وانفعالات، تفتح أمام المتلقّي آفاقًا واسعة للدّخول إلى عالم تجربته الشّعريّة.

وللصّورة أهمّيّة بالغة القيمة تتمثّل «في الطّريقة التي تعرض بها علينا نوعًا من الانتباه للمعنى الذي تعرضه، وفي الطّريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى، ونتأثّر به... تفرض الصّورة على المتلقّي نوعًا من الانتباه واليقظة، ذلك أنّها تُبطِئ إيقاع التقائه بالمعنى،

وتنحرف به إلى إشارات فرعيّة غير مباشرة، لا يمكن الوصول إلى المعنى دونها»[1].

ولمّا كان هذا الفصل يدرس الجوانب الفنّيّة في شعر ابن فركون، وقد ظهرت فيه الصّورة الفنّيّة واضحةً، فقد كان من المناسب الإلمامُ إلمامةً يسيرةً بمفهوم الصّورة في النّقد العربيّ القديم، ثمّ محاولة معرفة مفهوم الصّورة عند بعض المُحْدَثين للوصول من هذا كلّه إلى مفهوم للصّورة الفنّيّة، تقوم على أساسه دراسة الصّورة الفنّيّة في شعر ابن فركون.

ففي تراثنا النّقديّ يستوقفنا ما أورده الجاحظ (255)، عن التّصوير في إطار حديثه عن اللّفظ والمعنى، حيث قال: «والمعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجميّ والعربيّ والبدويّ والقرويّ والمدنيّ. وإنّما الشّأن في إقامة الوزن وتخيّر اللّفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء وصحّة الطّبع، وجودة السّبك، فإنّما الشّعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير»[2].

فالذي يبدو من هذا النّصّ أنّ الجاحظ يرى أنّ الشّعر صناعة كغيره من الصّناعات، مادّتها الخامّ هي المعاني، وشكلها الذي تتّخذه بعد الصّنع يتمثّل في الألفاظ. فالمعاني عنده مطروحة في الطّريق يعرفها الجميع: العربيّ والأعجميّ... فلا شأن لها بمفردها، وإنّما الشّأن للشّكل، الذي تتّخذه بعد النّسج أو التّصوير، الذي يمثّل تجسيد تلك المعاني عن طريق الألفاظ، على أنْ تخضع هذه الألفاظ لوزن معيّن، وأن تُتخيّر بحيث تستوفي المعنى الذي يريده الشّاعر، مع سهولة في مخارج هذه الألفاظ، ووفرة خصائصها الفنّيّة، التي تؤدّي إلى استحسانها وقبولها، وصحّة طبع صاحبها، وجودة سبكها.

غير أنّ الجاحظ - فيما يبدو - لم يعمد إلى جعل التّصوير مصطلحًا فنّيًا، ولكنّه اقتبس هذه اللّفظة «التّصوير» ذات المدلول الحسّيّ لإيضاح مدلول ذهنيّ، يتمثّل هذا المدلول الذّهنيّ في صياغة الألفاظ المعبّرة عن المعاني صياغةً دقيقة بحيث تخرج المعاني في معرض حسن.

وسار قُدامة بن جعفر (337) على نهج الجاحظ، فنظر إلى الألفاظ والمعاني، وقرّر

(1) عصفور، جابر: الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثّقافي العربي-بيروت، ط3، 1992، ص327-328.
(2) الجاحظ: الحيوان، 3/131-132.

«أنّ المعاني كلّها مُعرّضة للشاعر، وله أن يتكلّم منها، فيها ما أحبّ وآثر، من غير أن يُحظر عليه معنًى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادّة الموضوعة، والشّعر فيها كالصّورة»[1]، فالمعاني للشّعر، في رأي قدامة، «مثل الخشب للتجارة، والفضة للصّياغة»[2].

فالشّعرُ عند قُدامة ـ كما هو الشّأن عند الجاحظ ـ صناعةٌ مثل أيّة صناعة، فيها المادّة الخامُ التي تكتسب أهمّيّتها عندما تتشكّل في صورة معيّنة؛ ومن ثمّ فإنّ المعنى الفاحش ـ في رأيه ـ لا يُزيل جودة الشّعر؛ لأنّ المُعوّل عليه هو جودة التّصوير.

وقُدامة ـ مثل الجاحظ ـ لم ينقل التّصوير من إطار الاستخدام في المدلولات الحسّيّة ليصبح مصطلحًا نقديًا فنّيًا؛ بل وقف في ذلك عند حدّ قياس الأشياء ذوات المدلولات الذّهنيّة على الأشياء ذوات المدلولات الحسّيّة.

ونَهج أبو هلال العسكريّ (395) نَهْجَ الجاحظ وقُدامة عندما قرّر أنّ «المعاني مشتركة بين العقلاء، فربّما وقع المعنى الجيّد للسُّوقيّ والنّبطيّ والزّنجيّ، وإنّما تتفاضلُ النّاس في الألفاظ، ورَصْفها وتأليفها ونَظْمها. وقد يقع للمُتأخّر معنًى سبقه إليه المُتقدّم من غير أن يُلمّ به، ولكن كما وقع للأوّل وقع للآخر. وهذا أمرٌ عَرَفْتُه من نفسي، فلستُ أَمْتري فيه»[3].

أورد أبو هلال في هذا النّصّ ما قاله الجاحظ مع شيء من التّصرّف، وإذا كان أبو هلال العسكريّ لم يصرّح بلفظ التّصوير في هذا الموضع، فقد صرّح به في مواضع أخرى، منها قوله: «البلاغةُ كلّ ما تبلغ به المعنى قلب السّامع، فتمكّنه في نفسه، لتمكّنه في نفسك في صورة مقبولة ومعرض حسن»[4].

ويتّضح أنّ الصّورة عند أبي هلال العسكريّ تعني الشّكل المُجسّد الذي تتّخذه المعاني عن طريق الألفاظ، تَحسُن هذه الصّورة إذا احتلّ كلّ لفظ مكانه الصّحيح من النّظم، وإن

---

(1) قُدامة: نقد الشّعر، ص19.
(2) السّابق، ص19.
(3) أبو هلال العسكريّ: كتاب الصّناعتين، ص202.
(4) السّابق، ص16.

اختلّ نظم الكلام شُوّهت الصّورة وتغيّرت الحلية[1].

إلاّ أنّ أبا هلال - كسابقيْه - لم يقصد بلفظ «الصّورة» أن تكون مصطلحًا فنّيًا، وإنّما هي قياس للأشياء ذوات المدلولات الذّهنيّة على الأشياء ذوات المدلولات الحسّيّة.

ولعلّ الذي نقل «الصّورة» من عالم المحسوسات لتصبح مصطلحًا نقديًا للأشكال التي تتشكّل بها المعاني عن طريق الألفاظ؛ هو عبد القاهر الجُرجانيّ (471)، الذي قال: «فلمّا رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصّورة، فكان تَبيُّن إنسان من إنسان وفرس من فرس بخصوصيّة تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك، وكذلك كان الأمر في المصنوعات، فكان تَبيُّن خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك، ثمّ وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقًا عبّرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأنْ قلنا: للمعنى في هذا غير صورته في ذلك»[2].

واستند عبد القاهر إلى مقولة الجاحظ السابقة، حتّى لا يُنكِرَ عليه مُنكِر هذا الاصطلاح، فقال: «وليس العبارة عن ذلك بالصّورة شيئًا نحن ابتدأناه فيُنكره مُنكر، بل هو مُستعمَل مشهور في كلام العلماء، ويكفيك قول الجاحظ: (وإنّما الشّعر صياغة وضرب من التّصوير)»[3].

ولم تكن الصّورة عند عبد القاهر منحصرة في أنواع بعينها، كالتّشبيه والاستعارة والتّمثيل والكناية، إنّما هي الألفاظ من حيث هي أدلّة على معانٍ، لا من حيث هي «نطق اللّسان وأجراس الحروف»[4]، وهذه المعاني نوعان: نوع تصل إليه «بدلالة اللّفظ وحده»[5]، من حيث موضعه في اللّغة، ونوع آخر لا تصل إليه بدلالة اللّفظ مباشرة، ولكنّ اللّفظ يدلّنا على معنى، وهذا المعنى يدلّنا على معنى آخر «ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة

---

(1) أبو هلال العسكريّ: كتاب الصّناعتين، ص167-168.
(2) الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، ص462-463.
(3) السابق، ص463.
(4) السّابق، ص438.
(5) السّابق، ص272.

والتّمثيل»[1].

فيمكن إذن القول: إنّ الصّورة عند عبد القاهر نوعان: يتمثّل الأوّل في الألفاظ، من حيث هي أدلّة على معانٍ مباشرة، أو لنقل ألفاظ ذوات دلالات معجميّة محدّدة. ويتمثّل الثّاني في الألفاظ، من حيث هي أدلّة على معانٍ، وهذه المعاني تدلّ على معانٍ أخرى.

وقد أولى عبد القاهر عنايته للمعاني التي رأى أنّ محاسن الكلام تكون بها، فدرس التّشبيه والتّمثيل والاستعارة، لأنّها كما يرى «أصول كبيرة كأنّ جلّ محاسن الكلام ـ إذا لم نقل كلّها ـ متفرّعة عنها راجعة إليها، وكأنّها أقطاب تدور عليها المعاني في مُتصرّفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها»[2]. ولم يكن درس عبد القاهر مقصورًا على هذه الأشياء؛ بل درس الكناية والمجاز، ودرس الإسناد والتّقديم والتّأخير، والإيجاز، والإطناب وغير ذلك.

وفي النّقد الأدبيّ الحديث سادت ثنائيّة الشّكل والمضمون نتيجة سيطرة النّظرة العقليّة على النّقد الكلاسيكيّ، وأصبحت الاعتبارات الشّكليّة هي التي تحظى باهتمام الشّعراء والنّقّاد[3]؛ ومن ثَمّ جاء الاهتمام بالصّورة الجزئيّة الجامدة، التي لا حياة فيها، والتي اجتمعت فيها المُتشابهات نتيجة قانون التّداعي ليس غير، إلى أن جاء الرّومانسيّون بنظريّة الخيال، فأخذ مفهوم الصّورة ينحو منحًى جديدًا، غير منحصر في الأشكال البيانيّة أو في الزّخرف الذي يُضفي على النّصّ الشّعريّ جمالاً شكليًّا، أو في الألفاظ من حيث هي أدلّة على معانٍ، ولكنّ الصّورة أصبحت تعني كلّ هذه الأشياء وغيرها بعد أن يمزجها الشّاعر بعواطفه وانفعالاته، ويضفي عليها من خياله، فالخيال «هو الذي يولّد الصّور، والصّورُ وسائل تجسيم المشاعر والأفكار»[4].

وقد تأثّر النّقّاد العرب المُحدثون بهذين الاتّجاهين في النّقد الحديث، فضلاً عن تأثّرهم بالنّقد العربيّ القديم، فجاءت تعريفاتهم للصّورة مختلفة، فقد ذهب الدّكتور مصطفى

---

(1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص272.
(2) الجرجاني: أسرار البلاغة، ص27.
(3) انظر: بدوي، مُحمّد مصطفى: كولردج، دار المعارف–القاهرة، د.ت، ص49.
(4) هلال، مُحمّد غنيمي: الأدب المقارن، دار الثّقافة–بيروت، ط5، د.ت، ص381.

ناصف إلى أنّ كلمة الصّورة تُستعمل عادةً «للدّلالة على كلّ ما له صلة بالتّعبير الحسّيّ، وتُطلَق أحيانًا مُرادفةً للاستعمال الاستعاريّ للكلمات»(1).

أمّا الدّكتور إحسان عبّاس فإنّه لم يحصرها في التّعبير الحسيّ أو الاستعارة، ولكنّه رآها تمثّل «جميع الأشكال المجازيّة»، ورأى الاتّجاه إلى دراستها «يعني الاتّجاه إلى روح الشّعر»(2).

وذهب الدّكتور مُحمّد غنيمي هلال مذهبًا آخر، حيث لم يشترط مجازيّة الكلمة أو العبارة لتشكيل الصّورة؛ بل رأى أنّ العبارات الحقيقيّة قد تكون دقيقة التّصوير خصبة الخيال، وإن لم تتوسّل بوسائل المجاز، فقال بعد أن انتهى من حديثه عن الصّورة في المذاهب الأدبيّة: «وضح من كلامنا... أنّ الصّورة تلزم ضرورةً أن تكون الألفاظ أو العبارات حقيقيّة الاستعمال، وتكون مع ذلك دقيقة التّصوير، دالّة على خيال خصب»(3)، وصرّح الدّكتور مُحمّد غنيميّ هلال أنّه أفاد من التّراث الإنسانيّ في تحديد مفهوم الصّورة(4).

ومِنَ الباحثين المُحدثين مَنْ رأى أنّ تعريف الصّورة ينبغي أن يبدأ من اللّغة، انطلاقًا من أنّ الظّاهرة الشّعريّة في حقيقتها، ظاهرةٌ لغويّة «لا سبيل إلى التّأتّي إليها إلاّ من جهة اللّغة، التي تتمثّل فيها عبقريّة الإنسان، وتقوم بها ماهيّة الشّعر»(5)، والشّاعر يتوسّل باللّغة ليصوّر ما بداخله من عوالم، إلاّ أنّ الشّاعر ليس كغيره من أفراد الجماعة؛ لأنّه يتميّز بحساسيّة وذكاء، وانفعالٍ عميق أمام المواقف، ولهذا تكون له رؤيته الجماليّة التي تتجاوز الأشياء في علاقاتها الثّابتة والمنطقيّة؛ ومن ثمّ فإنّ الشّاعر يريد أن يشكّل موقفه من واقعه وفق رؤيته الخاصّة، لكنّه يجد اللّغة برتابتها ومنطقيّتها حائلاً دون تدفّق مشاعره، وتشكيل مواقفه، فيحاول زلزلة علاقات اللّغة، وإقامة علاقات لغويّة جديدة، تجسّد خبرته الجماليّة، وحقائقه النّفسيّة

(1) ناصف، مصطفى: الصّورة الأدبيّة، دار الأندلس–بيروت، ط3، 1983، ص3.
(2) عبّاس، إحسان: فنّ الشّعر، دار الثّقافة–بيروت، (د.ت)، ص238.
(3) هلال، مُحمّد غنيمي: النّقد الأدبيّ الحديث، دار الثّقافة–بيروت، 1973، ص457.
(4) انظر: السّابق، ص458، 459.
(5) عبد البديع، لطفي: التّركيب اللّغويّ للأدب (بحث في فلسفة اللّغة والإستطيقا)، دار المريخ–الرّياض، 1989، ص7، 8.

والفكريّة والاجتماعيّة، وهذا ما أطلق عليه بعض الباحثين الصّورة الشّعريّة[1]، وعرّفها على أساسه بأنّها «جوهر الشّعر وأداته القادرة على الخلق والابتكار، والتّحوير والتّعديل لأجزاء الواقع، بل اللّغة القادرة على استكناه جوهر التّجربة الشّعريّة، وتشكيل موقف الشّاعر من الواقع وفق إدراكه الجماليّ الخاصّ»[2].

وعرّفت بشرى موسى صالح الصّورة بأنّها «التّركيبة اللّغويّة المُحقّقة من امتزاج الشّكل بالمضمون في سياق بيانيّ خاصّ أو حقيقيّ موحٍ كاشف، ومعبّر عن جانب من جوانب التّجربة الشّعريّة»[3].

وذهب الدّكتور عبد القادر القطّ إلى أنّ الصّورة في الشّعر «هي الشّكل الفنّيّ الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشّاعر في سياق بيانيّ خاصّ ليعبّر عن جانب من جوانب التّجربة الشّعريّة الكاملة في القصيدة، مُستخدمًا طاقات اللّغة وإمكاناتها في الدّلالة والتّركيب والإيقاع، والحقيقة والمجاز، والتّرادف والتّضادّ، والمقابلة والتّجانس، وغيرها من وسائل التّعبير الفنّيّ»[4]، وأضاف إلى هذا التّعريف قوله: «والألفاظ والعبارات هما مادّة الشّاعر الأولى، التي يصوغ منها ذلك الشّكل الفنّيّ، أو يرسم بها صوره الشّعريّة»[5].

وهذا التّعريف هو الذي أقف عنده، وأنطلق منه لدراسة الصّورة في شعر ابن قُركون، ذلك لأنّ الدّكتور عبد القادر القطّ لا يحصر الصّورة في كلّ ما له صلة بالتّعبير الحسّيّ، ولا يجعلها مُرادفة للاستعمال الاستعاريّ، ولا يشترط مجازيّة الكلمة لتشكيلها، بل يدخل الألفاظ والعبارات بإيحاءاتها وتراكيبها في صميم الصّورة، التي تعبّر عن جانب من التّجربة الشّعريّة، فليس من الضّرورة أن يكون التّعبير مزخرفًا لكي يكون جميلاً «فإنّ التّعبير

---

(1) انظر: الجبار، مدحت سعد محمّد: الصّورة الشّعريّة عند أبي القاسم الشّابيّ، الدّار العربيّة للكتاب-ليبيا، 1984، ص5، 6.

(2) السّابق، ص6.

(3) صالح، بشرى موسى: الصّورة الشّعريّة في النّقد العربيّ الحديث، المركز الثّقافيّ العربيّ-بيروت، ط1، 1994م، ص20.

(4) القطّ، عبد القادر: الاتّجاه الوجدانيّ في الشّعر العربيّ المعاصر، دار النّهضة العربيّة-بيروت، ط2، 1964، ص391.

(5) السّابق، ص391.

المناسب إذا كان مناسبًا كان جميلاً كذلك، لأنّ الجمال ليس إلاّ القيمة المُحدّدة للتّعبير، وبالتّالي للصّورة»[1].

في ضوء هذا التّعريف سأدرس الصّورة في شعر ابن فُركون، الذي أبدع صورًا فنّيّة، جسّدت ما كان يجول في نفسه، وكانت أثرًا لما ارتسم في خياله، استقاها حينًا من التّراث الضّخم، الذي خلّفه الشّاعر القديم، واستقاها حينًا آخر، ممّا أحاط به في بيئته في عصره.

وشعرُ ابن فُركون غنيٌّ بالصّور، شأنه في ذلك شأن الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ[2]، وقد تعدّدت مصادر الصّورة لدى ابن فُركون، وتنوّعت لتشمل تلك الأشياء التي عايشها الشّاعر حقيقةً في حياته المعاصرة، كما تشمل تلك الأشياء التي عايشها بثقافته وقراءات له من خلال دراسته لأشعار القدماء وإعجابه بها وحفظه لها ولاسيّما أنّ ابن فُركون ينتمي إلى عصر الاضطرابات والهزائم، فكان بحاجة حقيقيّة لتثبيت وجوده وكيانه من خلال استلهامه الماضي، واستيحاء كثير من تفاصيله.

استلهم ابن فُركون التّراث وتمثّله في مدائحه، فصوّر الدّيار وترسّم خُطى أسلافه في الوقوف على الطّلل، متأثّرًا بهم، فعاش الصّورة في خاطره، ووعاها في ذاكرته من دون أن يحياها حقيقة. تمثّل ابن فُركون عناصر الصّورة القديمة ووجد في مخاطبة الصّاحبيْن والخليليْن على عادة الشّعراء السّابقين سبيلَه إلى الدّخول إلى عالم القصيدة، فقال[3]:

أَلا يا خليليَّ انْزِلا ساحةَ الحمى ... ومُرّا على رَبْعها بالرّكاب وعرِّجا

لتَهْتدي بها والنّجْمُ في غَرَضاتها ... يَخُبّا بما يُهْدي جَنى ونأرّجا

وفي قصيدة أخرى استوقف صاحبه، ولعلّه عنى به نفسه، فقال[4]:

قِفْ بالرّكاب ساعةً واستوقفِ ... تَخُطّ الرّكابُ خُطى باطْراف مَرْقَف

(1) كروتشه، بندتو: المُجمل في فلسفة الفنّ، ترجمة سامي الدّروبي، مطبعة الأوابد-دمشق، ط2، 1964، ص75.

(2) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص343، وما بعدها.

(3) ابن فركون: الدّيوان، ص193.

(4) السّابق، ص129.

وارْبَعْ بها دِمَنًا ألِفْتُ بها الهوى   أكْرِمْ بها مِنْ مَرْبَعٍ أوْ مَألَفِ

وإذا كان الشّاعر القديم قد استوقف صحبه ليصف أطلالَ ديارٍ بالية، فإنّ ابن فُركون قد استوقف صاحبه على ربع عامر بالحياة، وهذا من تأثير الحياة الأندلسيّة في فكر الشّاعر الأندلسيّ، وخياله وصوره[1]:

راقَتْ محاسِنُها ورَقَّ نسيمُها   فالرَّوْضُ بَيْنَ مُؤرَّجٍ ومُفوَّفِ[2]

تَسْري الصَّبا بِسُحَيْرَةٍ حيْنَ تَميلُهُ   فالغُصْنُ بيْنَ تَعَطُّرٍ وتَعَطُّفِ

وفي عليلِ نسيمِها لمْ أشْتَفي   والقلبُ مِنْ ألَمِ الصَّبابةِ يَشْتفي

وساعدت التّشكيلات اللّغويّة للصّورة في إبراز جمالها «رقّ نسيمها»، «تسري الصّبا»، كما أسهم التّنوّع في قوله: «بين مؤرّج ومفوّف» و«بين تعطّر وتعطّف» في رسم صورة غنيّة بالحركة والرّائحة واللّون، معبّرة أصدق تعبير عن الطّبيعة الأندلسيّة الجميلة.

وبعد أن رسم ابن فُركون صورة هذه الدِّمَن التي وقف هو وصاحبه عليها التفت فخاطب أهل نجد، بقوله[3]:

يا أهْلَ نَجْدٍ هلْ لنا في حَيِّكُمْ   أوْ حُبِّكُمْ مِنْ مُسْعِدٍ أوْ مُسْعِفِ

فإلى مَعاهِدِكُمْ أطَلْتُ تَشَوُّقي   وعلى عُهودِكُمْ عَطَفْتُ تَشَوُّفي

ولعلّ ابن فُركون كان يكرّر أسماء الأشخاص والمواضع على عادة الشّعراء، «لإشاعة لون عاطفيّ غامض، يقوّي الصّورة التي عليها بُنيت القصيدة»[4]، ويبدو أنّه قد فطن كما فَطِنَ الإسلاميّون الأوائل «إلى ما في تسمية المواضع من تأثير سحريّ، وإلى قوّة اللّون العاطفيّ، الّذي تُشيعه في المُقدّمات النّسيبيّة، وإلى عنصر اللاّواقعيّة المُلابس لها، وإلى

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص129.

(2) مُؤرَّج: من الأرج، وهو نفحة الرّيح الطّيّبة، ومُفوّف: من قولهم: «بُرْدٌ مفوّف»، وهو الرّقيق أو ما فيه خيوط بيض. انظر: لسان العرب، مادّة (أ ر ج)، ومادّة (ف و ف).

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص129.

(4) الطّيّب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، 90/2.

عنصر الحنين الخالص، الذي يخاطب الوهم فيها، فحفّزهم هذا على الإكثار منها في أشعارهم، مع تعمّد البعد عن حقيقة الشعر والجغرافيا فيما يكرّرونه من أسمائها[1]. ومن استخدامه أسماء المواضع ما جاء في قوله[2]:

سَلْ بالغميم معاهدًا لم أنسها ... أتعهدُ أيّام التواصل أنسَها

أبدتْ لديك من التعاطف مُلْذها ... أهدتْ إليك من التراشف نَفْسها

ولعلّ ابن فُركون كان يسعى إلى الاستفادة من تأثير التجربة العاطفيّة، التي عاشها أسلافه، فأراد توظيفها في شعره ليحقّق في سامعيه أثر التّجربة، التي ركزت في أذهانهم على المدى الطّويل لاستخدامها.

ترسّم ابن فُركون خُطا السّابقين في الوقوف على الدّيار والبكاء عليها، فقال[3]:

دَعُوا أدْمُعي تهمي مَعَ بَحَلِ الحِمَى ... وأَعْطِفْ زِيمَا للحَبيب تَجُودُهُ

ألا يا لِبَي تلك المعاهد إذْ بِها ... لَنَا عَهدُ أُنسٍ قد تقضّى حميدُهُ

على أنْ رَبْعَ الصّبْرِ بعْدَكَ قَدْ عَفَا ... تُهالُهُ قد أقفرتْ وَنُجُودُهُ

وَحَلّتْ عَنِ الأوْطانِ فالرّبْعُ لَمْ نَجِدْ ... مَعاهدَ ذاكَ الأنسِ إلاّ عُهُودَهُ

وقد تتبّع ابن فُركون عناصر الصّورة القديمة، فتحدّث عن الوَجناء والفلاة والقفر والسّراب والكثيب والعيس والظّعائن[4]، ومع أنّه لم يعايش هذه العناصر ولم تكن ابنة البيئة؛ فقد وقف عندها وذكرها في شعره، غير أنّ وقوفه لم يكن كوقوف الجاهليّين عليها، وتتبّعهم لتفاصيلها ودقائقها، ومن هذا قوله[5]:

وَفَوقَ مُتُونِ العِيسِ رَكْبٌ حَدا بِهِمْ ... إلى المُلتقى نَصُّ المَسيرِ وَوَخْدُهُ

(1) العُنيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، 2/95.

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص145.

(3) السابق، ص141.

(4) انظر: السابق: ص105، 126، 134، 137، 164-165، 173، 176-177، 184، 193.

(5) السابق، ص134.

يَمِيلُونَ لِلذِّكْرَى كَأَنَّ وُرُودَهَا   نَسِيمٌ بِهِ مَالَتْ مِنَ الدَّوْحِ مُلْدُهُ

يَقُولُونَ: مَا بَالُ المَطَايَا ضَوَامِرًا؟   وَلَوْلَا نُحُولُ السَّيْفِ مَا رَاعَ حَدُّهُ

وَمَا وِرْدُهَا عَذْبٌ إِذَا لَمْ يَبِنْ لَهَا   عَلَى كَثَبٍ بَانُ العُذَيْبِ وَرَنْدُهُ

تموج هذه الصّورة بالحركة بما يظهر فيها من الأفعال «حدا، يميلون، مالت، يقولون، باده»، وتتعدّد العناصر فيها «العيس، المطايا، العُذيب»، وهي عناصر بدويّة حجازيّة، تتضافر فيما بينها لتعطي هذه الصّورة بُعدها التّقليديّ، غير أنّها لا تعدو أن تكون مشهدًا سريعًا، يعرضه ابن فُركون في قصيدته، تمهيدًا للوصول إلى غرضه.

كرّر ابن فُركون صوره في مُقدّمات القصائد، ولعلّه سعى إلى ذلك «لأنّ المُقدّمات إنّما هي أبدًا تمهيدٌ وتهيئة، ويعمد فيها الشّعراء إلى خلق أجواء عاطفيّة يخلصون منها إلى أغراضهم، وفي الشّعر العربيّ خاصّة تجد المُقدّمات أغلبها ذاتَ صورة تقليديّة واحدة وهي النّسيب أو ما بمجراه من غناء حزين»(1). ولمّا كانت هذه الصّور التّقليديّة غايتها التّأثير في المُتلقّي، فإنّ «النّسيب العربيّ وما بمجراه من المُقدّمات الغنائيّة الحزينة، كلّ ذلك يجد في التّكرار وسيلة قويّة التّأثير لاقتراح اللّون العاطفيّ الحزين، أو الهائم أو الطّرب الذي تُراد إشاعته في الأسماع والقلوب قبل بلوغ الغرض»(2).

وإذا كان ابن فُركون قد استمدّ عناصرَ صورِ مقدّماته من معجم البداوة الذي نهل من ينابيعه من خلال قراءته أشعار القدماء، وحفْظها، فوقف على أطلال لم يرها، وقطع فيافي وقفارًا في رحلة خياليّة، حرص على بداوتها، مُتمثلاً النّموذج التّقليديّ الذي أعلى من شأنه؛ فإنّه لم يكن بمعزل عن عصره وحياته الخاصّة، فقد رسم كثيرًا من الصّور الحضاريّة، التي صدر فيها عن روح العصر، ومعالم الحياة السّياسة التي شهدها، ووثّق بالصّور ما كانت تمور به الحياة السّياسيّة من حركة.

شعر ابن فُركون وثيقة رصد فيها جوانب من حياة غرناطة بالصّور، وإذا أراد ابن فُركون

(1) الطّيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب، 2/89-90.
(2) السّابق، 2/90.

أن يصوّر غرناطة، فليس في وسعه تجاهل ملكها، الذي عبّر ابن فُركون في شعره عن شدّة تعلّقه به، فصوّره في صور كثيرة في مدائحه، ولم تخلُ مدْحة من مدائحه من صورة ليوسف، صوّر فيها جماله وكرمه وشجاعته، فتداخلت الصّور وكثرت وتكرّرت.

سعى ابن فُركون من خلال تصويره هذا إلى تحسين صورة الملك، فصوّر جماله، وشبّه الشّمس والقمر والصّبح بوجهه، ومن ذلك قوله(1):

كـأنّ طُـلـوعَ الـبـدْرِ عـنـدَ تـمامـه	ضُحيًّا ابـنِ نصْرٍ والـكواكبُ جُنـدُهُ
كـأنّ الضُّحى وَجْـهُ الخليفة يُوسُفٍ	ومـا احْمرّ فيه مِنْ سنا الفجْرِ بنْدُهُ
كـأنّ سَنا الأُفْـقِ المُـوَرَّدِ سَيْفُهُ	وقـدْ راقَ مِنْ تحْتِ النُّجومِ فِرِنْدُهُ

وتقوم هذه الصّورة الكلّيّة على ثلاث صور جزئيّة، عمادُ كلّ واحدة منها التّشبيه، وقد عمد إلى تكراره كعادته، وعقد التّشبيه بين طرفيه «المشبّه»، وقد استمدّ عناصره من الطّبيعة «البدر، الكواكب، الضّحى، الفجر، الأفق»، و«المشبّه به»، وهو يوسف وما يخصّه أو ينتمي إليه، «ضُحيًّا ابن نصر، جنده، وجه الخليفة، بنده، سيفه، فرنده»، جاءت هذه الصورة وقد تضافرت العناصر فيها لتضفي على يوسف هيبةً وجلالاً.

ومن الأبعاد الجماليّة التي أضفاها ابن فُركون على ممدوحه يوسف الثّالث أنّه كثيرًا ما أشار إلى النّبيّ يوسف عليه السلام، وقد وجد في اسم الملك يوسف ما يربطه باسم النّبيّ يوسف عليه السلام، فكان هذا يقوده إلى حديثه عن جمال الملك يوسف الثّالث الذي يحاكي جمالَ النّبيّ يوسف عليه السلام، وفي هذا قال(2):

حَكى يُوسُفَ في الحُسْنِ وَالمُلْكِ يُوسُفًا	فـغرناطـةٌ مِـصْـرٌ وَجَـدْواهُ نِيلُها

سعى ابن فُركون من خلال الصّورة إلى إقناع المتلقّي والتّأثير فيه، وقد تحقّق له ذلك عن طريق المبالغة في المعنى، و«المبالغة تعدّ وسيلة من وسائل شرح المعنى وتوضيحه، عندما

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص134.
(2) السّابق، ص221.

يُراد بها مجرّد تمثيل المعنى أو تأكيد بعض عناصره الهامّة»[1]. ومن مبالغاته في تصوير الملك قوله[2]:

أنسيتَ أملاكَ الزّمانِ مناقبًا ... والشُّهبُ يُخفيها الصّباحُ فتختفي

فإذا نهيتَ الدّهرَ أذعنَ صاغرًا ... وإذا أمرتَ النّصرَ لم يتوقّفِ

وإذا أجلتَ الخيلَ خلفَ العدا ... صرعى ونصرُ الله لم يتخلّفِ

ظهرت المبالغة في هذه الصّورة من خلال التّشبيه الضّمنيّ في البيت الأوّل، والاستعارة في البيت الثّاني، وجاءت لتعبّر عن قدرة الملك وسطوته، لقد «أدرك النّقّاد أنّ الشّعراء الذين كانوا يصنعون الشّعر لم يكن لهم بدّ من أن يصطنعوا المشاعر، وأنّهم في محاولتهم إرضاء ممدوحيهم يعمدون إلى قدر غير يسير من المبالغة، فبحث النّقّاد هذه المبالغة، وعالجها غير واحد منهم، على أنّها ضرورة تفرضها الوظيفة الاجتماعيّة للشّعر»[3].

كان ابن فركون يسعى من خلال صوره إلى إبراز شخصيّة الملك في أحسن صورة ممكنة، فصارت الصّورة وسيلة للتّحسين، أراد من خلالها ترغيب المتلقّي فيه، ويحقّق الشّاعر هذه الغاية من خلال ربط المعاني الأصليّة بمعان أخرى مماثلة، لكنّها أشدّ حُسنًا، فَسَرَت صفات الحُسن من المعاني الثّانويّة إلى المعاني الأصليّة[4].

صوّر ابن فركون يوسف الثّالث، ورصد مواقف كثيرة من حياته، وكان من الطّبيعيّ أنّ يصوّر حروب يوسف، ومعاركه البرّيّة والبحريّة، وحملت صوره تهديدًا ووعيدًا، ليخيف أعداء يوسف الذين يترصّدونه للإيقاع به وبمملكته، ومن صوره الكثيرة قوله[5]:

لقد كشفتْ عن ساقِها الحربُ وانثنتْ ... كما سفرتْ بلقيسُ عن لجّةِ الصّرحِ

ولمّا وضعتْ أوزارَها بعدَ هزمةٍ ... ثنتْ منهمُ الأكبادَ داميةَ الجرحِ

(1) عصفور: الصّورة الفنّيّة، ص343.
(2) ابن فركون: الدّيوان، ص130.
(3) عصفور: الصّورة الفنّيّة، ص345.
(4) انظر: السّابق، ص353.
(5) ابن فركون: الدّيوان، ص182.

فلِلَّهِ منها حين ثابوا وأصلحوا   صِفاحٌ ثنتها عنهمُ عادةُ الصَّفحِ

فما شَرعتْ سُمْرُ القنا في الطَّعنِ شِرْعةً   ولا أُعمِلَتْ بِيضٌ تُوكَّلُ بالمنحِ

صوّر ابن فُركون الحرب وجسّدها في البيت الأوّل «كشفت عن ساقها الحرب»، ليعبّر عن اشتداد الأمر، وقرنها بصورة بلقيس، كما جاء في الآية القرآنية: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44) ﴾[1].

وصوّر ابن فُركون في شعره الحرب وأدواتها وآلاتها، فذكر السّيوف والرّماح والقسيّ، كما ذكر الفرسان والخيل، التي ركّز في صوره عليها في مواطن كثيرة من ديوانه، فغدت موضوعًا كاملًا[2]، ومن هذا قوله[3]:

لولا انتسابُ خيولها نُسِبَتْ إلى   هُوجِ الرّياحِ ولم تُخالفْ جِنسَها

تختالُ زهوًا في أعنّةِ سيرِها   مثلَ النّدامى قد أدارتْ كأسَها[4]

لتحُلَّ حضرةَ ناصرِ الدّينِ الذي   يحلي علاه اللهُ شرّفَ قدسَها

أضفى عليها الحُسنُ خِلعتَهُ التي   لم تستطعْ أيدي النّوازلِ لمسَها

فإذا أحسَّ الرّومُ منها غارةً   كادتْ تُدرِكُهُمْ تُفارِقُ حِسَّها

عبّر ابن فركون في هذه الصّورة عن قوّة الخيل ونشاطها، وشخّصها بإضفاء صفات إنسانيّة عليها، وبرز في هذه الصّورة عنصر المبالغة، الذي لم تخلُ منه صور ابن فركون معظمُها، ومن النّقّاد القدامى مَنْ أكّد «أنّ الشّاعر مضطرٌّ إلى المبالغة اضطرارًا، خاصّة في المديح والهجاء، وما يتّصل بهما»[5].

---

(1) النمل، 44. صرحٌ مُمرَّدٌ: بناء مصقول أملس. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (م ر د).

(2) انظر: ابن فركون: الدّيوان، ص170، 175، 181، 187–188.

(3) السّابق، ص146.

(4) جاء في الدّيوان: «تحتال»، ولعلّ الصّواب ما أثبتُّه، وبه يستقيم المعنى.

(5) عصفور: الصّورة الفنّيّة، ص346.

وصوّر ابن فركون إلى جانب المعارك البريّة المعارك البحريّة، التي كان يوسف يخوضها في مواجهة أعدائه الإسبان، فرصد بعين بصيرة وخيال خصب صور هذه المعارك، ونظمها في مشاهد شعريّة، ومن هذا قوله في تصوير أساطيل يوسف الثّالث التي أرسلها في البحر(1):

وأرسلتَ في البحرِ الأساطيلَ نُزَّعًا ... تُراوحُ أقطارَ العدا وتُباكرُ

تُراوغُ بعضٌ بعضَها متلاعبًا ... كما لعبتْ وسْطَ الفلاةِ جآذرُ

وقد جلّلوها بالسّوادِ كأنّما ... تجاذبُها هُدْبٌ وهنّ نواظرُ

وتطفو حبابُ الماءِ في جنباتِها ... كما تفتّحتْ وسْطَ الرّياضِ الأزاهرُ

هذه الصّورة الكلّيّة مُركّبة من صور جزئيّة، عبّر فيها من خلال الفعلين «تراوح وتباكر» عن استعداد السّفن الدّائم للمواجهة، وقدرتها على السّيطرة، وظهرت في البيت الثّاني جآذر تمرح في وسط الفلاة، وهذا يدلّ على خفّتها وسرعتها ونشاطها، وحركتها المستمرّة في المعركة، وتكتمل هذه الصّورة بصورة الحباب الذي يطفو على وجه الماء، ويتطاير من حول السّفن، يشبه في هذا كلّه الأزاهر التي تفتّحت وسط الرّياض.

وثّق ابن فركون بالصّور ما كانت تمور به الحياة السّياسيّة من حركة، وكان يسعى من خلال صوره إلى تأكيد موقف، له أهمّيّته ومغزاه، ولهذا كان يرصد– وهو يشهد منازعات يوسف الثّالث مع جيرانه المغاربة والإسبان– مواقف يعمل على تسجيلها صورًا في شعره، ومن هذا ما قاله يصوّر الملك الإسبانيّ وما حلّ به من ذلّ وهوان(2):

لـذاك عنزُ التّيسِ زوجُ سريّةٍ ... بحيثُ حكى خفقَ البنودِ فؤادَهُ

كأنْ بواليْ الكفرِ قد خابَ سعيُهُ ... وكفَّ التّلافي بغيَهُ وعنادَهُ

كأنّي به قد سارَ والسّيفُ خلفَهُ ... وخلّفَ للفتحِ المبينِ بلادَهُ

ولمْ يتّخذْ إلّا الفرارَ وليجةً ... ولمْ يدّخرْ إلّا السّلامةَ زادَهُ

---

(1) ابن فركون: الدّيوان، ص199.

(2) السّابق، ص158.

سعى ابن فُركون إلى إبراز صورة الملك المهجوّ ذليلاً مُهانًا فارًا من أرض المعركة، فصارت الصّورة وسيلة للتّقبيح، وأراد من خلالها تنفير المتلقّي منها.

ومع أنّ ابن فُركون اعتنى بتصوير غرناطة، غير أنّه أغفل تصوير طبيعتها الجميلة، ولم يتّخذها موضوعًا مستقلاً، ومع ذلك فقد صوّر في عدد من قصائده مشاهد للطّبيعة، بعث فيها الحركة والحياة، ومن هذا قوله[1]:

وَكَمْ تَمَايَلَتِ الغُصُونُ بِدَوْحِهَا ... لَمَّا أَدَارَتْ سُحْبُهَا جِرْيَالَهَا[2]

مَا لاحَتِ الغُدْرَانُ فِيهِ دَوَارِعًا ... حَتَّى أَرَتْكَ الذَّارِيَاتُ صِقَالَهَا

شَقَّ النَّسِيمُ جُيُوبَهُ فِيهَا وَمِنْ ... وَشْيِ الرَّبِيعِ قَدِ اكْتَسَتْ سِرْبَالَهَا

فَهِيَ الرُّبُوعُ تَزِينُهَا مُتَوَسِّدٌ ... أَوْ وَارِدٌ أَنْهَارَهَا وَظِلالَهَا

لِلْمُجْتَنِي إِنْ شِئْتَ أَوْ لِلْمُجْتَلِي ... عُرُسٌ تُنِيلُ أَخْمَالَهَا وَجَمَالَهَا

تضافرت عناصر الطّبيعة في هذه الأبيات «الغصون، السّحب، الغدران، النّسيم، ...»، لترسم لوحة جميلة، بما بعثه الأفعال «تمايلت، أدارت، لاحت، شقّ، ...» من حركة وحيويّة من خلال تشخيص عناصرها بإضفاء الصّفات الإنسانيّة عليها.

وممّا قاله يصف الطّبيعة أيضًا[3]:

وَرَوْضٍ سَرَى الآصَالُ قَدْ خَلَتِ النَّبَا ... لَدَيْهِ وَعَهْدُ الأُنْسِ أَحْكَمَ عَقْدَهُ

كَأَنَّ الرُّبَا وَالنَّوْرُ فَوْقَ بِطَاحِهَا ... لآلِئُ فِي جِيدٍ تَنَاثَرَ عِقْدُهُ

كَأَنَّ النَّسِيمَ اعْتَلَّ فِيهَا وَقَدْ أَتَى ... رَسُولاً فَلَمْ يُمْكِنْ عَلَى البُعْدِ رَدُّهُ

كَأَنَّ وَمِيضَ البَرْقِ يَتْلُو غَمَامَهُ ... دُجَى فَيُوَارِيهِ مِنَ السُّحْبِ غِمْدُهُ

كَأَنَّ ضِيَاءَ الفَجْرِ سَيْفٌ مُشَهَّرٌ ... مَتَى انْتَزَعَ اللَّيْلُ البَهِيمُ يُغْمِدُهُ

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص116.

(2) الجريال: الخمرة الشّديدة الحمرة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ج ر ل).

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص134.

كأنّ نجومَ الأفقِ جيشٌ مُخلّفٌ   تواريه في نهرِ النّهارِ وردةٌ

كأنّ طلوعَ البدرِ عندَ تمامِهِ   مُحيّا ابنِ نصرٍ والكواكبُ جُندُهُ

رسم ابن فُركون في هذه الأبيات لوحة جميلة للرّوض، ركّز فيها على عناصر الطّبيعة «الزّبا والنّور، النّسيم، وميض البرق، ضياء الفجر، نجوم الأفق»، التي أسهمت معه في رسم هذه اللّوحة، وكان عمادها التّشبيه، الذي كرّره مرّات، وصوّر من خلاله في كلّ مرّة صورة مستقلّة، وظّفها مجتمعة في صياغة هذا المشهد الطّبيعي الجميل، وخلص من خلاله إلى مدح الملك يوسف الثّالث.

وإذا كان للصّورة جانب نفعيّ مباشر، فإنّ لها جانبًا آخر يتمثّل في تحقيق المتعة الشّكليّة، وعندما يهدف الشّعر إلى تحقيق هذه المتعة «فإنّه لا يُعنى كثيرًا بتوجيه سلوك المتلقّي أو مواقفه، فلا يقدم له إلاّ نوعًا شكليًّا من المتعة، هي غاية في ذاتها، وليست وسيلة لأيّة غاية أخرى، وأوضح ما يظهر ذلك في شعر الوصف، عندما يُقصد به مجرّد الإتقان في المحاكاة، وطرافة التّصوير، أو غرابة التّشبيه»(1).

ولابن فُركون كثير من الصّور، التي لم يحقّق من خلالها، إلاّ مجرّد استمتاع حسّيّ بتصوير الأشياء، وهذا ما يتجلّى - مثلاً - في وصفه للذّواة، التي وهبها إيّاه الملك، فقد قال في تصويرها(2):

حَلْيٌ زَهَتْ التي أضحت حلائبُها   يروقُ منهُ اللُّجينُ المحضُ والذّهبُ

وهِنتُها قُبّةٌ صفراءُ قد جُلِيَتْ   كأنّها بعضُ ما ترمي به الشُّهُبُ

لا تعجبوا إذ بدا كالنّجمِ ظاهرُها   فإنّ باطنَها للنّبلِ ينتسبُ

دارَ الزّمانُ بأعلاها يزولُ منّا   كأنّما هي كأسٌ فوقها حَبَبُ

إنْ أخفتِ الحبَّ زهوَ الصّدرِ تحتَهُ   لا تعجبوا فسوادُ القلبِ مُحتجبُ

(1) عصفور: الصّورة الفنّيّة، ص331.

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص149.

بها اليراعةُ جالتْ عندها فعلتْ   ما ليس تفعلُهُ الهنديّةُ القُضُبُ

تحوّلت الدّواة في هذه الصّورة إلى عنصر فنّيّ جماليّ، اتّخذها ابن فُركون مادّة لفنّه، فقد أنعم فيها النّظر، وأعمل خياله، فوجد فيها جوانب متعدّدة وقف عليها، فصوّر لونها وظاهرها وباطنها، والحبر الّذي أخفته في صدرها، وهذا كلّه من أجل تحقيق استمتاع حسّيّ بتصويرها، وليس وسيلة لأيّ غاية أخرى.

وخلاصة القول أنّ شعر ابن فُركون غنيّ بالصّور الفنّيّة، شأنه في هذا شأن الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ، وقد تنوّعت هذه الصّور وتعدّدت مصادرها، منها ما استلهمه من الماضي، ومنها ما عاشه في واقعه، فجاءت صوره تموج بالحركة والحيويّة، وكان لعدد منها جانب نفعيّ مباشر، سعى من خلاله إلى توجيه سلوك المتلقّي أو موقفه، وكان لعدد آخر منها جانب آخر، تمثّل في تحقيق المتعة الشّكليّة، فلم يقدّم إلاّ نوعًا شكليًّا من المتعة، فصارت الصّورة غاية في ذاتها، وليست وسيلة لأيّ غاية أخرى.

5 – التّقليد والتّجديد

لم تنقطع الصّلات الفكريّة والأدبيّة بين المشرق والمغرب العربيّين، بل ظلّت وثيقة ومستمرّة، فقد انتشرت الكتب المشرقيّة ودواوين الشّعراء العرب بين الأندلسيّين، ورحلت شخصيّات أندلسيّة إلى المشرق طلبًا للعلم والمعرفة، ووفدت شخصيّات مشرقيّة إلى الأندلس، أسهمت في تشجيع الحركة العلميّة والأدبيّة في الأندلس(1).

وقد وُسمت الحياة الثّقافيّة في الأندلس منذ البدء بالاعتماد على المشرق، وتقليد أهله، فقد «ظلّ الأندلسيّ عربيًّا في ثقافته وفي تراثه، كما كان دائب التّطلّع إلى المشرق يحنّ إلى أرومته، ويتشوّق إلى مهد عروبته»(2)، وفي المشرق وجد الأندلسيّون حضارة أرقى وثقافة أوسع، فالتفتوا إليه في تجاربهم، ورأوه منبع العلم والدّين، وأدركوا أنّ موروثهم هو شعر

(1) انظر: أبو حسين، محمّد صبحي: صورة المرأة في الشّعر الأندلسيّ في عصر الطّوائف والمرابطين، عالم الكتب الحديث–إربد، ط2، 1426/2005، ص231.
(2) الثّقافي: ملامح الشّعر الأندلسيّ، ص39.

العرب وأدبهم منذ الجاهليّة حتّى أبي تمّام (231)[1].

ولعلّ في هذا الحُكم من التّعميم ما يُلغي شخصيّة الأندلسيّ والمغربيّ أمام أخيهما المشرقيّ؛ لأنّ بين هذا وذَيْنك فروقًا كثيرة، أهمُّها البيئة وسلطانُ الحُكم، ومصادرُ الثّقافة والمعرفة، والعلم والأدب، والعقل والفكر[2]، فقد «كان الشّعور بالأندلسيّة أو المغربيّة ينمو مع الأيّام، وكانت البيئة تعمّق خصائصها في طرق الحياة، وكان الاختلاط بأمم بعيدة يدعو إلى الابتعاد عن المشرق في الزّيّ وروح الفروسيّة، والعادات واللّهجة والأمثال»[3].

وقد ظهرت دراسات وأبحاث كثيرة، قام بها عدد من الباحثين، تناولت موضوع التّقليد والتّجديد والتّأثّر والتّأثير بين المشرق والمغرب العربيّين، تنوّعت فيها المواقف وتعدّدت، واختلفت فيها النّتائج باختلاف مشارب أصحابها[4].

---

(1) انظر: عبّاس، إحسان: تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر سيادة قرطبة، دار الثّقافة- بيروت، 1969، ص39، 127، 128، وأبو الخشب: تاريخ الأدب العربيّ في الأندلس، دار الفكر العربيّ- القاهرة، 1970، ص66-70.

(2) انظر: أبو الخشب: تاريخ الأدب العربيّ في الأندلس، ص72-75.

(3) عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسيّ، عصر سيادة قرطبة، ص40.

(4) من الرّسائل الّتي تناولت موضوع التّقليد والتّجديد والتّأثّر والتّأثير:

- أثر المتنبّي في أعلام الشّعر الأندلسيّ. مصطفى العيسى، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2000.

- الأندلسيّة وأثرها في أدب الأندلس حتّى نهاية عصر الموحّدين. جمانة رجب باشا، رسالة ماجستير، جامعة حلب، 1996.

- ملامح الأصالة والتّقليد في الشّعر الأندلسيّ. جلال حجازي، أطروحة دكتوراه، جامعة الأزهر، 1974.

ومن الكتب المطبوعة:

- أبو تمّام وأبو الطّيّب في أدب المغاربة. مُحمّد بن شريفة، دار الغرب الإسلاميّ- بيروت، ط1، 1986.

- الأدب الأندلسيّ بين التّأثّر والتّأثير. مُحمّد رجب البيّومي، جامعة الإمام مُحمّد بن سعود الإسلاميّة- الرّياض، 1980.

- الأدب الأندلسيّ: التّطوّر والتّجديد. مُحمّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل- بيروت، 1992.

ومن المقالات:

وما يمكن أن يُضاف إلى موضوع التّقليد والتّجديد ما يخصّ شعر مملكة غرناطة، فإنّه مرتبط زمانيًا بحال الشّعر في الأندلس في قرون سابقة، وبالتّجديد في القرن الخامس الهجريّ، حيث بلغ الشّعر الأندلسيّ ذروته في هذا القرن(1)، غير أنّه لم يستمرّ فيها طويلاً، بل سرعان ما راح ينحدر عنها، حتّى إذا جاء القرن السّابع الهجريّ، وتقلّصت مساحة الأندلس بتساقط المدن الأندلسيّة الكبرى في حجْر الإسبان؛ نشأت مملكة غرناطة، وحكمها بنو الأحمر أكثر من قرنين من الزّمان، وكانت قوّتهم تتراوح بين مدّ وجزر، وكانت الحياة الفكريّة والثقافيّة في المملكة تتراوح كذلك بين مدّ وجزر، متأثّرةً بالأوضاع السّياسيّة، فكانت تتّقد جذوتها في زمن الأمن والاستقرار، وتخبو في زمن الفتنة والاضطراب، وشهدت ذروة ازدهارها في القرن الثّامن الهجريّ.

وبمجيء القرن التّاسع كانت غرناطة تعيش مرحلتها الأخيرة، ولم يكن هذا القرن مُستقرًّا تمامًا، ولم يخلُ من أزمات سياسيّة، أثّرت في شعر هذا القرن، فلم يعد الشّاعر الغرناطيّ يُعمِل خياله كثيرًا في وقت غدت فيه غرناطة وشيكة السّقوط، فسار في الطّريق التي رسمتها له الظّروف التّاريخيّة والسّياسيّة، التي عاشتها المملكة، فتابع نظم الشّعر دون أن يأتي بجديد، بل صار أكثر اتّباعًا من ذي قبل، وأكثر تمسّكًا بدينه وتراثه(2).

فإذا كان هناك مجال حقيقيّ للتّجديد في أدب الأندلسيّين، فقد كان من الأَوْلى أن يكون في عهود الأمن والاستقرار، فكيف الحال والأندلس متمثّلة بغرناطة تعيش أيّامها الأخيرة(3).

وما يمكن أن يوصف به الشّعر في غرناطة أنّه مثّل اتّجاهين، الأوّل تقليديّ مُحافظ،

- الغناطيّة الأندلسيّة (محور فهم لطبيعة الهويّة الأندلسيّة)، لزكي علي خليل، مجلّة الموقف الأدبي، اتّحاد الكتّاب العرب – دمشق، العدد 379، أيلول – تشرين الثّاني 2002/جمادى الأولى – جمادى شعبان 1423، السّنة الثّانية والثّلاثون، ص83-98.

(1) انظر: ضيف، شوقي: الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربيّ، دار المعارف–مصر، ط9، د.ت، ص431-432، والحمصي: ابن زمرك، ص215.

(2) انظر: سرميني: خصائص الشّعر الأندلسيّ، ص162، ودياب: في الشّعر العربيّ الأندلسيّ والمغربيّ، ص245، وبارجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص250.

(3) ضيف: الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربيّ، ص449.

والثاني جديد مُحدَث، ظهرا بتأثير الظّروف التي كانت تعيشها غرناطة.

تمثّل شعراء غرناطة الاتّجاه التّقليديّ المحافظ، وحاكوا فيه أسلافهم من الشّعراء القدامى، فشابهوهم في مشاعرهم، وأساليب تعبيرهم، دفعهم إلى ذلك حبّهم لتراثهم وتعلّقهم به وضرورة الحفاظ عليه(1)، فانتهجوا في شعرهم الأساليب القديمة، ولم يتجاوزوا الخصائص المألوفة للشّعر العربيّ، ولم يتعدّوها إلى أساليب جديدة، فساد الاتّجاه التّقليديّ شكلاً ومضموناً(2)، وأظهرُ ما يبدو هذا الاتّجاه التّقليديّ المحافظ في أغراض الغزل، والمدح، والرّثاء(3).

وقد مثّل ابن فُركون مع عدد من شعراء غرناطة المذهب التّقليديّ أشدّ تمثيل(4)، فردّد ذكرَ عدد من الأماكن التّقليديّة المشرقيّة، التي اعتاد الشّعراء ذكرَها، كالعُذَيب، وبارق، ورامة، والعقيق، ورَضوى، ونجد، والغميم(5)، فكان من الشّعراء الذين عُنوا «بتمجيد الجوّ البدويّ المشرقيّ، والتّغنّي بمعالمه، والتّلذّذ بذكر أسماء الأماكن الحجازيّة تعبيرًا عن الحنين الأندلسيّ إلى هذه المغاني المشرقيّة، ومُحاكاةً لمسلك مشرقيّ توفّر على هذا الفنّ»(6)، كما ردّد في شعره أسماء عدد من النّساء اللّواتي ذُكرن في شعر السّابقين، كسلمى، وليلى(7).

وذَكَرَ كثيرًا الحُداة والإبل والنّوق، والصّحراء والبان، ونار القرى، وجمر الغضى، وراكب الوجناء، وراكب المطيّة، وحادي الأظعان، والزّناد، والقِدْح المُعلّى، والأطلال(8)، وهذه كلّها مفردات ذات طبيعة مشرقيّة بدويّة، تردّدت في شعر السّابقين، وردّدها من بعدهم

---

(1) انظر: بلارجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص240 وما بعدها.

(2) انظر: سرميني: خصائص الشّعر الأندلسيّ، ص162، وضيف: الفنّ ومذاهبه، ص449–450.

(3) انظر: بلارجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص241، ورجب باشا، جمانة: الشّعر الأندلسيّ، ص46، 49، 50.

(4) انظر: السّابق، ص241.

(5) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص108، 110، 115، 129، 145، 207، 232، 306، 328، 334، 339.

(6) رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص48.

(7) انظر: السّابق، ص261، 307، 311، 339.

(8) انظر: السّابق، ص170، 173، 184، 190، 207، 221، 225، 259، 336، 337، 338، 359.

ابن فُركون في شعره، كما استخدم من تراكيبهم «يا ليت شعري»، و«ألا ليت شعري»[1]، وتوجّه بالخطاب إلى المثنّى مثلما فعلوا[2].

ويبدو هذا الاتّجاه المحافظ عند ابن فُركون أيضًا في أوصافه للمرأة، فقد ردّد في غزله الأوصاف الحسّيّة القديمة، واستعار من الغزل الجاهليّ مفاهيم جماليّة في وصف المرأة، متجاوبًا في ذلك مع المُثل الجماليّة العربيّة، التي فرضت نفسها على الذّوق العربيّ[3].

كما تشبّه في غزله العفيف بالشّاعر العذريّ، الذي نشأ في بوادي الحجاز، فتحدّث عن الأسى وأسباب الحرمان، والتزم بالعفّة والكتمان، وقنع بالطّيف السّاري.

كما تجلّى هذا الاتّجاه واضحًا في مدحه، فقد رسم للممدوح صورة جمع ملامحها من الصّفات التي ردّدها المادحون قبله، فتحدّث عن الشّجاعة والنّسب والتّدين، وصفات أخرى كثيرة، فيها من المحاسن الخَلْقيّة والفضائل الخُلقيّة كثيرٌ ممّا ردّده الشّعراء قبله.

وتُبيّن قراءةُ شعر ابن فُركون أنّه تأثّر بكثير من كبار الشّعراء المشارقة، كالمتنبّي وأبي تمّام والبحتريّ والمعرّيّ، شأنه في هذا شأنُ كثير من الشّعراء الأندلسيّين، الذين وجدوا في المتنبّي وأضرابه مثالهم الفنّيّ الأعلى.

لقد تردّد في شعر ابن فُركون صدى شعراء آخرين، تركوا آثارهم في نفسه، وأسهموا في تكوين ثقافته، فضمّن أدبه شيئًا من أشعارهم وأمثالهم، وأشار إلى أعلامهم وأماكنهم، واستفاد من تعبيراتهم واستعاراتهم، والشّواهد على هذا كثيرة، ومنها ما يُظهر تأثّره بالشّعراء الجاهليّين، ومنهم النّابغة الذّبيانيّ (18 قبل هـ)، الذي قال[4]:

فإنّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ

---

(1) انظر: رجب باشا: الشعر الأندلسي، ص147، 150، 232، 257، 359.
(2) انظر: السابق، ص193، 223، 265، 266، 282، 318، 322، 338.
(3) انظر: المرعي، فؤاد: الوعي الجماليّ عند العرب قبل الإسلام، الأبجدية للنشر–دمشق، ط1، 1989، ص74–81، وخليل، أحمد محمود: في النقد الجماليّ، رؤية في الشعر الجاهليّ، دار الفكر–دمشق، دار الفكر المعاصر–بيروت، ط1، 1417/1996، ص42، وما بعدها.
(4) النابغة الذبيانيّ، زياد بن معاوية (18 قبل هـ): ديوان النابغة الذبيانيّ، صنعة ابن السّكّيت، يعقوب بن إسحاق، 244، تحقيق شكري فيصل، دار الفكر–بيروت، 1968، ص75.

استثمر ابن فُركون هذه الصّورة في مدح الملك يوسف الثّالث، وكرّرها في مدحه غير مرّة، ومن هذا قوله(1):

كَـأنَّ طُـلُوعَ البَـدْرِ عِنْـدَ تَمامِهِ ... مُحَيَّا ابنِ نَصْرٍ والكَواكِبُ جُنْدُهْ

وأعاد ابن فُركون الصّورة نفسها عندما قال في مدحة أخرى(2):

لا زِلْتَ فِينَا والمُلُوكُ كَواكِبٌ ... يُبْدِي ظُهُورُكَ لِلْوُجُودِ خَفَاءَها

وكان ابن فُركون على دراية بأدب الإسلاميّين، وعلى اطّلاع على أشعارهم، فأخذ منهم كثيرًا من المعاني والصّور، وممّن أخذ عنهم حسّان بن ثابت (54)، مُرَدّدًا قوله(3):

لِسَانِي صَارِمٌ لا عَيْبَ فِيهِ ... وَبَحْرِي لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ

فولّد ابن فُركون من هذا المعنى معنًى جديدًا في قوله(4):

وإنَّ يَرَاعِي كَالذَّوابِلِ شُرَّعًا ... ولَفْظِي بِنَحْوِي كَالحُسَامِ المُصَمِّمِ

وكان واحدًا من الذين ظهر أثرهم في شعره مجنونُ ليلى، قيس بن المُلوّح (68)، في قوله(5):

وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِي ... وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا

وبرز هذا المعنى واضحًا في قول ابن فُركون(6):

وَمَا كُنْتُ أَهْوَى رَبْعَ سَلْمَى وإنَّمَا ... أُحِبُّ الحِمَى مِنْ أَجْلِ مَنْ سَكَنَ الحِمَى

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص134.
(2) السّابق، ص374.
(3) حسّان بن ثابت الأنصاريّ 54: ديوان حسّان بن ثابت، حقّقه وعلّق عليه وليد عرفات، دار صادر- بيروت، 1974، جزآن، 18/1.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص123.
(5) مجنون ليلى، قيس بن المُلوّح (68): ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق وشرح عبد السّتار أحمد فرّاج، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة-القاهرة، د.ت، ص170.
(6) ابن فُركون: الدّيوان، ص261.

وممّن تأثر ابن فُركون بهم جميل بُثينة جميل بن مَعْمَر (82)، في قوله[1]:

وإنّي لأرضى من بُثينة بالذي ... لو ابصره الواشي لقرّت بلابلُهْ

وقريب من هذا قولُ ابن فُركون[2]:

مَنْ لي بطيفِ خيالٍ منك يطرُقني؟ ... إنّي بتيسيرِ هذا منه أقتنعُ

وممّن كان ابن فُركون على دراية بشعرهم ذو الرُّمّة (117)، القائل في قصيدة له[3]:

أقامتْ به حتّى ذوى العودُ في الثرى ... وساقَ الثريّا في مُلاءته الفجرُ

فقد ضمّن ابن فُركون بيتًا له عجزَ هذا البيت، عندما قال[4]:

كما لاح نورُ الشمسِ في رَونقِ الضُّحى ... «وساقَ الثريّا في مُلاءته الفجرُ»

وكان أثر بشّار بن بُرْد (167) واضحًا في شعر ابن فُركون، الذي استفاد من قوله[5]:

كأنّ مُثارَ النَّقعِ فوقَ رُؤوسِهِمْ ... وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ

فقد استثمر ابن فُركون هذا المعنى، وراح يردّده في شعره، كما في قوله[6]:

عواليه في النَّقعِ المُثارِ نِصالُها ... كواكبُ تبدو للدُّجنّةِ في جنحِ

كما يبدو تأثّره واضحًا أيضًا ببشار في قوله[7]:

عُمْرُ الشّتاءِ إلى نهايتِهِ ... والعُشْبُ يُمْكِنُ بعدَما زَمِعا

---

(1) جميل بثينة، جميل بن معمر، (82): ديوان جميل بثينة، شرحه أشرف أحمد عدرة، عالم المكتبات- بيروت، ط1، 1416/1996م، ص258.

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص260.

(3) ذو الرُّمّة، غيلان بن عقبة العدويّ، (117): ديوان ذي الرُّمّة، شرح أحمد بن حاتم الباهلي، حققه وقدّم له وعلّق عليه عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان-بيروت، ط1، 1402/1981، ثلاثة أجزاء، 1/561.

(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص269.

(5) بشّار بن بُرد (167): ديوان بشّار بن برد، نشر وتقديم وشرح محمد الطّاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة، 1369/1950، جزآن، 1/318.

(6) ابن فُركون: الدّيوان، ص182. وانظر: ص194، 214، 342.

(7) بشّار بن بُرد: الدّيوان، 1/98.

فقد أخذ ابن فُركون هذا المعنى[1]، فقال[2]:

ستأرَّجُ نفحةَ الثرى قُربةً ... فقد يلينَ الصعبَ نفحةُ الجماحِ

وتردَّد في شعره صدى صورة استخدمها صريع الغَواني، مسلم بن الوليد (208) في قوله يمدح[3]:

يَفتَرُّ عِندَ افتِرارِ الحَربِ مُبتَسِمًا ... إذا تَغَيَّرَ وَجهُ الفارِسِ البَطَلِ

فقال ابن فُركون يمدح يوسف بالشّجاعة والثّبات في المعركة[4]:

ثَبتٌ إذا ارتاعتِ الأبطالُ يومَ وغًى ... سَمحٌ بميسورِ ما يَحباهُ وقَد كَلِفتْ

وقد يكون تأثّر ابن فُركون بمظهر عامّ ظهر لدى المشارقة، ومنه ما عُرِف بـ«تواتر الأضداد»، واشتهر به أبو تمّام (231)[5]، وظهر واضحًا في شعره، ومنه قوله[6]:

بَيضاءُ تَسري في الظَّلامِ فَيَكتَسي ... نُورًا وَتَسرُبُ في الضِّياءِ فَيُظلِمُ

وهذا المذهب واضح جدًّا في شعر ابن فُركون، وفي مواطن كثيرة منه، ومن هذا قوله في مدح يوسف الثّالث[7]:

وَسيفُكَ صَلتٌ حيثُ بأسُكَ كامنٌ ... ولُطفُكَ ثَبتٌ حيثُ بَندُكَ خافِقُ

وقال في مدحه في قصيدة أخرى[8]:

---

(1) مارجي: الغزل في الشّعر الأندلسي، ص255.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص265.
(3) صريع الغواني مُسلم بن الوليد الأنصاري، (208): شرح ديوان صريع الغواني، رواه وشرحه أبو العبّاس وليد بن عيسى الطّبيخي الأندلسي (352)، حقّقه وعلّق عليه سامي الدّهّان، دار المعارف–مصر، د.ت، ص9.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص174. وانظر: ص184، 187، 231.
(5) ضيف: الفنّ ومذاهبه، ص250.
(6) أبو تمّام، حبيب بن أوس الطّائي (231): ديوان أبي تمّام بشرح الخطيب التّبريزي (512)، تحقيق مُحمّد عبده عزّام، دار المعارف–مصر، مج1، ط3، مج2و3و4، ط2، د.ت، 213/3.
(7) ابن فُركون: الدّيوان، ص209.
(8) السّابق، ص123.

وإنْ تنشرِ الأعلامَ خضرًا خوافقًا   طوى كلُّ ربعٍ للعدوِّ وخيَّمِ

ولعلّ أهمّ شاعر تأثّر به ابن فُركون هو أبو الطَّيّب المُتنبّي أحمد بن الحُسين (354)، وذلك لتشابه ظروف حياة كلٍّ منهما، فكما كان المُتنبّي شاعر سيف الدّولة الحمدانيّ أمير حلب، كان ابن فُركون شاعر يوسف الثّالث النّصريّ ملك غرناطة، وكان كلٌّ منهما يرافق مولاه في حلّه وترحاله، وكان كلٌّ منهما الصّوت الأعلى في بلاط الحاكم على الرّغم من وجود شعراء آخرين، وكان بالمقابل كلٌّ من سيف الدّولة ويوسف الثّالث يرعى شؤون شاعره فيُدنيه من مجلسه، فنشأت بين الشّاعر والحاكم علاقة وثيقة ارتبط فيها اسم كلّ منهما بالآخر، فإذا ذُكر سيف الدّولة ذُكر معه المتنبي، وكذلك إذا ذُكر يوسف الثالث ذُكر ابن فُركون.

ونشأ على أساس هذه العلاقة الطّيّبة حبُّ ابن فُركون لمليكه، فعبّر عنه بقوله[1]:

وأحِبُّ مَنْ قدْ لامَني في ذِكْرِها   دارُ الحبيبِ أحقُّ أنْ تَهْواها

هي حَضْرةُ المَولى الخليفةِ يُوسُفٍ   شَرُفَ الملوكُ بِاسْمِها مَولاها

وقبله عبّر المتنبي عن حبّه لسيف الدّولة، بقوله[2]:

ما لي أُكَتِّمُ حُبًّا قدْ بَرى جَسَدي   وتَدَّعي حُبَّ سَيْفِ الدَّولةِ الأُمَمُ

وكما اتّخذ المتنبي سيف الدّولة حَكَمًا عندما عبّر عن هذا بقوله[3]:

يا أعْدَلَ النّاسِ إلاّ في مُعامَلَتي   فيكَ الخِصامُ وأنْتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

فقد اتّخذ ابن فُركون يوسف الثّالث حَكَمًا له، عندما قال[4]:

حَكَمي فَمَنْ نَصْرٍ ناصِرُ الدِّينِ الرِّضا   إنْ لَمْ يَكُنْ حَكَمَ الزَّمانِ بِمُنْصِفِ

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص168-169.
(2) المتنبي: الدّيوان، 364/3.
(3) السّابق، 366/3.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص129.

وكانت مكانة المتنبي عند سيف الدّولة سببًا في كثرة الحسّاد، وإلى هذا أشار بقوله[1]:

وَقَــد غَــبِــتُ بِــحُــسّــادٍ أُحــارِبُــهُــم   فَاجعَل نَداكَ عَلَيهِم بَعضَ أَنصاري

وأشار ابن فُركون إلى حسّاده الكثيرين بقوله[2]:

فَــيـا مُــكْــثِــرَ حُــسّـــادي بِـأنْـعُــمِــهِ   وَيَــا مُــقَــرِّبَ آمــالــي الــتــي نَــزَحَــتْ

ووصف المتنبي معارك سيف الدّولة[3]:

هَــلِ الـحَـدَثُ الـحَـمْـراءُ تَـعْـرِفُ لَونَها   وَتَـعْـلَـمُ أَيُّ الــسّــاقِــيَــيْــنِ الـغَـمـائِـمُ؟

وفي شعر ابن فُركون تصوير فتوح يوسف الثالث الكبرى، التي خلّدها ابن فُركون في ديوانه، ومن هذا دخول الغرناطيّين حصن الصّخرة، وكان دخولهم هذا بكر الفتوح، فهنّأ ابنُ فُركون الملكَ بقصيدة ارتجلها، فقال[4]:

هُــوَ الـنَّـصْــرُ قَـدْ أَجْــرى لَـدَيْـكَ جِـيـادَهُ   هُــوَ الـفَـتْـحُ قَــدْ أَلْــقــى إِلَـيْـكَ قِـيـادَهُ

أَمــا هــذهِ بِـكْـرُ الـفُـتُـوحِ الـتـي بِـهـا   أَتــى الـنَّـصْـرُ يُـدْنـي الـعِـزُّ مِـنْـكَ بِـعـادَهُ

وكان المُتنبّي يَذْكُر «الهام» في تصويره معارك سيف الدّولة، ومنه قوله[5]:

وَلَـمْ لا يَقِي الرَّحْمنُ حَدَّيْكَ ما وَقى   وَتَـفْـلِـيـقُـهُ هــامَ الـعِـدا بِــكَ دائِــمُ؟

وكثيرًا ما كرّر ابن فُركون ذكر «الهام» في تصوير معارك يوسف الثّالث، ومنه قوله[6]:

وَلِــلْــعَــوامِــلِ فِـــي هـــامِ الـعِــدا عَــمَــلٌ   فَالسَّــيْــفُ خافِـضُـهـا وَالــرُّمْــحُ رافِـعُـهـا

ووصف المُتنبّي سيف الدّولة في مدائحه بالهُمام، فقال[7]:

---

(1) المُتنبّي: الدّيوان، 141/2.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص176.
(3) المُتنبّي: الدّيوان، 380/3.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص156.
(5) المُتنبّي: الدّيوان، 392/3
(6) ابن فُركون: الدّيوان، ص211.
(7) المُتنبّي: الدّيوان، 156/3.

لَيْسَ إِلَّاكَ يَا عَلِيُّ هُمَامٌ   سَيْفُهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ

وكان ابن فُركون يكثر من وصف يوسف الثّالث في مدائحه بالهُمام، ومنه قوله(1):

هُوَ الْمَلِكُ الْأَعْلَى الْهُمَامُ الَّذِي بِهِ   تَجَلَّتْ مِنَ الدَّهْرِ الْخُطُوبُ الْفَوَادِحُ

وقوله كذلك(2):

إِمَامٌ هُمَامٌ خَاشِعٌ مُتَبَتِّلٌ   أَغَرُّ وَهُوبٌ وَاضِحُ الْبِشْرِ أَزْهَرُ

وصوّر المتنبّي شجاعة سيف الدّولة، وركّز على ثباته ورباطة جأشه في المعارك، ووقوفه في وجه الموت، فقال مخاطبًا سيف الدّولة(3):

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ   كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

وقال ابن فُركون يخاطب يوسف الثّالث، ويدعو له بالبقاء والسّلامة(4):

بَقِيتَ لِأَمْثَالِهِ سَالِمًا   وَجَفْنُ الرَّدَى عَنْكَ قَدْ أُغْمِضَا

ومِنْ تأثّر ابن فُركون بالمتنبّي ما ظهر في شعره من حكمة، تتّفق مع حكمة المتنبّي، ومنها قوله في بيته المشهور(5):

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ   تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

وفيما يشبه هذا قال ابن فُركون(6):

وَمِنْ عَادَةِ الْأَيَّامِ أَنْ تَمْنَعَ الْمُنَى   وَأَنْ تَمْنَحَ الشَّيْءَ الَّذِي لَا تُرِيدُهُ

ولم يكن المدح الغرض الوحيد، الذي تأثّر به ابن فُركون بالمتنبّي، ففي غرض الغزل

---

(1) ابن فُركون: الدّيوان، ص111.
(2) السّابق، ص151.
(3) المتنبّي: الدّيوان، 386/3.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص192.
(5) المتنبّي: الدّيوان، 236/4.
(6) ابن فُركون: الدّيوان، ص141.

أيضًا، يُلمح تأثره بقول المُتنبّي[1]:

لا تَعذُلِ المُشتاقَ في أشواقِهِ ... حَتّى يَكونَ حَشاكَ في أَحشائِهِ

فمن مفردات صدر بيت المتنبّي ما يتردّد في صدر بيت ابن فُركون[2]:

لا يَعذِلُ المُشتاقَ في حُبِّهِ ... فالصَّبُّ لا يُصغي إلى قَولِ لاحْ

ومن مظاهر تأثّر ابن فُركون بالمُتنبّي نظمُه على أسلوبه إذ يبدو ابن فُركون قد اطّلع على بيت المُتنبّي[3]:

أَقِلْ أَنِلْ اِقْطَعْ اِحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

وبيته الآخر[4]:

أَقِلْ أَنِلْ أَنْ صُنِ اِحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبِ اِغْفِرْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

حين قال ابن فُركون[5]:

أَقَلْتَهُ أَنَلْتَهُ وَفَّيْتَ ما قُلْتَهُ وَعَدْتَهُ ... فَدَيْتَهُ وَبَلَّغْتَهُ الَّذي مِنْكَ أَمَّلَهُ

وممّا يؤكّد اطّلاع ابن فُركون على شعر المُتنبّي ومعرفته به تضمينُه صدر بيت المُتنبّي[6]:

يَرُدُّ يَدًا عَنْ ثَوْبِها وَهْوَ قادِرٌ ... وَيَعْصي الهَوى في طَيْفِها وَهْوَ راقِدُ

فقد ضمّن ابن فُركون بيتًا له صدرَ هذا البيت، فقال[7]:

شَماهُ وَفاءُ العَهْدِ عَنْها فَلَمْ يَزَلْ ... يَرُدُّ يَدًا عَنْ ثَوْبِها وَهْوَ قادِرُهْ

ومن شعراء المشرق الكبار، الذين تأثّر بهم ابن فُركون، المعرّيّ، أحمد بن عبد الله بن

(1) المُتنبّي: الدّيوان، 6/1.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص264.
(3) المُتنبّي: الدّيوان، 85/3.
(4) السّابق، 89/3.
(5) ابن فُركون: الدّيوان، ص104.
(6) المُتنبّي: الدّيوان، 268/1.
(7) ابن فُركون: الدّيوان، ص198.

سليمان (449)، الذي قال(1):

وإنّي وإنْ كُنتُ الأخيرَ زمانُهُ   لآتٍ بما لم تستطعْهُ الأوائلُ

فقد نظم ابن فُركون على أسلوبه، قولَه(2):

وإنّي وإنْ كُنتُ الأبيَّ قِيادُهُ   لَينقادُ قلبي رُغْمًا وجنيبها

كما تأثّر ابن فُركون بأسلوب المعرّيّ في قوله(3):

ألا في سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلٌ   عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

فعلى نسقه قال ابن فُركون(4):

ألا في سبيلِ الحبِّ قلبٌ مُقلَّبٌ   مَشُوقٌ لتذكارِ العهودِ طَروبُ

وممّا يدلّ على معرفة ابن فُركون أدبَ المعريّ واطّلاعه عليه تضمينُه صدر بيت المعرّيّ(5):

أرى العنقاءَ تكبُرُ أنْ تُصادا   فعانِدْ مَنْ تُطيقُ لهُ عِنادا

فقد ضمّن ابن فُركون بيتًا له صدرَ هذا البيت في قوله في إحدى قصائده(6):

تقولُ لمن هوى منّا خضوعًا   «أرى العنقاءَ تكبُرُ أنْ تُصادا»

وعاد فردّد المعنى ذاته في قصيدة أخرى(7):

معاذَ رسائلنا أنْ تخيبَ   وحاشا لعنقائنا أنْ تُصادْ

---

(1) المعرّي، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان (449): ديوان سقط الزند، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له عمر فاروق الطبّاع، شركة دار الأرقم- بيروت، ط1، 1418/1998، ص228.

(2) ابن فُركون: الديوان، ص338ب.

(3) المعرّي: ديوان سقط الزند، ص227.

(4) ابن فُركون: الديوان، ص154.

(5) المعرّي: ديوان سقط الزند، ص232.

(6) ابن فُركون: الديوان، ص113.

(7) السابق، ص140.

ويظهر تأثر ابن فُركون بالمعرّي في استثمار صورة النّجم في قول المعرّي[1]:

وَسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحِبِّ فِي اللَّوْ ... نِ وَقَلْبِ المُحِبِّ فِي الخَفَقَانِ

وجاء ابن فُركون بهذا المعنى مع تغيير، فقال[2]:

تَطَلَّعَ خَفَّاقَ الجَنَاحِ كَأَنَّهُ ... فُؤَادُ مُحِبٍّ قَدْ جَفَاهُ حَبِيبُ

كما يبدو ذلك في تصوير المعرّي اللّيل بالزّنجيّ، في قوله[3]:

لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزَّنْـ ... ـجِ عَلَيْهَا قَلَائِدٌ مِنْ جُمَانِ

فقد قال ابن فُركون يصف الشّروق[4]:

كَأَنَّ الدُّجَى مِنْ زِنْجِهِ ... حُسَامًا عَلَى أُفُقِهِ وَانْتَضَى

واستعار صورة الزّنجيّ مرّة أخرى، فقال[5]:

إِذَا أَطْرَقَتْ فِي جُنْحِهِ خِلْتَ وَارِدًا ... مِنَ الزِّنْجِ يُبْدِي ثَغْرَهُ مُتَبَسِّمَا

إنّ هذه الأمثلة ـ وغيرها كثيرٌ في الدّيوان ـ تؤكّد أنّ ابن فُركون قد انسربت إلى ثقافته عناصر عدّة، فبدت في صوره وألفاظه، ولم يكن معزولاً أو بعيدًا عنها، فتأثّر في أثناء قراءته كتب المشارقة ودواوين شعرائهم بطائفة من هؤلاء الشّعراء أمثال أبي تمّام والمتنبّي وأبي العلاء، وهذا التّأثّر ملحوظ عند سابقيه من شعراء غرناطة[6].

ويكاد القارئ يقع في الوهم حين يظنّ أنّ ابن فُركون يأخذ عن الشّعراء شعرهم، غير أنّ الحقيقة أنّ ابن فُركون ليس إلاّ شاعرًا قرأ التّراث ودَرَسه وحفظه، وهذه قضيّة عامّة عند الشّعراء أغلبهم في تأثّرهم بالمخزون الثّقافيّ الذي صار جزءًا لا يتجزّأ من كيانهم، وفرض

(1) المعرّي: ديوان سقط الزّند، ص133.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص154.
(3) المعرّي: ديوان سقط الزّند، ص133.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص190.
(5) السّابق، ص258.
(6) الحمصي: ابن زمرك، ص177، 216-219.

بسلطانه عليهم ظهوره شاؤوا أم أبوا.

إنّ ابن فُركون لم يكن معزولاً عن آثار المشارقة، كما لم يكن معزولاً عن الحياة الثقافيّة في غرناطة، فكان من الطّبيعيّ أن يتأثّر بمعاصريه، وبمحيطهم الأدبيّ والاجتماعيّ، فكان على اطّلاع على نتاجهم وأدبهم، وسمع كثيرًا من أقوالهم، فكانت زادًا ثقافيًا يرفد معانيه.

وممّا يدلّ على ذلك تأثّره بأدب سَلَفه ابن زمرك (796) شاعر الحمراء في وقته، فقد قال ابن زمرك يصف آلة العود[1]:

غنّى عليه الطّيرُ وهو بدوحه   والآن غنّى فوقه ظبيٌ أغرّ

ومن هذا ما قال ابن فُركون في وصف آلة العود[2]:

ومِنْ قبلُ أنْ غنّى عليه مُهَفْهَفٌ   عليه شدَتْ في الرّوضِ وُرْقُ الحمائمِ

وظهر تأثّر ابن فُركون بابن زمرك واطّلاعه على أدبه في تضمينه صدر بيته[3]:

وإنّي وإنْ كنتُ الأبيَّ قيادُهُ   ليأسرني حُبُّ الحسانِ وينهاني

فقد ضمّن ابن فُركون بيتًا له صدرَ هذا البيت حين قال[4]:

وإنّي وإنْ كُنتُ الأبيَّ قيادُهُ   لينقادُ قلبي رغمُها وحنانُها

ووصف ابن زمرك بعض الألعاب بقوله[5]:

وصاعدةٍ في الجوّ سالَ عنانُها   تسامتْ أعنانَ السّما وتطاولُ

وقال ابن فُركون في وصفها[6]:

---

(1) ابن زمرك، محمّد بن يوسف الصّريحي (796): الدّيوان، جمعه وقدّم له وفهرسه أحمد سليم الحمصي، المكتبة العصريّة–صيدا، بيروت، ط1، 1418/1998، ص42.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص286.
(3) ابن زمرك: الدّيوان، ص116.
(4) ابن فُركون: الدّيوان، ص338.
(5) ابن زمرك: الدّيوان، ص89.
(6) ابن فُركون: الدّيوان، ص343.

وصـــاعِدةٍ فِي الجَوّ أَلفتْ ذُيُولَها فَـراقَ بآفـاقِ السَّحابِ انْسِحابُها

وكما تأثّر ابن فُركون بابن زمرك تأثّر كذلك بيوسف الثّالث، ومن هذا تأثّره بقوله في رثاء زوجته[1]:

وَشُهُباتٍ يَعْلُو الثّغْرَ لَـاِبثُ وَقْعِهَا وما زَمَّمَتْ أيـدي الهوى في خصالِه

حيث أخذ ابن فُركون هذا المعنى، ونقله من غرض الرّثاء إلى غرض الغزل[2]، فقال[3]:

وَشَهْباتٌ يَعْلُو الثّغْرَ أَوْ يَنْسَخُ الهدا لَها في حَصَـاةِ القَلْبِ ما قَدْ تَرَشّـا

وإلى جانب الاتّجاه التّقليديّ المُحافظ الّذي كان سائدًا في غرناطة ظهر فيها اتّجاهٌ آخرُ هو الجديد المُحدَث، الذي نظم فيه شعراء غرناطة شعرهم على «غرار اتّجاه دُعاة التّجديد في العصر العبّاسيّ، الذين عبّروا عن واقعهم الجديد أصدق تعبير، وحلّقوا في أجواء حضاريّة متأنّقة، مُعتمدين على أسلوب العصر ولغة الحياة، وعلى رأسهم أبو نواس وبشّار بن برد»[4].

وكان ظهور هذا الاتّجاه استجابةً لمُتطلّبات البيئة الأندلسيّة؛ فظهرت موضوعات شعريّة جديدة فرضتها ظروف الأندلس الجديدة، وما فيها من تَرَف وحضارة وتَحَرُّر[5].

وأظْهَرُ ما يبدو هذا الاتّجاه الجديد في شعر المجون والخمر، الذي شاع حول مجالس الأُنس والشّراب التي عمرت بالجَواري والسُّقاة والمُغنّين، ولعلّ هذا الموضوع كان «أبرز موضوعات الاتّجاه المُحدث؛ إذ صوّر الشّعرُ ما كان يموج في مجتمع الأندلس، من إقبال على الشّراب والغناء، ومجالس الأُنس، وجنوح إلى العبث والتّهتّك، فأفاض هؤلاء الشّعراء في حديث الخمرة، والانغماس في ملذّاتها والغناء فيها، ولم يتورّع ملوكهم وأمراؤهم عن

---

(1) يوسف الثّالث: الدّيوان، ص21.

(2) انظر: بازجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص259.

(3) ابن فُركون: الدّيوان، ص262.

(4) بازجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص244.

(5) انظر: رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص57.

الخوض في هذا المسلك»[1]، وكان لابن فُركون إسهامه في هذا الغرض، فوصف الخمرة والساقي والكأس، ودعا إلى احتساء الخمرة، واغتنام لذّة العيش بين الكؤوس، ومَزَجَ ذلك كلّه بمشاهد الطّبيعة، ومن هذا ما قاله في وصف عشيّة[2]:

إنّ هذه الشّمسُ المنيرة أطلعتْ ... بدرًا يلوحُ سناهُ عن محجوبها

خذْها مُعتّقةً على الرّوضِ الّذي ... تُهدي أزاهرُهُ نواسمَ طيبِها

ودعا ابن فُركون نديمه للتّمتّع والابتهاج، مقتديًا بأبي نواس (198) في حضرة الخصيب ملك مصر[3]:

لا تنسَها فالواجبُ أنْ نقتدي ... بأبي نواسٍ في محلِّ خصيبِها

وكما اقتدى ابن فُركون بأبي نواس في دعوته إلى التّمتّع والابتهاج اقتدى به كذلك في دعوته إلى تَرْك الوقوف على الرّسوم والمعاهد البالية، مُستبدِلاً بها إقباله على الخمرة[4]،

---

(1) رجب بادا: الشّعر الأندلسي، ص58.

(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص254-255.

(3) السابق، ص255.

(4) لأبي نواس أبيات كثيرة في هذا الموضوع، ومنها قوله:

لا تبكِ ليلى ولا تطربْ إلى هندِ ... واشربْ على الوردِ من حمراءَ كالوردِ

كأسًا إذا انحدرتْ في حلقِ شاربِها ... أجدتْهُ حمرتَها في العينِ والخدِّ

وقوله كذلك:

عاجَ الشّقيُّ على دارٍ يسائلُها ... وعجتُ أسألُ عن خمّارةِ البلدِ

لا يُرقئُ اللهُ عينَي مَنْ بكى حجرًا ... ولا شفى وجدَ مَنْ يصبو إلى وتدِ

....

دعْ ذا عدمتُكَ واشربْها معتّقةً ... صفراءَ تفرقُ بينَ الماءِ والزّبدِ

مِنْ كفِّ مختصرِ الزّنّارِ معتدلٍ ... كغصنِ بانٍ تثنّى غيرَ ذي أودِ

أبو نواس، الحسن بن هانئ (198): شرح ديوان أبي نواس، ضبط معانيه وشروحه إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط1، 1983، جزآن، 1/293، 294.

وفي هذا قول ابن فركون[1]:

خليلي دَعْ تَذَكُّر ما تقضّى ... وما قد مرّ من عهدٍ كريم

ولا ترسل عهود الدّمع مهما ... تذكّرت المعاهد بالغميم

ولا تطل التفكّر واجتنبه ... وهات الكأس من كفّ النّديم

وعلّل قلبك المضنى وشفّع ... جديد هواك بالخمر القديم

فكم فيها لقلبك من مجير ... لها ولشربها كم من قديم

ومع أنّ ابن فركون بدا في هذه الأبيات جريئًا وشجاعًا في إعلان ثورته على الرّسوم والأطلال وعادة الشّعراء في الوقوف عليها إلّا أنّه لم يستطع حقًّا الخروج على نهج الشّعراء السّابقين، ولم يترك الأثر الذي تركه أبو نواس في عصره.

لم تكن دعوة ابن فركون الصّريحة للإقبال على شرب الخمرة واغتنام ساعات الفرح والسّرور دعوةً حقيقيّة، فهو لم ينسَ في كلّ مرّة دعا فيها للإقبال على شرب الخمرة أن يذكر أنّ عفو الله تعالى أعظم ورحمته أكبر، وهو جدير بهما[2]:

لا تخش عنها إنْ ربّك قد قضى ... كرمًا وإنعامًا بمحو ذنوبها

يبدو أنّه قد وجد في نفسه حرجًا حين جهر بشرب الخمرة، ودعا إلى شربها صراحةً، فسارع إلى إظهار أمله بعفو الله عمّا ارتكب[3]:

ولا تيأسن من العفو المرجّى ... فربّك غافر الذّنب العظيم

ولكن اغتنمه في كلّ أمر ... على ما جاء في الذّكر الحكيم

بدا ابن فركون واثقًا من أنّ الله تعالى سيغفر ذنوبه وهفواته لأنّ الله غفور رحيم، وهو طامع في عفوه وغفرانه، ولم تكن دعوة ابن فركون إلى شرب الخمر والتّغنّي بأجوائها إلّا

---

(1) ابن فركون: الدّيوان، ص255.

(2) السابق، ص255.

(3) السّابق، ص255-256.

استيحاء لمذهب أبي نواس (198)، شأنه في هذا شأنُ كثير من شعراء الأندلس، الذين فُتنوا «باستيحاء مذهب أبي نواس في التغنّي بأجواء الخمر واللّذة، وبرع بعضهم في ذلك حتّى التبس الأمر على نُقّاد المشرق، فحسبوا ما يُلقى عليهم شعرًا لأبي نواس»(1).

ومن مظاهر الاتّجاه الجديد في الشعر الأندلسيّ الغزلُ بالمُذَكّر، الذي أشاعه في المشرق أبو نواس، فقد حاكى فيه مُحدثو الأندلسيّين نظراءهم في المشرق، وقد اقتضت البيئة الأندلسيّة المتحضّرة وجود هذا الغزل «بما شرع يضطرب فيها من مجالس اللّهو والشّراب، وما يتّصل بها من سُقاة وغلمان، وضعف الوازع الدّينيّ والخُلقيّ»(2)، وكان لشعراء غرناطة غزلٌ كثير بالمُذكّر، فقد «كان للبيئة الغرناطيّة أثر في ظهور هذا الغزل ونموّه، إذ تعقّدت فيها مجالس الأُنس والشّراب، التي كثر فيها السُّقاة والغلمان»(3). ولابن فركون إسهامه في هذا الغرض، ومنه قوله في إحدى مُرتجلاته، مُتغزّلاً بـ «فارس»، وهو فيما يبدو واحد من غلمان قصر يوسف الثّالث(4):

أتنْفُقُ البَدْرُ المُنيرُ وفارسٌ	إذا ما تَبَدّى عِلْمُتُ بَدْرًا مُتَمّمَا
جميلٌ قَدِ انْقادَ الجَمالُ لأمرِهِ	وحَكّمَهُ في نفسِهِ فَتَحَكّمَا
حكى السِّحْرَ لحْظًا والغَزالَ تَلَفُّتًا	كما أشْبَهَ الغُصْنَ النَّضيرَ تَنَعُّمَا

وإذا كان لابن فركون ولشعراء غرناطة إسهامٌ في هذا الغرض، فإنّهم لم يفحشوا فيه إفحاشَ الشّعراء المشارقة، «فقد جاوزوا به على سبيل التّقليد والمُباهاة، والتّسلية والتّرويح عن النّفوس»(5)، وما جاء من إشارة ابن فركون ويوسف الثالث إلى أنّ مثل هذا الشّعر قُصِدَ منه الدُّعابة والانبساط، والفُكاهة والدُّعابة (6)، يؤكّد أنّ هذا الشّعر لا يُعبّر عن سلوك وواقع عمليّين، وأنّ الشّعراء ما سلكوا هذا المسلكَ إلاّ «بدافع التّظرّف وإبراز المقدرة على

(1) رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص58.
(2) السابق، ص63.
(3) بارجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص247.
(4) ابن فركون: الدّيوان، ص258.
(5) بارجي: الغزل في الشّعر الأندلسيّ، ص246–247.
(6) انظر: ابن فركون: الدّيوان، ص241، 353، ويوسف الثّالث: الديوان، ص43.

النّظم في هذا الفنّ، وقصد المُداعبة والتّندّر في مجلس الأُنس»(1).

ويظْهَرُ هذا الاتّجاه الجديد في شعر المديح النّبويّ، الذي ذاع في الأندلس، نتيجةَ ظهور تيّار الزّهد والتّصوّف فيها(2)، فعُرف المديح النّبويّ «لما بين التّصوّف وهذا الفنّ من صلة قويّة، فعَرَفَ الشّعر المُحدَث المديح النّبويّ، كما عَرَفَه الشّعر المشرقيّ، بل يُخيّل إلى المرء أنّه لم يقعد شاعر عن الخوض في هذا الموضوع، ولا سيّما في عهود الأندلس المُتأخّرة»(3).

وقد اتّسع المديح النّبويّ واشتدّ عوده مع اطّراد الانهيار السّياسيّ في الأندلس مع بداية تشتّت الوحدة الأندلسيّة في عصر الطّوائف، وازدياد خطر أعداء الشّمال، واستمرّ باشتداد الضّعف السّياسيّ وتلاحق الانهيار حتّى نهاية الأندلس، «ممّا أفضى إلى أن يفزع شعراء الأندلس إلى مديح الرّسول الكريم ﷺ، طالبين الغوث لوطنهم والنّصرة»(4).

ولشعراء غرناطة كابن الجيّاب (749)، وابن الخطيب (776) قصائدُ كثيرة في مدح النّبيّ ﷺ، والتّبرّك بآثره والشّوق إلى قبره(5)، وكان ابن فُركون واحدًا من شعراء غرناطة، الذين أسهموا في هذا الغرض، فقد نظم قصيدة في المديح النّبويّ عندما أطلّ موسم الحجّ عام (818)(6)، صوّر فيها ركب الحجّاج الذين ساروا نحو الأماكن المُقدّسة، وقد تخلّف هو عن الالتحاق بهم، فناداهم وقد فرحت نفسه واستبشرت بفوزهم بالزّيارة، والغبطةُ تملأُ قلبه وروحه، وتمنّى أنّه لم يتخلّف عن الرّكب، وعبّر عن هذا بكلمات يشيع فيها الصّدق(7):

فيا ليتني ما كُنتُ ممّن تخلّفوا وعاجوا عن القصد الحميد وأخفروا

ويبدو أنّ الظّروف الأندلسيّة المُتفرّدة من البُعد عن الأماكن المُقدّسة في الحجاز ومهد

(1) رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص63.
(2) انظر: رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص70، 72.
(3) السّابق، ص73.
(4) السّابق، ص73.
(5) انظر: الحسيني: الشّعر الأندلسيّ، ص68، والواثلي: الشّعر الأندلسيّ، ص167.
(6) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، ص322.
(7) السّابق، ص323.

النّبوة، والانشغال بمواجهة العدوّ الإسبانيّ، عاقت كثيرًا من الأندلسيّين عن تحقيق أمانيهم في أداء فريضة الحجّ، وزيارة القبر النّبويّ الطّاهر، وهذا ما جعلهم ينطوون على أسى بالغ، وحسرة دفينة، ويبعثون برسائل الشّوق والحنين إلى الجوار النّبويّ الشّريف[1].

ويبدو أنّ وَلَهَ ابن فُركون بالجوار النّبويّ الشّريف قد تعاظم، فصار هاجسًا دعاه إلى الاعتراف بالذّنب، والتّقصير عن أداء الواجب، فتوجه إلى النّبيّ الكريم ﷺ، وسأله مُتضرّعًا أن يشفع له عند الله تعالى[2]:

أنا المُذْنِبُ الجاني وأنتَ شَفِيعُهُ وَمِثْلُكَ مَنْ يُرْجَى وَمِثْلِي يُرْحَمُ

وممّا عُرِفَ عند الأندلسيّين في هذا الاتّجاه المُحدث وَصْفُ المُنشآت الحضاريّة، كالقصور والمباني[3]، وللغرناطيّين شعر كثير يصفون فيه منشآت ملوك غرناطة[4]، ومنهم ابن فُركون، الذي وصف في أشعاره المنشآت التي أقامها مليكه يوسف الثّالث[5].

وممّا له صلة بهذا الموضوع تَوَجُّهُ عدد من الشّعراء إلى «نظم مقطوعات شعريّة تُكتب على المباني السّلطانيّة أو في جنبات القصور الخلافيّة أو على الأدوات والأثاث الملكيّ. ويبدو أنّ هذا الشّعر كان يُنظم بإيحاء من الحاكم الأندلسيّ أو إرضاءً له»[6]، وقد أسهم ابن فُركون في هذا النّوع من الشّعر، عندما أمره الملك «بنظم مقطوعات تكتب في طيقان مُحكّكة بالجصّ غير مُفتّحة»[7]، فأورد ابن فُركون ستّة نماذج ممّا نظم لهذا الغرض، يتألّف كلّ واحد منها من بيتين، ومن هذه النّماذج قوله[8]:

إذْ تَخَلَّفْتُ طِيقانٌ قَبْلِي الّتي تُبْدِي ضِيَاءَهَا وَجْهَ الصَّبَاحِ المُشْرِقِ

---

(1) انظر: رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص74.
(2) ابن فُركون: الدّيوان، ص324.
(3) انظر: رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، ص80.
(4) انظر: المَقّري: نفح الطّيب، ص279–280، والحمصي: ابن زمرك، ص26–27.
(5) انظر: ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة، ص49–52.
(6) رجب باشا: الشّعر الأندلسيّ، 81.
(7) ابن فُركون: الدّيوان، ص271.
(8) السّابق، ص281–282.

فالزَّهرُ أبدعُهُ الذي بكمامِهِ والمسكُ أعبقُهُ الذي لم يُفتَقِ

ومن هذا أيضًا أبياتٌ نظمها ابن فُركون لتُنقش على أقداح ابتدعها الملك يوسف، ومنها قوله[1]:

زَرقاءُ لوني قد بَدتْ تُشبِهُ ماءً في نهرْ
خفَّ بهِ النَّورُ رِقَّةً طفا بأعلاهُ الزَّهَرْ

وخلاصة القول أنّ ابن فُركون مثّل في شعره الاتّجاهين السائدين في غرناطة، وهما الاتّجاه التّقليديّ المحافظ، الذي حاكى فيه الأسلاف من الشّعراء، وظهر هذا واضحًا في غزله ومدحه، والاتّجاه الجديد المحدث، الذي نسج فيه ابن فُركون على منوال دعاة التّجديد في العصر العباسيّ، وظهر هذا واضحًا في وصفه مجالس الأنس والسّهر، والغزل بالمذكّر، والمديح النّبويّ، ووصف المنشآت الحضاريّة.

• • •

تناول الفصل الثّالث من هذه الدّراسة الجوانب الفنّيّة في شعر ابن فُركون، وكان الوقوف فيه على خمسة مباحث؛ هي بناء القصيدة، واللّغة الشّعريّة، وموسيقا الشّعر، والصّورة الفنّيّة، والتّقليد والتّجديد، تبيّنّا من خلالها مدى اهتمام ابن فُركون بشعره، ومقدار عنايته بصياغته.

---

(1) ابن فركون: الديوان، ص279.

وفي ختام الحديث عن الشّاعر ابن فُركون يجدر بي الخروج بانطباعات وآراء عن هذا الشّاعر وشعره، وسأقف هنا لأبيّن بإيجاز النّقاط التي وقفت عليها، موضحًا أهمّ النتائج التي توصّلت إليها، وسيكون هذا وفق ترتيب فصول هذه الدّراسة. وقد جاءت في ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: «عصر ابن فُركون وحياته»:

قسمت هذا الفصل قسمين، تناول القسم الأوّل عصر ابن فُركون بعد أن تبيّن لي أنّ شعره لا يُفهم بمعزل عن معالم عصره السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والفكريّة والثّقافيّة، فسعيت إلى شرحها وإيضاحها بما يناسب الغرض منها في هذه الدّراسة.

فقد شهدت مملكة غرناطة النّصريّة منذ تأسيسها على يد ابن الأحمر عام (635)، نشاطًا سياسيًّا، كان له أثره الواضح في جوانب حياة غرناطة كافّةً. وفي المصادر التّاريخيّة الموجودة معلومات وافية عن هذا النّشاط منذ تأسيس المملكة إلى ما قبل نهاية القرن الثّامن الهجريّ، غير أنّ هذه المصادر تقلّ، وتقلّ معها المعلومات عن المرحلة اللّاحقة، ويأتي ديوان ابن فُركون، وقد عاش صاحبه هذه المرحلة، فيقدّم ما يُعين على فهم هذه المرحلة من خلال تواريخ دقيقة دوّنها ابن فُركون في تقديمه لقصائده، فأضافت معلومات تاريخيّة مهمّة، ومنها تاريخ وفاة يوسف الثّالث، التي كانت بالتّحديد عام (820)، ونسبة مَنْ تولّى أمور غرناطة من بعده، وهو ابنه مُحمّد الأيسر.

وكما كان في غرناطة نشاط سياسيّ، كان فيها نشاط اجتماعيّ واقتصاديّ، وقد أسهمت في ذلك حياة الهدوء والاستقرار التي عاشتها المملكة آنذاك، وهجرة أهالي المدن الأندلسيّة، التي سقطت بيد الإسبان إلى المملكة، وقد حملوا معهم مهاراتهم وخبراتهم العظيمة.

كما شهدت المملكة نشاطًا فكريًا وأدبيًا كبيرًا، فكان قصر الحمراء منتدى أدبيًا زاهرًا، يزخر بألوان مختلفة من الفنون الأدبيّة؛ إذ شجّع ملوك بني نصر الأدب والأدباء، وكان معظمهم من الشّعراء المجيدين.

وبيّنت في القسم الثّاني من الفصل الأوّل حياةَ ابن فُركون، فحدّدت ملامح من سيرته وحياته، التي قضاها في غرناطة، استنادًا إلى المعلومات المتناثرة في ديوانه.

وقد اقتضى الأمر أن أوضح النّقاط الآتية: اسمه ولقبه، ونسبه، وولادته، وأسرته، وصلته بأدباء عصره، ومناصبه، وآثاره، ووفاته. وهي الجوانب الجديدة في هذه الدّراسة، والتي اعتمدت فيها كلّيًا على الدّيوان و«مظهر النّور»، واستهديت فيها بعمل الدّكتور مُحمّد بن شريفة في تقديمه للدّيوان، واستكملت ما نقص منه.

الفصل الثّاني: «أغراض شعر ابن فركون»:

تحرّيتُ الحديث في الفصل الثّاني عن أغراض شعر ابن فُركون، فقمت بدراستها بعد أن رتّبتها بحسب أهمّيّة كلّ غرض، ومدى وقوف ابن فُركون على كلّ واحد منها، وعملت على أن يستقلّ كلّ غرض منها بدراسة، عرّفت في بدايتها بالغرض الشّعريّ، وبيّنت مكانته في الشّعر الأندلسيّ والشّعر الغرناطيّ، ثمّ عرضت لما قاله ابن فُركون فيه، وربطت بينه وبين مُعاصريه من شعراء غرناطة، وانتهيت بخلاصة ختمت فيها الحديث عن الغرض، مُجملاً النّتائج التي وصلت إليها.

ووجدت أنّ ابن فُركون قد أسهم مثل غيره من شعراء غرناطة، في أكثر أغراض الشّعر فيها على تفاوتٍ في وقوفه عند كلّ واحد منها، ولم يتخلّف عن شعراء عصره.

وجاءت أغراضه مرتّبة على هذا النّحو:

- المدح: حمل ابن فُركون لواء هذا الغرض، وهو واحد من أهمّ أغراض الشّعر في غرناطة، مثّل فيه القيم السّامية والمُثل النّبيلة، ورسم من خلاله ملامح من حياة يوسف

الثّالث في مرحلة ما زالت مجهولة، فكان هذا المدح هو الوثيقة الأدبيّة التّاريخيّة الباقية عن هذا الرّجل.

- **الشّعر السّياسيّ**: استكمل ابن فُركون رسم صورة يوسف الثّالث وصورة غرناطة وما فيها من خلال شعره السّياسيّ، الذي وثّق فيه كثيرًا من الأحداث السّياسيّة، التي تفرّد بها ديوان ابن فُركون، رصد فيها الحياة السّياسيّة في حقبة ضنّت بها المصادر. وفي هذا تظهر القيمة التّاريخيّة لديوان ابن فُركون حول حقبة دقيقة وغامضة من تاريخ المغرب والأندلس، وذلك بسبب ضياع مصادرها الأصليّة.
- **الوصف**: وصف ابن فُركون في هذا الغرض طبيعة غرناطة والحياة الاجتماعيّة فيها، وكان شعره الذي وصف فيه الأبنية التي أنشأها يوسف الثّالث مادّةً جديدةً تبيّن مراحل استكمال بناء غرناطة في عهد يوسف.
- **الغزل**: كثر هذا الغرض في شعر ابن فركون لكثرة مدحه، فقد جاء أكثره مُقدّمات للمدائح، ولم يكن هذا الغرض إلا تقليدًا، وكان له إلى جانب غزله بالمرأة غزل بالمذكّر.
- **الإخوانيّات**: أسهم ابن فركون فيه، وعبّر فيه عن قضايا خاصّة وأمور شخصيّة، وتجلّى فيه صدق الإحساس وعمقه، فترجمه بكلمات عذاب، وعاطفة صادقة ولغة جميلة، بعيدة عن المبالغة، فلا تكلّف ولا اصطناع.
- **الهجاء**: كان لابن فركون منه قَدْرٌ يسير، ومع ذلك فقد عكس جانبًا من الخصومات التي نشبت بين الملك يوسف الثّالث وجيرانه، وكان الشّاعر يسعى إلى إثبات تفوّق ملكه على خصومه، وجدارته في الوقوف في وجوههم. وجاء هجاؤه في معرض مدحه ولم يفصله عنه؛ إنّما امتزج به ليخدم غرضه العامّ من القصيدة.
- **الرّثاء**: لم يهتمّ به ابن فركون اهتمامه بغيره من الأغراض، فلم يكثر عنده، وكما وقف الشّاعر مدحه على الملك وقف رثاءه عليه وعلى أفراد أسرته، ولم يتخطّهم خارج البلاط النصريّ، فلم يرث أحدًا من الذين يعرفهم، أو الذين سقطوا شهداء في ساحات المعارك مع الإسبان.
- **المديح النّبويّ**: كان لابن فُركون إسهامه في هذا الغرض، غير أنّه لم يتجاوز قصيدة

واحدة، تمثّلت فيها معاني الهداية والصّدق، والتعبير عن الحبّ والتوجّه بالخطاب إلى الجناب النّبوي، والنّهاية بالصّلاة والسّلام على النّبيّ.

- **الحكمة:** لم يكن شعر الحكمة لدى ابن فُركون غرضًا واضح المعالم، مُتكامل السّمات، فلم يسهم فيه إلاّ بأبيات متفرّقة، فيها نظرات حِكَميّة، عبّر فيها عن رأيه في الحياة والمجتمع، وصدر فيها عن مرجعيّة دينيّة إيمانيّة.
- **الفخر:** أسهم ابن فُركون في هذا الغرض بفخره بشاعريته، ولم يكن هذا الفخر إلاّ تقليديًا، اتّبعه ابن فُركون كما اتّبعه شعراء عصره.

الفصل الثالث: «الدّراسة الفنّيّة»:

مضيتُ في هذا الفصل أتناول الأبعاد الفنّيّة لشعر ابن فُركون، فقصرت الفصل على خمسة مباحث:

- **بناء القصيدة:** كان أكثر نظم ابن فُركون من القصائد، التي اتّخذت شكل القصيدة العربيّة التّقليديّة، مع محاولة الخروج على هذا الشّكل بما نظمه من مُخمّسات ودوبيت وموشّح.

وأحكم ابن فُركون بناء قصائده وفق بُنى أربع أساسيّة، وبرز في كلّ واحدة اهتمامه البالغ، فاعتنى بمطالع قصائده وجوّدها وراعى فيها مناسبة القول، وركّز في مُقدّمات قصائده على موضوع الغزل لما له من أثر واضح في نفوس المستمعين، ومع ذلك لم تكن مُقدّماته تقليديّة تمامًا، إنّما كان يتراوح فيها بين مذهب أهل البادية حينًا، ومذهب أهل الحاضرة حينًا آخر، كما أنّه استغنى أحيانًا عن مُقدّمته، فباشر موضوعه مباشرة.

وبرع إلى حدّ كبير في تخلّصه من المُقدّمة إلى الغرض الرّئيس، وكان مذهبه مذهب المُحدَثين في الانتقال إلى غرضه الرّئيس وهو المدح، ثم ختم قصائده بخواتيم، دعا فيها للملك، و افتخر فيها بشاعريّته.

اعتنى ابن فركون بقصائده واهتمّ بصياغتها وسَبْكِها، غير أنّه وقع في أسر المدحة فعمد

إلى التّكرار، حتّى كادت بعض مدائحه أن تكون نسخة مكرّرة على الرّغم من محاولته التّنويع، وقد تلطّف وسلك كلّ سبيل ليُخرج مدائحه في أبهى حُلّة، تليق بممدوحه الملك الشّاعر.

- **اللّغة الشّعريّة**: كانت ألفاظه تعبّر عن معانيه، واختلفت بحسب الغرض الّذي وردت فيه، وارتبطت بالموضوع وبحالة الشّاعر النّفسيّة، وحملت معانيه وفكره وعبّرت عن مشاعره وعواطفه، وامتازت بالوضوح والبساطة والفصاحة.

وكان معجمه اللّغويّ غنيًا ومتنوّعًا بالمُفردات، نهل موادّه من موارد عدّة، فصدر عنها بكثير من مفردات الحياة والدّين والطّبيعة والأدب والتّاريخ، وبرزت من خلالها ثقافته الواسعة، غير أنّه وقع في التّكرار عندما راح يردّد كثيرًا من المفردات والتّراكيب.

- **موسيقا الشّعر**: حرص في موسيقا شعره الخارجيّة على اختيار البحر، فنظم أكثر قصائده على البحور الخليليّة، فاستخدم الأوزان المعروفة الشّائعة كالطّويل والكامل والبسيط، وهي البحور الّتي تصلح للمدح.

وكما برزت عناية ابن فُركون في اختيار الأوزان برزت عنايته كذلك في اختيار قوافيه، من خلال اختياره حروفها وتنوعها وترتيب أصواتها، ومع أنّه كان شديد العناية بقوافي أبياته، فإنّها لم تخلُ من عيوب تشوبها، كالإيطاء.

وحرص في موسيقا شعره الدّاخليّة على توفير عناصر موسيقيّة، تمثّلت في عدد من الأساليب والمُحسّنات.

لقد برز اهتمامه الواضح بموسيقا شعره، فطغى اهتمامه بالموسيقا على اهتمامه بالمعنى نفسه، فغدا الشّعر عنده في مُجمله موسيقا، يهمّه أن يطرب أكثر من أن يُعمل الفكر أو يحرّك العواطف، فكان ينتقي الأوزان ويعتني بالقوافي، ويهتمّ بالحروف والكلمات، فيجانس ويطابق بدقّة ومهارة، حتّى غدا الأمر عنده أحيانًا مَحضَ قول.

- **الصّورة الفنّيّة**: شعر ابن فُركون غنيّ بالصّور الفنّيّة المتنوّعة والمتعدّدة المصادر، فجاءت صوره تموج بالحركة والحيويّة، سعى من خلال عدد منها إلى توجيه سلوك

المتلقّي أو موقفه، ولم تكن له غاية من وراء عدد آخر منها سوى تحقيق المتعة الشّكليّة، فصارت الصّورة غاية في ذاتها، وليست وسيلة لأيّة غاية أخرى.

- **التّقليد والتّجديد**: مثّل ابن فُركون في شعره الاتّجاهين السّائدين في غرناطة، وهما الاتّجاه التّقليديّ المُحافظ، الذي حاكى فيه الأسلاف من الشّعراء، وظهر هذا واضحًا في غزله ومدحه، والاتّجاه الجديد المُحدث، الذي نسج فيه ابن فُركون على منوال دعاة التّجديد في العصر العباسيّ، وظهر هذا واضحًا في وصفه مجالس الأنس والسّهر، والغزل بالمُذكّر، والمديح النّبويّ، ووصف المنشآت الحضاريّة.

إنّ ما ظهر من خلال دراسة أغراض شعر ابن فُركون، والدّراسة الفنّيّة لهذه الأغراض، يؤكّد أنّ ابن فُركون لم يتخلّف عن ركب الشّعراء في عصره، ولم يكن أقلّ منهم مكانة أدبيّة، بل لعلّه كان من أبرزهم في الرّبع الأوّل من القرن التّاسع الهجريّ، وقد وثّق من خلال شعره هذه المرحلة من حياة غرناطة بأبعادها السّياسيّة والاجتماعيّة والعمرانيّة.

وبهذا يكون هذا البحث قد وصل إلى نهايته، وإنّي لأرجو أن يكون إسهامي هذا، على تواضعه، لبنة تُسهم في إعلاء صرح الأدب العربيّ، ولعلّ أهمّ ما يوصي به الباحث، هو توجيه دارسي الأدب العربيّ إلى ضرورة جمع أدب مملكة غرناطة والاهتمام به، ففي هذا الأدب مادّة غنيّة جديرة بوقوف الباحثين عليها من دون إغفال أو تجاهل أيّ اسم من أسماء أدبائها ممّن يُظنّ أن لا قيمة لشعره.

الملاحق

1 - تراجم الأعلام الذين كان لهم صلة وثيقة بحياة ابن فركون وشعره.

2 - جداول إحصائية لأبيات الشاعر.

3 - جدول ترتيب الأحداث التي وثّقها ابن فركون في ديوانه.

1 – تراجم الأعلام الذين كان لهم صلة وثيقة بحياة ابن فُركون وشعره

• ابن الأكحل، أبو عبد الله:

كان مُعاصرًا لابن فُركون وكانت بينهما مُكاتبات، وأشار ابن فُركون إلى أنّه كان من كتّاب الدّيوان الملكيّ. (ابن فُركون: الدّيوان، المقدمة ص17، 314).

• الأُليريّ، أبو عبد الله:

مُحمّد بن عليّ بن عبد الملك الأُليريّ الغرناطيّ، عُرف بابن مليح، وقع النّقل عنه في «شرح التّحفة» لابن عاصم، وكان حيًّا عام اثنين وثلاثين وثمانمئة. كانت بينه وبين ابن فُركون مُكاتبات. (ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة ص17، 301، وابن شريفة: البسطيّ آخر شعراء الأندلس، ص110–114).

• الأليريّ، أبو عثمان:

كان مُعاصرًا ابن فُركون، وله مدحة في «مظهر النّور» رفعها إلى يوسف الثّالث. (ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة ص27، 301، حاشية 272، مظهر النّور، ص69).

• ابن الأيسر، أبو بكر:

كان مُعاصرًا لابن فُركون، وكانت بينهما مُكاتبات. (ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة ص17، 287).

• ابن البنّاء، أبو القاسم بن حاتم المالقيّ:

كان مُعاصرًا لابن فُركون، تولّى قضاء جبل الفتح، وله مدحتان في «مظهر النّور»، رفعهما إلى يوسف الثّالث، وكانت بينه وبين ابن فُركون مكاتبات. (ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة ص16، 73، 303، مظهر النّور، ص75).

• ابن جماعة، أبو الفضل:

تولّى رياسة الكتابة في غرناطة، ثمّ قضاء الجماعة فيها، كان مُعاصرًا لابن فُركون، وكانت

بينهما مكاتبات. (ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة ص17، 309).

- **ابن الجيّاب الأنصاريّ، أبو الحسن عليّ بن مُحمّد (749):**

كان وزيرًا لبني الأحمر، وواحدًا من أشهر كتّاب مملكة غرناطة وشعرائها في القرن الثّامن الهجريّ، ولد في غرناطة، وفيها توفّي بسبب الطّاعون الذي انتشر عام (749). (المقّري: نفح الطّيب، 326/4، 22/5، 75، 81، 98، 129، 434، 446، 448، 454، 455، 456، وعبد الرّحمن: معجم الشّعراء الأندلسيّين والمغاربة، ص81-82، الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص74).

- **ابن الحكيم، مُحمّد بن عبد الرّحمن (708):**

تقلّد الوزارة والكتابة لأبي عبد الله مُحمّد المخلوع، ولُقّب بذي الوزارتين، انتهى أمره في غرناطة قتيلاً. (المقري: نفح الطّيب، 253/2، 618، 619، 623، 624، 625، وعبد الرّحمن: معجم الشّعراء الأندلسيّين والمغاربة، ص107).

- **ابن خاتمة الأنصاريّ، أبو جعفر أحمد بن عليّ (770):**

طبيب ومؤرّخ وأديب بليغ، شاعر المريّة الكبير، له ديوان شعر وكتاب تاريخيّ بعنوان «مزيّة ألمريّة على غيرها من البلاد الأندلسيّة»، ورسالة بعنوان «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» وصف فيها الوباء، الذي عصف بألمريّة وسائر البلاد عام (749)، وله رسائل إخوانيّة. (ابن الخطيب: الإحاطة، 247/1، والمقّري: نفح الطّيب، 163/1،24، 175/2، 441/3، 302/4، 28/6، 33، 34، 37، وعبد الرّحمن: معجم الشّعراء الأندلسيّين والمغاربة، ص115، الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص109).

- **ابن الخطيب، أبو عبد الله مُحمّد بن عبد الله السّلمانيّ اللّوشيّ، المعروف بابن الخطيب، والمُلقّب بلسان الدّين (776):**

تولّى الكتابة في عهد الملك أبي الحجّاج يوسف الأوّل، ثمّ تولّى وزارة ابنه الغنيّ بالله من بعده. سعى حاسدوه للنّيل منه، فترك غرناطة بعد أن أحسّ بتحوّل مليكه عنه فلجأ إلى

المغرب، ومع ذلك لم ينجُ من الدّسائس، فسُجن وحُوكم وخُنق في سجنه. كان شاعرًا وكاتبًا وفقيهًا وطبيبًا، وله مصنّفات كثيرة في موضوعات شتّى، لعلّ أهمّها كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة». (المقّري: نفح الطّيب، الجزآن السّادس والسّابع، وعبد الرّحمن: معجم الشّعراء الأندلسيّين والمغاربة، ص323-324، الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص114-115).

- ابن زمرك، أبو عبد الله مُحمّد بن يوسف بن أحمد الصّريحيّ (796):
تلميذ ابن الخطيب الذي أفاد من علمه وسعة اطّلاعه، غير أنّه لم يحفظ لأستاذه فضله، فقد انقلب عليه وسعى إلى قتله، وصار وزير الغنيّ بالله من بعده، وشاعر الحمراء في وقته.

برع ابن زمرك في النّثر والشّعر، وله أبيات ما تزال منقوشة على جدران الحمراء، جمع شعره يوسف الثّالث ملك غرناطة، في كتاب سمّاه «البقيّة والمدرك من كلام ابن زمرك». (ابن الخطيب: الإحاطة، 221/2، والمقّريّ: نفح الطّيب، 46/5، 50، 90، 109، 111، 75/6، 77، 78، 147، 501، 145/7، 160، 161، 162، عبد الرّحمن: معجم الشّعراء الأندلسيّين والمغاربة، ص 142، الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص146).

- ابن سالم أبو القاسم:
كان معاصرًا لابن فُركون، وله مدحة في «مظهر النّور» رفعها إلى الملك يوسف الثّالث. (ابن فُركون: مظهر النّور، ص27).

- ابن السّرّاج، أبو زكريّا يحيى:
كان معاصرًا لابن فركون، وكانت بينهما مكاتبات، وله مدائح في يوسف الثّالث، أوردها ابن فركون في «مظهر النّور». (ابن فُركون: الدّيوان، ص318، مظهر النّور، ص81، والمقّريّ: نفح الطّيب، 245/5، 341، 343، 345، 348، 513).

- الشّرّان، أبو عبد الله مُحمّد بن إسحق المعروف بالشّرّان الغرناطيّ (بعد عام 837):
تولّى رياسة الكتابة في غرناطة بعد عهد يوسف الثّالث، عُرف بنظم الشّعر، وله مدائح

رائعة في الملك يوسف الثّالث. (ابن فركون: مظهر النّور، ص29، 44، 89، والتّنبكتيّ: نيل الابتهاج، ص311–312، والمقّريّ: أزهار الرّياض، 133/1 وما بعدها).

- ابن عاصم القيسيّ الغرناطيّ، القاضي أبو بكر مُحمّد (829):

ولي قضاء الجماعة في غرناطة، وكان عالمًا وفقيهًا. ومن مؤلّفاته كتاب «تحفة الحُكّام في نكت العقود والأحكام»، وأرجوزة فقهيّة بعنوان «مهيع الوصول في علم الأصول». ومن مؤلّفاته الأدبيّة كتاب «حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحِكَم والأمثال والحكايات والنّوادر». ومن مؤلّفاته في النّحو الأرجوزةُ المسمّاةُ «الموجز في النّحو».

تولّى أمور الوزارة للملك يوسف الثّاني ولابنه يوسف الثّالث، كما ولي قضاء الجماعة في غرناطة.

كان معاصرًا لابن فُركون، وله في مظهر النّور قصائد في مدح يوسف الثّالث. (ابن فُركون: مظهر النّور، ص25، 31، 54، والمقّريّ: نفح الطِّيب، 19/5، 513، 540، 157/6، 109/7، 169، 346، وبالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسيّ، ص430).

- ابن عاصم القيسيّ الغرناطيّ، أبو يحيى مُحمّد بن مُحمّد (بعد عام 857):

ولي قضاء الجماعة في غرناطة عام (838)، وهو من أكابر الفقهاء فيها، حيث كان على اطّلاع واسع بالفقه ومعرفة بالأحكام، هو ابن أبي بكر بن عاصم، له شرح قيّم على تحفة والده. عُرف بابن الخطيب الثّاني، وتولّى أمور الكتابة والوزارة للملك يوسف الثّالث، وبرع في النّظم والنّثر، وقد أورد المقّريّ كثيرًا من شعره في كتابه «أزهار الرّياض».

من مؤلّفاته كتاب «الرّوض الأريض في تراجم ذوي السّيوف والأقلام والقريض»، وكتاب «جنّة الرّضا في التّسليم لما قدّر الله تعالى وقضى».

كان من معاصري ابن فُركون وله قصائد في «مظهر النّور». (ابن فُركون: مظهر النّور، ص28، 39، 71، 73، والمقّريّ: أزهار الرّياض، 145/1، وما بعدها، 186، 185/3، نفح الطِّيب، 507/4، 510، 19/5، 22، 513، 514، 27/6، 146،

147، 150، 151، وعبد الرّحمن: معجم الشّعراء الأندلسيّين والمغاربة، ص400).

- أبو العبّاس الحسنيّ، الشّريف:

هو ولد أبي القاسم الشّريف السّبتيّ، وفي «مظهر النّور» جملة من شعره الذي قاله في المناسبات، وقد ولي خطّتي الكتابة والقضاء منذ عهد الغنيّ بالله. (ابن فُركون: الدّيوان، ص250، 290، مظهر النّور، ص26، 33، 86، والتّنبكتي: نيل الابتهاج، ص76، والمقرّي: نفح الطّيب، 196/2، 197، 104/3، 240، 383/4، 440/5، 540، 244/6).

- العرّاديّ، أبو القاسم:

كان مُعاصرًا لابن فُركون، وله مدحتان في «مظهر النّور» رفعهما إلى يوسف الثّالث، ولم أقف له على ترجمة أو أثر عند غير ابن فُركون. (ابن فُركون: مظهر النّور، ص96).

- الغُربيّ، أبو جعفر:

كان معاصرًا لابن فُركون، وله مدحة في «مظهر النّور» رفعها إلى يوسف الثّالث، ولم أقف له على ترجمة أو أثر عند غير ابن فُركون. (ابن فُركون: مظهر النّور، ص 78).

- ابن عمر، الفقيه أبو عليّ عمر:

كان معاصرًا لابن فركون، وله معه خبر في الدّيوان، ولم أجد له ذكرًا عند غيره. (ابن فركون: الدّيوان، ص 282).

- المالقيّ، أبو الحسن:

كان معاصرًا لابن فُركون، وله مدحة رفعها إلى يوسف الثّالث، ولم أقف له على ترجمة أو أثر عند غير ابن فُركون. (ابن فُركون: مظهر النّور، ص95).

- ابن فُركون، أبو جعفر أحمد بن مُحمّد أحمد بن هشام القرشيّ(729):

وُلد عام (649) في ألمريّة، وانتقل منها صغيرًا إلى غرناطة، حيث نشأ فيها طالبًا للعلم، وتتلمذ لعدد من علماء عصره فيها.

وَلِيَ أبو جعفر قضاء رُندة ومالقة، ثمّ قضاء الجماعة في غرناطة عام (704) في عهد

الملك مُحمّد الثّالث، وعندما صار الأمر إلى أبي الجيوش أقرّه على منصبه إلى أوّل عهد أبي الوليد إسماعيل، حيث صُرف عن منصبه عام (713) لمُشايعة أبي الجيوش، فلزم داره لمطالعة العلم أكثر من عشر سنين، ثمّ عاد أبو الوليد إسماعيل فولاّه قضاء ألمريّة، ثمّ صُرف عنه آخر صفر عام (729) فعاد إلى داره وكتبه، حتّى قُبض عن نيّف وثمانين عامًا في ذي القعدة (729). وهو جدّ والد أبي الحُسين ابن فُركون، موضوع هذا البحث. (ابن الخطيب: الإحاطة، 1/159–163، 249، 335، 557–558، 561/3، وابن فرحون: الدّيباج المذهب، ص292، والتّنبكتي: نيل الابتهاج، 82–83، وعبد الرّحمن: معجم الشّعراء الأندلسيّين والمغاربة، ص303).

- **ابن فُركون، الكاتب القاضي أحمد بن سليمان بن أحمد بن مُحمّد بن أحمد القرشيّ:**

حفيد قاضي الجماعة أبي جعفر بن فُركون ووالد الشّاعر أبي الحسين ابن فُركون، وُلد في ربيع الأوّل (747)، في عهد الملك أبي الحجّاج يوسف الأول.

امتاز منذ حداثة سنّه بالذكاء والإدراك والنّجابة والنّبل، ودرس على شيوخ بلده، ومنهم ابن الخطيب، ونظم الشّعر، وسبق أهل زمانه في حسن الخطّ، فاقتضى ذلك ارتقاءه إلى الكتابة السّلطانيّة.

كان يتولّى قضاء برجة عام (799)، له شعر قليل مثبت في المصادر التي ترجمت له. (ابن الخطيب: الإحاطة 1/229، وابن فُركون: مظهر النّور، ص 59،58،35، 61، 62، 64، 66، 92، 93، الدّيوان، 287، 385، والمقّريّ: نفح الطّيب، 7/287–288، والوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص264).

- **ابن قُطبة، الفقيه أبو القاسم بن أحمد بن أبي القاسم:**

واحد من أبناء قطبة النابغين في الأدب، كان معاصرًا لابن فركون، وكانت بينهما مُكاتبات. (ابن فُركون: الدّيوان، ص315، والمقّريّ: نفح الطيب، 5/458، وعبد الرّحمن: معجم الشعراء الأندلسيّين والمغاربة، ص339، 401، 469، والوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص274).

- أبو المعالي الحسنيّ:

هو الشّريف الحسنيّ أبو المعالي مُحمد ولد الشّريف السّبتيّ، كانت بينه وبين ابن فُركون صداقة ومُكاتبات. (ابن فُركون: الدّيوان، ص293، المقّريّ: نفح، 198/5، 199).

- ابن أبي منصور الحسينيّ المكّيّ، أبو عامر:

كان معاصرًا لابن فُركون، وأورد له قصيدة وقطعتين في مدح يوسف الثّالث، أوردها ابن فركون في «مظهر النّور». (ابن فُركون: مظهر النّور، ص98).

- ابن مليح، أبو مُحمّد:

من معاصري ابن فركون، له أبيات في مدح يوسف الثّالث. (ابن فُركون: مظهر النّور، ص26، 37).

- النّباهيّ، أبو جعفر بن أبي حامد بن الحسن:

كان معاصرًا لابن فركون، وله قصيدتان في مدح يوسف، وقد أورد البسطيّ اسمه في ديوانه غير مرّة. (ابن فُركون: مظهر النّور، ص67، وابن شريفة: البسطيّ آخر شعراء الأندلس، الفهرس).

- ابن هُذيل، أبو الحسن:

من معاصري ابن فركون، وله من المؤلّفات المعروفة «تحفة الأنفس» و«حلية الفرسان» و«عين الأدب والسّياسة»، وله مدحتان رفعهما إلى يوسف الثّالث. (ابن فُركون: مظهر النّور، ص 42، 88).

- يوسف الثّالث، يوسف بن يوسف بن مُحمّد الغنيّ بالله ابن الأحمر(820):

الملك يوسف الثّالث حكم غرناطة ما بين (810-820)، واحد من الأسماء التي برزت في النّصف الأوّل من القرن التّاسع الهجريّ، والذي زخر بلاطه بعدد من الأدباء. عُني بجمع شعر ابن زمرك وجعله في كتاب، سمّاه «البقية والمدرك من كلام ابن

زمرك»[1]، وقد أورد المقّريّ كثيرًا من شعره في كتابيه نفح الطّيب وأزهار الرّياض.
كان يوسف الثّالث شاعرًا أديبًا، وعاش في كنفه الشّاعر أبو الحسين بن فُركون طوال مرحلة حكمه. (ابن فُركون: الدّيوان، المقدّمة ص19 وما بعدها، ويوسف الثّالث: الدّيوان، المقدّمة، ص(ر) وما بعدها، وبازجي: ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص26-35، الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص357-358).

(1) وقع الطّوخي في الخطأ عندما أشار إلى أنّ الأمير إسماعيل بن الأحمر (708) هو من وضع كتابًا ضمّنه شعر ابن زمرك أسماه ((البقيّة والمدرك))، والصّواب أنّ يوسف الثّالث هو من وضعه. (انظر: الطوخي: مظاهر الحضارة، ص355، والحمصي: ابن زمرك، ص6، 14).

2 ـ جداول إحصائية لأبيات الشاعر

نظم ابن فركون		
نوع النظم	عدد الأبيات	العدد
يتيم	1	1
نُتفة	2	38
	3	3
	4	2
قطعة	5	5
	6	7
قصيدة	10 – 7	15
	20 – 11	28
	30 – 21	21
	40 – 31	17
	50 – 41	8
	60 – 51	10
	70 – 61	11
	80 – 71	6

	90 – 81	
1	91	
1	94	
1	108	
1	116	
1	135	
1		موقع
4		مُخمّس
1		دو بيت

الأحرف التي استخدمها الشّاعر رويًا		
حرف الرّويّ	عدد الأبيات	النّسبة المئويّة
الهمزة	153	3.4405
الباء	441	9.9167
التّاء	71	1.8154
الثّاء	73	1.6415
الجيم	100	2.2487
الحاء	299	6.7236
الدّال	635	14.2792
الرّاء	218	4.9021
الزّاي	2	0.0449
السّين	127	2.8558
الصّاد	53	1.1918
الضّاد	51	1.1468
الطّاء	74	1.664
العين	311	6.9934
الغين	6	0.1349

3.373	150	الفاء
6.3413	282	القاف
0.7195	32	الكاف
11.9631	532	اللاّم
11.131	495	الميم
3.3055	147	النون
3.0357	135	الهاء
1.3267	59	الياء

البحور الشعرية التي نظم عليها الشاعر		
البحر	عدد الأبيات	النسبة المئوية
الطويل	2122	47.7175
الكامل	869	19.5412
البسيط	515	11.5808
الخفيف	314	7.0609
المتقارب	250	5.6217
السّريع	177	3.9802
الوافر	108	2.4286
الرّمل	43	0.9669
المجتث	22	0.4947
الرّجز	6	0.1349
المنسرح	2	0.0449

الأبيات التي ارتجلها ابن فركون أو جاءت من دون رويّة أو للحين من أمره		
البحر	عدد القطع والقصائد	عدد أبياتها
الطّويل	8	169
الكامل	3	70
الخفيف	2	53
المتقارب	2	36
الوافر	3	28
الرّمل	1	22
البسيط	1	16
السّريع	1	12
المجتثّ	1	6

نوع القافية					
القافية		عدد القوافي	مجموعها	النسبة المئوية
	مُجرّدة	2178		
مُطْلقة	مردوفة	1605	4239	95.3226
	مُؤَسَّسة	456		
	مُجرّدة	43		
مُقَيَّدة	مردوفة	96	207	4.6548
	مُؤَسَّسة	88		

نمط القافية			
مُتواتر	64	1229	27.637
مُتدارك	89	2773	62.357
مُتراكب	19	348	78.255
مُتكاوس	0	0	0
مُترادف	5	96	2.1587

البحور المجزوءة التي نَظَمَ عليها الشَاعر		
البحر	عدد الأبيات	المجزوء منها
الكامل	869	59
مُخلّع البسيط	515	20
الخفيف	314	6
الوافر	108	6
الرَّمل	43	35
الرَّجز	6	6

توزّع نظم الشّاعر في مصدريه

نوع النّظم	المظهر	الدّيوان	المجموع	ملاحظات
قصيدة	11	121	121	أبيات المظهر هي ذاتها في الدّيوان
قطعة	-	13	13	
نتفة	-	41	41	
بيت يتيم	-	1	1	
موشّح	1	-	1	
مُخمّس	1	4	4	أبيات المظهر هي ذاتها في الدّيوان
دو بيت	-	1	1	

أوزان العينيّات

البحر	عدد القصائد
الطّويل	10
الكامل	5
البسيط	3
المُتقارب	1

تصريع المطالع وتقفيتها		
المطلع	العدد	النسبة المئوية
مُصرَّع أو مُقفّى	124	70.0564
مُصمَت	53	29.9435

العيديّات				
العام الهجري	العيد	عدد أبيات العيديّة	البحر	رقم الصّفحة في الدّيوان
811	فطر	51	المتقارب	190
811	أضحى	48	الطّويل	193
812	فطر	43	الكامل	195
812	أضحى	2	الطّويل	197
813	فطر	59	الطّويل	198
813	أضحى	62	الطّويل	201
814	فطر	64	الطّويل	204
814	أضحى	70	الطّويل	207
815	فطر	54	البسيط	210
815	أضحى	67	الطّويل	213
816	فطر	75	الكامل	216
816	أضحى	79	الطّويل	220
817	فطر	74	الطّويل	225
817	أضحى	91	الطّويل	228

362	الكامل	78	قطر	818
366	البسيط	63	اضحى	818
370	الكامل	94	قطر	819
374	الطويل	77	اضحى	819
379	البسيط	44	قطر	820

3 – جدول ترتيب الأحداث التي وثّقها ابن فُركون في ديوانه و«مظهر النّور».

التاريخ	الحدث	الدّيوان
	781	
781	– ولادة الشّاعر ابن فُركون.	322، 325
	798	
رمضان	– نَظَمَ الشّاعر قصيدة في الغزل.	261–262
	799	
مُحرّم	– نَظَمَ ابن فُركون قصيدة في الغزل.	265
أوّل صفر	– نَظَمَ ابن فُركون قصيدة، كُلّفَ بها.	262
صفر	– نَظَمَ ابن فُركون قصيدة في الغزل، «وهي ممّا يجب إلغاؤه، لحداثة السّنّ عند نظمها».	265
أوّل ربيع 1	– نظمَ الفقيه أبو بكر بن الأيسر قطعة، أرسلها إلى ابن فُركون، أوّل انتحاله النّظم على «جهة الاختبار»، وقد سافر والد الشّاعر إلى موضع قضائه من بُرّجة.	287
آخر رجب	– أطلع ابنُ فُركون الشّريفَ أبا العبّاس الحسنيّ، على قصائد من نظمه.	290
	804	
ذو القعدة	– نظم ابن فُركون قصيدة، وهي من المُرتجلات المُقترحات، عروضًا وقافية.	256

محرّم	– كتب الشريف أبو المعالي الحسنيّ إلى ابن فُركون، وقد تقدّم في ذلك العهد للكتابة السلطانية دونَه، مَنْ آثره صاحب الخُطّة في الوقت بها.	293
	805	
	808	
24 صفر	– ارتسم ابن فُركون في كُتّاب المقام العليّ، فكتب إليه مهنّئا أبو عبد الله الأليريّ... ».	302–301
آخر ذي الحجّة	– كانت بين ابن فُركون «وبين الفقيه أبي زكريا يحيى بن السّراج من أهل رُندة مكاتباتٌ»، إلى أن زلّت بأبي زكريا قدمه... «ونزغ أيّام فتنة الرّئيس البائس، الواصل إلى جانب جبل الفتح إليه، «ثمّ استقرّ أخيرًا بفاس، وبها وافته المنيّة».	318
	809	
3 صفر	– كتب ابن فُركون إلى الفقيه أبي عبد الله بن الأكحل، وقد وجّه إليه «بشيء من التّين المَنقال».	314
10 ربيع 2	– نظم ابن فُركون قصيدة، راجع بها الفقيهَ الكاتب أبا القاسم بن أحمد ابن أبي القاسم بن قُطبة.	316–315
19 جمادى 2	– ارتجل الشّاعرُ قصيدة وجّهها إلى الفقيه القاضي أبي الفضل بن جماعة.	310–309
26 جمادى 2	– كتب الشّاعر قصيدة إلى ابن جماعة اختبارًا لقريحته.	310
3 رجب	– أجاب الشّاعرُ الفقيهَ ابنَ جماعة على أبيات كتبها إليه.	312

9 رجب	– كتب الشاعر قصيدة إلى أبي العبّاس الحسني، هنّأه فيها على مولود وُلِد له.	292–291
أوّل شوّال	– ارتجل ابن فركون قصيدة في النسيب والغزل.	256–255
	811	
أوّل محرّم	– نظم الشاعر قصيدة في مدح الملك.	112–110
17 صفر	– أمَرَ الملكُ الشاعرَ ابن فَركون، بنظم أبيات ترسم في حاشية قناع.	267
ربيع 2	– أمَرَ الملكُ للشاعر ابن فَركون، بتنفيذ القراءة بحضرته العليّة وسائر البلاد النّصريّة، وقد أبطأ الظّهير الكريم بذلك في العلامة.	125–124
8 ربيع 2	– وجّه الملك أبياتًا إلى ابن فركون، فنظم قصيدة على رويّها وعروضها.	152
29 ربيع 1	– وجّه ابن فُركون قصيدة تهنئة إلى الملك، عند عودته من وجهته إلى قرية وادي «مُنتزَهَا»، وضمّنها على وعد سبق حسبما يظهر منها.	114–112
20 ربيع	– وجّه الملكُ إلى ابن فركون الظّهيرَ الكريم، فقال قصيدة يشكر فيها نعمته.	127–126
5 رجب	– قال الشّاعر مُخمّسًا أبياتًا من قصيدة لابن الخطيب.	236
شعبان	– صدرت عن ابن فركون قصيدة، وقد احتلّ ركاب الملك بمالقة برسم عرض جندها.. وأمَرَ بإراقة الخمور، وتغيير المنكر، وإذاعة أفعال البرّ.	120
آخر شعبان	– رفع ابن فُركون تهنئة إلى الملك، بمناسبة عودته من مالقة إلى غرناطة.	123–122

الشهر	الحدث	الصفحة
	– أجاب ابنَ فركون ابن البنّاء بقصيدة يتلوها شيء من النثر، لم يقع للبدء في ذلك الوقت.	306
شوّال	– نظم ابنُ فركون أوّل عيديّة، هنّأ فيها الملك بعيد الفطر، من غير إنشاد.	190
ذو الحجّة	– نظم الشاعر عيديّة، هنّأ الملك فيها بعيد الأضحى.	193
ذو الحجّة	– نظم الوزير أبو بكر بن عاصم عيديّة، هنّأ الملكَ فيها بعيد الأضحى.	
	812	
آخر محرّم	– ارتجل الشاعر قصيدة بسقيفة الكُتّاب ساعة الإخبار بولادة بِكر أولاد الملك، الذي استأثر الله به ثاني يوم من عقيقته، وكان من بنت القائد المعظّم المرحوم أبي يزيد خالد، مولى نعمتهم الكريمة.	128
6 صفر	– ارتجل الشاعر قصيدة إثر وفاة والدة هذا المولود، وقد لحق بها.	132
24 ربيع 2	– استدعى الملك ابنَ فركون إليه، وهي أوّل مرّة يشافهه بالحديث، وأمره بنظم قصيدة يوطّئ تخلّصها عن بيتين...	149–147
25 ربيع 2	– وجّه الملك لابن فركون كسوة من حرير، فقال قصيدة يشكر فيها نعمته.	150–149
22 جمادى 1	– وصلت الشاعرَ من الملك أبيات.	247

22 جمادى 2	– احتلّ ركاب الملك بظاهر حصن المُنكّب برسم البناء في الزيادة بنصبه، وأمر أهل الحضرة بالوصول إليها، وكان الشاعر قد تخلّف عنه لعذر، فكتب إليه الملك بخطّ يده من نظمه أبياتًا، فرحل ابن فُركون إليه، ونظم الجواب في أثناء الطّريق.	141–139
8 رجب	– هنّأ ابن فركون الملك بولادة بنت على أثر وفاة مولود له.	138–137
16 رجب	– استدعى الملكُ ابنَ فُركون إلى بين يديه، وأمره بنظم أبيات في القناع، على أن تكون عشرة أبيات، مختومة بعجز البيت المشهور: «وسائقُ الثُّريّا في مُلاءته الفجرُ».	268
شوّال	– أوّل يوم أجلس فيه الملك الشّاعرَ بين يديه، فمدحه ببديهة.	152–150
	– هنّأ ابن فركون الملكَ بعيد الفطر، وقد وصل الشّهيد الأمير أبو الحسن شقيق الملك بالجيش من غزوة شُقورة.	195
14 ذي الحجّة	– دَخلَ المسلمون من أهل رُنْدة حصن الصّخرة، واستأصلوا من وجدوا فيه، قتلاً وإسارًا، إلاّ قليلاً.	156
ذو الحجّة	– هنّأ ابن فركون الملكَ بعيد الأضحى ببديهة.	197
	813	
12 مُحرّم	– كتب ابن فُركون أبياتًا إلى الملك، قصد منها «الشّفاعة والانبساط».	241
22 جمادى 1	– ارتجل ابنُ فركون قصيدةً لزوميّة، في مدح الملك.	159

3 شعبان	– صدرت عن ابن فُركون قصيدة في هناء الملك «بحلول ركابه العليّ بظاهر مالقة، بإثر مُخالفة المارقين من أهل جبل الفتح، وهي السّفرة التي أجاز فيها السّلطان السّعيد إلى المغرب».	161
12 شعبان	– كتب أبو المعالي إلى ابن فُركون في شأن الزّيارة وتجديد المودّة.	289
آخر رمضان	– وردت الأخبار بحلول سفن الملك بساحل المغرب، ونزول السّلطان السّعيد برّ العدوة بالفرسان والرّماة.	163
شوّال	– هنّأ ابن فركون الملكَ بعيديّة، وقد احتلّ ركابه بمالقة.	198
19 ذي القعدة	– نظم ابن فُركون قصيدة، «والرّكاب العليّ اليوسفيّ، أسماه الله، بظاهر جبل الفتح، عصمه الله، في السّفرة الأولى، وقد وصل البشير بدخول السّعيد مدينة تازة، وانتظام الجهات في طاعته».	164
17 ذي القعدة	– ارتجل ابن فُركون قصيدة، «وقد عادت الأجفان المنصورة من فتح طنجة، وحصول ولد السّعيد في قصبتها».	166
ذو الحجّة	– هنّأ ابن فُركون الملكَ بعيد الأضحى بعيديّة، في ظاهر جبل الفتح، عند محاصرته والأخذ بمخنّقه برًّا وبحرًا، والتّضييق على الجيش المغربيّ النازل بإزائه.	201

814

مُحرّم	– أمر الملكُ ابن فُركون بنظم أبيات في الغزل.	260
16 صفر	– هنّأ ابن فُركون الملكَ بإبلاله من ألم، وهو بمالقة.	170
ربيع I	– هنّأ ابن فركون الملكَ بولادة النّجل الأمير أبي الحسن أصغر ولده، وقد وصل إليه خبر ولادته، وهو في مالقة.	174

9 رجب	– ابتدع الملك أقداحًا حمرًا تتخلّل بعضًا منها زرقة وبعضها بياضًا، وكلّ ذلك من نوع المذهب المالقيّ، فقال الشّاعر أبياتًا لتنقش عليها.	279
15 شعبان	– العودة من السّفرة من مالقة إلى غرناطة.	176
شوّال	– أنشد ابن فُركون الملكَ عيديّةً بالقبّة من مشوره السّعيد، وهي أوّل عيديّة أنشدها بين يدي الملك بعد ولايته كتابة السرّ.	204
3 ذي القعدة	– أمر الملكُ ابنَ فركون بنظم قطعات تُكتب في قوس، اتّخذت لمقامه الكريم.	278
16 ذي القعدة	– صدرت عن الشّاعر منظومات كثيرة، «في الوجهة الثّانية إلى حصار جبل الفتح، عصمه الله، عند خلاف أهله».	167
ذو الحجّة	– أنشد ابن فُركون الملكَ عيديّة «بالمحلّة من ظاهر جبل الفتح عصمه الله في السّفرة الثّانية إليه في مجتمع هائل، يقصر عن وصفه قول القائل».	207
	815	
11 صفر	– كتب ابن فركون أبياتًا في ظاهر جبل الفتح.	259
28 ربيع 1	– شرع الملك في تجديد القبّتين الرّائقتي الشّكل، خلف الدّار الكبرى، وإحياء رسمهما، فأمر ابن فُركون بنظم أبيات، كُتبت دائرة في إحداهما.	276
2 جمادى 2	– قال ابن فُركون أبياتًا في وصف عشيّة، في المنزل من «ذُنْلُه»، خارج الحضرة.	254

2 شعبان	– شرع الملك في إعلاء المبنى الماثل على باب الدّار الكبيرة، فأمر ابنَ فُركون بنظم أبيات تُكتب دائرةً في الطّبقة الثّانية، فقال قصيدة «حسبما اقترحه معنًى وقافيةً وعروضًا وعددَ أبيات».	271
شعبان	– أمرَ الملكُ ابنَ فُركون كذلك، بمنظوم يُكتب في طبقات الطّبقة العليا، من هذا المبنى، فحذا «حذو الأمر الكريم في ذلك، غرضًا وعروضًا، وقافيةً وعددَ أبيات».	272
10 رمضان	– وجّه الملك إلى ابن فُركون روميّة سُرّيّة وركابه بمالقة، وكتب إليه أبياتًا قبل وصولها بساعة.	239
شوّال	– لمّا أطلّ عيدُ الفطر أنشد ابنُ فُركون المَلكَ عيديّة، وهو برياض السّيّد من خارج مالقة، «وقد تدارك الله الوجود برحمته، واسترسلت الأمطار بعد حلول ركابه العليّ بها، إثر قحط أصابها، وجهد عظيم رابها»، وألمّ في قصيدته بذكر هزيمة، انجرّت على السّلطان السّعيد بظاهر فاس.	210
22 ذي القعدة	– وصل الشّاعرَ خبرُ ولادة وَلَدِه يوسف، وهو برفقة الملك بظاهر جبل الفتح في السّفرة الثّانية، فأعلم الملكَ بذلك، «فسمّاه باسمه الشّريف، ووهب ما يقصر عنه لسان الإعلام والتّعريف».	242–241
ذو الحجّة	– أنشد ابنُ فُركون المَلكَ عيديّة، إثر الهرج الواقع بالحضرة من أهل ربض البيازين، وسواهم ممّن تبعهم، وألمّ فيها بذكر الصّلح الذي رغب السّلطان أبو سعيد بن يوسف، في عقده بينه وبين السّلطان السّعيد، على قسمة البلاد الغربيّة بينهما.	213

816		
258	– ارتجل ابنُ فُركون أبياتًا بأمر الملك، بعد بيت من نظمه.	16 جمادى 1
281	– أقرّ الملكُ ابن فركون «بنظم مقطوعاتٍ، تُكتب في طيفان تحكيه بالجصّ، غير مُفتّحة».	2 رمضان
216	– نظم ابن فُركون عيديّة، يهنّئ فيها الملك، ولم ينشدها «بسبب ثبوت الشّهر أثناء اليوم، لتجهّم المَرقَب وتكاثف السّحاب فيه، فاقتصر على الصّلاة آخر الوقت، ممّا جرت به العادة لعدم الاستعداد والتأهّب».	1 شوّال
220	– أنشد ابنُ فُركون الملكَ عيديّةً، «بالمشور السّعيد من حمرائه العليّة، وقد ورد على بابه الكريم جملةٌ وافرة من أكابر بني مَرين وسواهم من القبائل، بعد الحادثة على السّلطان السّعيد، لائذين بعزّ جنابه متمسّكين بأوثق أسبابه، فأولاهم أيّده الله مواهب أنْعُمه، وآواهم ووفّر نُزُلَهم عند وفادتهم، وكرّم مثواهم، فاطمأنّت بهم الدّار وقرّ بحضرته القرار».	ذو الحجّة
817		
242	– كتب الشّاعر إلى الملك أبياتًا، أعلمه فيها بولادة ولده أبي الطّاهر، «فسمّاه أيّده الله، ووهبه مثل أخيه، شكَرَ اللهُ نعمته، وأبقى عنايته وحُرمته».	2 صفر
242	– وفي يوم سابع المولود أبي الطّاهر، وجّهه أبوه ابن فُركون إلى الملك على العادة، وكتب معه ثلاثة أبيات.	صفر

التاريخ	الحدث	الصفحة
16 جمادى I	– قال ابن فركون قصيدة هنّأ فيها الملك «عند وصول البشير من السّيّد الأمير أبي الحسن، وصل الله عزّه، بدخوله جبل الفتح، عصمه الله».	180
24 جمادى I	– ولمّا حصل جبل الفتح في الإيالة النّاصريّة رحل الملك إليه، والشّاعر معه مع بعض الكتّاب فلمّا كانوا يسيرون في المرحلة بين سُهيل وفريلة في ليلة الجمعة، وقد ألقت النّجوم على البحر أشعّة أنوارها، وأبقت قطع السّحب حواليها تخيّلاً من آثارها، وطلبوا إلى الشّاعر وصف ذلك، فارتجل مُقطّعات، حفظها عنه الفقيه الكاتب أبو عليّ عمر بن عمر، ومنه قيّدها الشّاعر في الدّيوان بعد ذلك، «وكلّها من غير رَويّة ولا رويّة».	282
26 جمادى I	– عندما حلّ ركاب الملك بجبل الفتح، قال الشّاعر قصيدة وصف فيها الحال.	183
شوّال	– أنشد ابن فركون الملك عيديّة «مُهنّئاً مقامه الكريم أيّده الله، والرّكاب العليّ قريب العهد بالإياب من فتح جبل الفتح، لقّنه الله».	225
ذو الحجّة	– هنّأ ابنُ فركون الملكَ بعيديّة.	228
	818	
ربيع I	– نظم ابنُ فركون قصيدةً في هناء الملك، «وقد احتلّ ركابه بقصر نبلة خارج حضرته، آيبًا من وجهته الأولى إلى التّنكّب وشلوبانية».	328

جمادى1	– «ولمّا ظهرت العمرة البرطقالية بحر الزّقاق، وأقامت أيامًا بمرسى الجزيرة، ثم كان بعد ذلك استيلاؤها على سَبتة، أعادها الله، عاق الملك «عن الخروج بنفسه لقصد مدافعتها، مرض شديد فتحت من جسمه مواضع بالحديد، بعد أيام كثيرة»، فقال ابن فُركون في ذلك قصيدة.	331
10رجب	– ولمّا استقلّ الملك من مرضه تمكّنت راحته قال ابن فُركون قصيدة في هنائه.	334
30رجب	– ارتجل ابن فُركون قصيدة هنّأ فيها الملك بولادة ابنه عبد الله، «الذي استأثر الله به بعد ذلك بيسير، زمن الوباء».	337
2شعبان	– وجّه الملك إلى شاعره ابن فُركون بيتين.	356
شعبان	– في العشر الأواخر من شهر شعبان عقد يوسف البيعة لوليّ عهده ومتولّي الأمر من بعده على الخاصّة والعامّة. واستدعى لذلك أكابر أهل البلاد النّصريّة، وآثرهم برفيع الثّياب وفاخر الكُسا، ونظم خُدّام بابه من الشعراء في ذلك قصائد، فأنشد ابن فُركون بقبّة الرّياض قصيدة أُعجب بها الملك.	338
شوّال	– أنشد ابن فُركون الملك عيديّة.	362
موسم الحجّ	– نظم ابن فُركون قصيدة في الجناب النّبويّ الكريم، وقد أظلّ موسم الحجّ.	322

ذو الحجّة	– أنشد ابن فُركون الملكَ عيديّة بالقصر المُسمّى بالمُحدث في مالقة «وقد استدعى فقهاءها وجندها وأشياخها، لإقامة ما جرت به العادة في حضرته من البيعة والإطعام واحتفل بذلك».	366
819		
آخر صفر	– «ورد الخبر على الحضرة بوفاة طاغية رغون، المُلقّب بالإِنْفَنْت عمّ صاحب قشتالة ووصيّه، وهو المتغلّب قبْلُ على معقل أُنْتقيرة والصّخرة وغيرهما، من حصون الغربيّة»، فقال ابن فُركون يهنّئ الملكَ بذلك.	345
جمادى2	– كبا بالملك فرس وركابه العليّ مقيم بِوَلْنَر من سفح جبل شُلير، فارتجل ابن فُركون قصيدةً، هنّأه فيها بالسّلامة.	352
14 جمادى2	– أمَرَ الملك شاعرَه ابن فُركون، بنظم أبيات تُكتب على لَحْدِ الأمير عليّ معزّ الدّولة، «ثمّ ظهر له أن يكتب غيرها على لسانه»، وكانت وفاته في ليلة الأحد، الرّابع عشر من جمادى الثّانية.	361
15 شعبان	– عاد رِكاب الملك يوسف من مالقة، واستقلّ بقصر نُبله متلوّمًا به أيّامًا للرّاحة والصّيد، وكان قد أمر جند حضرته، بتلقّي وليّ عهده وإيصاله إلى الحمراء.	349
رمضان	– اشتدّ بالملك المرض الذي قضى عليه، وقد شرع في حركة توجيه السّلطان أبي يوسف يعقوب.	379
شوّال	– أنشد ابن فُركون الملكَ عيديّةً، بقبّة مشْوَره يوم عيد الفطر، وقد تحرّك السّلطان أبو عليّ من مراكش، لمحاربة أخيه السّلطان أبي سعيد صاحب فاس، وانتصر كلاهما به.	370

حجّة	– أنشد ابن فُركون الملك عيديّة، وقد وصل العبّاس بن عمران وولد اللّيابيّ من قبل السّلطان أبي سعيد مستنصرًا به على أخيه أبي عليّ المتوفّى في أثناء إقامتهما بالحضرة قليلاً، بعد هزيمة انجزت عليه بظاهر فاس، وقُبض عليه بعد ذلك وسيق لمصرعه بين يدي أخيه. وكانت هذه العيديّة آخر ما أنشده ابن فُركون بين يدي الملك بلفظه، «وتضمّنت وصف الشّيّز وعرض جنده قبل العيد، وما تظاهر به من السّلاح والخيول والعُدد، التي لم تقدم العهد بمثلها».	375-374
	820	
مُحرّم	– كتب الملك لابن فُركون بيتَ شعر على سبيل الانبساط، وأمره بالتّذييل.	353
7رجب	– وُلد للشّاعر ولده أحمد، فكتب إلى الملك يعلمه بذلك.	386
رجب	– أعمل الملك ركابه إلى قصر نُبله، وكان الشّاعر في صحبته على العادة، ثمّ تشاغل يوم عقيقة مولود الشّاعر عن تسميته، بحادث توجيه الوزير أبي عبد الله القبائليّ إلى المغرب، فتوهّم ابن فركون أنّ ذلك لسببٍ، فكتب إلى الملك أبياتًا، فسمّاه الملك «ووهبه ما جرت به عادته، لمن تقدّم من إخوته».	387
26شوّال	– أنشد ابن فركون قصيدة، سافر والده بعدها إلى موضع قضائه، وبالقرب من وفاة مولود توفّي لوالده.	384

عيد	– أُسرِيَ بتابوت الملك يوسف الثّالث، والوصول إلى الحضرة ضحى يوم العيد، دون أن يشعر أحد من أهل البلد، لاشتغالهم بصلاة العيد، حتّى استقرّ الجميع بالحمراء، والشّروع في بيعة وليّ العهد ومواراة المولى المُنعم، وفي أوّل يوم أُجلس وليّ العهد بقبّة المشور، حيث جرت عادة السّلام، قام ابن فُركون بين يديه، مُنشدًا قصيدة في هنائه ورثاء الملك. ويحسم قولُ ابن فُركون هذا الخلافَ بين المؤرّخين، حول تحديد تاريخ وفاة يوسف الثّالث، ومَنْ خلَفه في المُلك.	382-381

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

المصادر:

- ابن الأثير الجزريّ، نصر الله بن مُحمّد (637):

1) – الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد، وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ-بغداد، 1375/1956م.

2) – المَثَل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق مُحمّد مُحيي الدّين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، مصر، 1358/1939م، جزآن.

- بشّار بن بُرد (167):

3) – الدّيوان، نشر وتقديم وشرح مُحمّد الطّاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر-القاهرة، 1369/1950م، جزآن.

- أبو تمّام حبيب بن أوس الطّائيّ (231):

4) – ديوان أبي تمّام بشرح الخطيب التّبريزيّ (512)، تحقيق مُحمّد عبده عزّام، دار المعارف-مصر، مج1، ط3، مج2و3و4، ط2، (د.ت).

- التّنبكتي، أحمد بابا (1036):

5) – نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، مطبعة السّعادة-القاهرة، ط1، 1329هـ.

- ابن حَنبل، أحمد (241):

6) – مسند أحمد، شرحه حمزة أحمد الزّين، دار الحديث-القاهرة، ط1، 1416/1995م، 20ج.

- الجاحظ، عمرو بن بحر (255):

7) – البيان والتّبيين، تحقيق وشرح عبد السّلام مُحمّد هارون، دار الجيل-بيروت،

(د.ت)، 4 ج.
8) – كتاب الحيوان، تحقيق عبد السّلام مُحمّد هارون، دار الجيل–بيروت، 1416/1996، 8ج.

– الجُرجانيّ، عبد القاهر بن عبد الرّحمن (471):
9) – أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه محمود مُحمّد شاكر، دار المدنيّ–جدّة، مطبعة المدني–القاهرة، ط1، 1412/1991م.
10) – دلائل الإعجاز، تحقيق وشرح مُحمّد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة–مصر، 1400/1980م.

– جميل بثينة، جميل بن مَعْمَر العُذريّ (82):
11) – ديوان جميل بثينة، شرحه أشرف أحمد عدرة، عالم المكتبات–بيروت، ط1، 1416/1996م.

– حسّان بن ثابت الأنصاريّ (54):
12) – ديوان حسّان بن ثابت، حقّقه وعلّق عليه وليد عرفات، دار صادر–بيروت، 1974م، جزآن.

– ابن الخطيب، لسان الدّين مُحمّد بن عبد الله السّلمانيّ اللّوشيّ (776):
13) – الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق مُحمّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي–القاهرة، ج1، ط2، 1393/1973م، وج2، ط1، 1394/1974م.
14) – أعمال الأعلام فيمَنْ بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، (أو تاريخ إسبانيا الإسلاميّة)، تحقيق إ.ليفي بروفنسال، دار المكشوف– بيروت، ط2، 1956م.
15) – الدّيوان، تحقيق مُحمّد مفتاح، دار الثّقافة– الدّار البيضاء، 1989م، جزآن.
16) – اللّمحة البدريّة في الدّولة النّصريّة، صحّحه ووضع فهارسه محبّ الدّين الخطيب، المطبعة السّلفيّة–القاهرة، ط2، 1347هـ.

- الخطيب التبريزيّ، يحيى بن عليّ (502):
17) – الوافي في العروض والقوافي، تحقيق فخر الدّين قباوة، دار الفكر–دمشق، 1423/2002م.

- ذو الرّمّة غيلان بن عقبة العدويّ (117):
18) – ديوان ذي الرّمّة، شرح أحمد ابن حاتم الباهلي، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه عبد القدّوس أبو صالح، مؤسّسة الإيمان–بيروت، ط1، 1402/1981م، 3 أجزاء.

- ابن رشيق القيروانيّ، الحسن (456):
19) – العُمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق مُحمّد قرقزان، دار المعرفة–بيروت، ط1، 1408/1988م، جزآن.

- ابن زمرك، مُحمّد بن يوسف الصّريحيّ (796):
20) – ديوان ابن زمرك، جمعه وقدّم له وفهرسَهُ أحمد سليم الحمصي، المكتبة العصريّة–صيدا، بيروت، ط1، 1418/1998م.

- ابن السّرّاج الشّنتريني، مُحمّد بن عبد الملك (549 أو550):
21) – المعيار في أوزان الأشعار والكافي في علم القوافي، تحقيق مُحمّد رضوان الدّاية، دار الأنوار–بيروت، ط1، 1388/1968م.

- صريع الغواني مُسلم بن الوليد الأنصاريّ (208):
22) – شرح ديوان صريع الغواني، رواه وشرحه أبو العبّاس وليد بن عيسى الطّيخيّ الأندلسيّ (352)، حقّقه وعلّق عليه سامي الدّهّان، دار المعارف–مصر، (د.ت).

- ابن فرحون المالكيّ، إبراهيم بن عليّ (799):
23) – الدّيباج المُذهب في معرفة أعيان علماء المَذهب، تحقيق وتعليق مُحمّد الأحمدي أبو النّور، دار التراث–القاهرة، جزآن.

- ابن فُركون، أبو الحُسين (ق9):
24) – ديوان ابن فُركون، تحقيق مُحمّد بن شريفة، أكاديميّة المملكة المغربيّة–الرّباط، 1407/1987م.
25) – مظهر النّور الباصر، تحقيق مُحمّد بن شريفة، مطبعة الصّباح الجديدة–الدّار البيضاء، 1991م.
- ابن قتيبة الدّينوريّ، عبد الله بن مُسلم (276):
26) – الشّعر والشّعراء (أو طبقات الشّعراء)، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة–بيروت، ط2، 1405/1985م.
- قُدامة بن جعفر، (337):
27) – نقد الشّعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي–القاهرة، ط3، 1398/1978م.
- القيسيّ، عبد الكريم (ق9):
28) – ديوان عبد الكريم القيسيّ، تحقيق جمعة شيخة وعبد الهادي الطّرابلسيّ، المؤسّسة الوطنيّة للتّرجمة والتّحقيق والدّراسات «بيت الحكمة»–تونس، 1988م.
- الكَلاعيّ الإشبيليّ، مُحمّد بن عبد الغفور (ق 6):
29) – إحكام صنعة الكلام، تحقيق مُحمّد رضوان الدّاية، دار الثّقافة– بيروت، 1966م.
- مؤلّف مجهول:
30) – أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق حسين مؤنس، الزّهراء للإعلام العربيّ–القاهرة، ط1، 1412/1991م.
- المُتنبّي، أحمد بن الحُسين (354):
31) – ديوان أبي الطّيّب المُتنبّي بشرح أبي البقاء العكبريّ (616) المُسمّى بالتّبيان في شرح الدّيوان، ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه مصطفى السّقّا وإبراهيم الأبياريّ وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة–بيروت، (د.ت)، 4 أجزاء.

- المعرّي، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان (449):
32) – ديوان سقط الزّند، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له عمر فاروق الطّبّاع، شركة دار الأرقم- بيروت، ط1، 1418/1998م.

- مجنون ليلى، قيس بن المُلوّح (68):
33) – ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق وشرح عبد السّتّار أحمد فرّاج، مكتبة مصر، دار مصر للطّباعة-القاهرة، (د.ت).

- المقّريّ التلمساني، أحمد بن مُحمّد (1041):
34) – أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض، ضبطه وحقّقه وعلّق عليه مصطفى السّقّا، إبراهيم الأبياريّ، عبد الحفيظ شلبي، المعهد الخليفيّ للأبحاث المغربيّة- تطوان، وصندوق إحياء التّراث الإسلاميّ-الرّباط، 78-1980م، 5مج.
35) – نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر-بيروت، 1408/1988م، 8 أجزاء.

- الميداني، أحمد بن مُحمّد (518):
36) – مجمع الأمثال، تحقيق مُحمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط3، 1393/1972م، جزآن.

- النّابغة الذّبيانيّ، زياد بن معاوية (18 قبل هـ):
37) – ديوان النّابغة الذّبيانيّ، صنعة ابن السّكّيت (يعقوب بن إسحاق ت244)، تحقيق شكري فيصل، دار الفكر-بيروت، 1968م.

- النّاصريّ، أحمد بن خالد (1315):
38) – الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومُحمّد النّاصريّ، دار الكتاب-الدّار البيضاء، 1954م، 9 أجزاء.

- النّسائيّ، أحمد بن شُعيب (302):
39) – سُنن النّسائيّ، تحقيق مكتب تحقيق التّراث الإسلاميّ، دار المعرفة-بيروت، ط4،

1997/1418م، 9ج.

- أبو نواس، الحسن بن هانئ (198):

40) – شرح ديوان أبي نواس، ضبط معانيه وشروحه إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللّبنانيّ–بيروت، ط1، 1983م، جزآن.

- أبو هلال العسكريّ، الحسن بن عبد الله (395):

41) – كتاب الصّناعتين (الكتابة والشّعر)، تحقيق مُحمّد عليّ البجاوي، ومُحمّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ وشركاه–القاهرة، (د.ت).

- يوسف الثّالث، يوسف بن يوسف بن الأحمر (820):

42) – ديوان ملك غرناطة: يوسف الثّالث، تحقيق عبد الله كنّون، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1958م.

المراجع:

- أبو حسين، مُحمّد صبحي:

43) – صورة المرأة في الشّعر الأندلسيّ في عصر الطّوائف والمرابطين، عالم الكتب الحديث–إربد، ط2، 2005/1426م.

- أبو الخشب، إبراهيم عليّ:

44) – تاريخ الأدب العربيّ في الأندلس، دار الفكر العربيّ–القاهرة، 1970م.

- أنيس، إبراهيم:

45) – موسيقى الشّعر، دار القلم–بيروت، ط4، 1972م.

- بالنثيا، آنخل جُنثالث:

46) – تاريخ الفكر الأندلسيّ، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1955م.

- باشا، ضيا:
47) - الأندلس الذّاهبة، تعريب عبد الرّحمن ارشيدات، مراجعة وتحقيق صلاح ارشيدات، منشورات وزارة الثّقافة والإعلام-عمّان، 1989م، 3ج.

- بدر، أحمد:
48) - تاريخ الأندلس، التّجزؤ-السّيادة المغربيّة-السّقوط والتّأثير الحضاريّ، مكتبة أطلس-دمشق، 1983م، 3ج.

- البدويّ، أحمد أحمد:
49) - أسس النّقد الأدبيّ عند العرب، دار نهضة مصر-القاهرة، 1979م.

- بدوي، عبده:
50) - دراسات في النّصّ الشّعريّ (العصر العبّاسيّ)، دار قباء-القاهرة، 2000م.

- بدوي، مُحمّد مصطفى:
51) - كولردج، دار المعارف-القاهرة، (د.ت).

- بكّار، يوسف حسين:
52) - بناء القصيدة العربيّة في النّقد العربيّ القديم في ضوء النّقد الحديث، دار الأندلس-بيروت، ط2، 1982م.

- البهبيتي، نجيب مُحمّد:
53) - تاريخ الشّعر العربيّ حتّى أواخر القرن الثّالث الهجريّ، دار الفكر- بيروت، ط4، 1970م.

- بهنام، هدى شوكت:
54) - مقدّمة القصيدة العربيّة في الشّعر الأندلسيّ: دراسة موضوعيّة فنّيّة، مكتبة الطّليعة-الشّارقة، 2000م.

- البيومي، مُحمّد رجب:
55) - الأدب الأندلسيّ بين التّأثر والتّأثير، جامعة الإمام مُحمّد بن سعود-الرّياض، 1980م.

- الجبار، مدحت سعد مُحمّد:
56) - الصّورة الشّعريّة عند أبي القاسم الشّابي، الدّار العربيّة للكتاب-ليبيا، 1984م.

- جرّار، صلاح:
57) - ديوان الحمراء، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر-بيروت، ط1، 1999م.

- الحجّي، عبد الرّحمن علي:
58) - التّاريخ الأندلسيّ من الفتح حتّى سقوط غرناطة، دار القلم-دمشق، ط5، 1418/1997م.

- الحسيني، قاسم:
59) - الشّعر الأندلسيّ في القرن التّاسع الهجريّ موضوعاته وخصائصه، الدّار العالميّة للكتاب-الدّار البيضاء، الدّار العالميّة-بيروت، ط1، 1986م.

- حنفي، عبد الحليم:
60) - مطلع القصيدة العربية ودلالته النّفسيّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب-القاهرة، 1987م.

- حمّادة، مُحمّد ماهر:
61) - الوثائق السّياسيّة والإداريّة في الأندلس وشمالي إفريقية 64-897/683-1492م، منشورات مؤسّسة الرّسالة-بيروت، ط1، 1400/1980م.

- الحمصي، أحمد سليم:
62) - ابن زمرك الغرناطيّ سيرته وأدبه، مؤسّسة الرّسالة-بيروت، دار الإيمان-طرابلس، ط1، 1405/1985م.

- حميدة، عبد الرحمن:
63) – قضايا أندلسيّة، دار المعرفة–القاهرة، ط1، 1964م.

- خفاجي، محمّد عبد المنعم:
64) – الأدب الأندلسيّ: التطور والتجديد، دار الجيل–بيروت، 1992م.

- خليل، أحمد محمود:
65) – في النّقد الجماليّ: رؤية في الشّعر الجاهليّ، دار الفكر–دمشق، دار الفكر المعاصر–بيروت، ط1، 1996/1417م.

- الدّاية، محمّد رضوان:
66) – الأدب العربيّ في الأندلس والمغرب، مطبعة جامعة دمشق، 1984م.
في الأدب الأندلسيّ، دار الفكر – دمشق، ط1، 2000م.

- الدّقاق، عمر:
67) – ملامح الشّعر الأندلسيّ، منشورات دار الشّروق–بيروت.

- الدّوسري، أحمد ثاني:
68) – الحياة الاجتماعيّة في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر، المجمع الثّقافيّ–أبو ظبي، 2004/1425م.

- دياب، عليّ:
69) – في الشّعر العربيّ الأندلسيّ والمغربيّ، منشورات جامعة دمشق، 1996/1417م.

- دياب، محمّد الشّافعيّ:
70) – الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء–القاهرة، ط1، 1998م.

- الرّكابي، جودت:
71) – في الأدب الأندلسيّ، دار المعارف–القاهرة، ط3، 1970م.

- روبيرا مِتي، ماريا خيسوس:
72) – الأدب الأندلسيّ، ترجمة أشرف عليّ دعدور، المجلس الأعلى للثقافة–القاهرة، 1999م.

- زعرور، إبراهيم محمود، وأحمد، عليّ سليمان:
73) – اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، دار المستقبل–دمشق، ط1، 1999م.

- سماكة، باقر:
74) – التجديد في الأدب الأندلسيّ، مطبعة الإيمان–بغداد، ط1، 1971م.

- ابن شريفة، مُحمَّد:
75) – البسطيّ آخر شعراء الأندلس، دار الغرب الإسلاميّ–بيروت، ط1، 1985م.
76) – أبو تمام وأبو الطيب المتنبي في أدب المغاربة، دار الغرب الإسلاميّ–بيروت، ط1، 1986م.

- الشَّطشاط، عليّ حسين:
77) – نهاية الوجود العربيّ في الأندلس، دار قباء–القاهرة، 2001م.

- الشّكعة، مصطفى:
78) – الأدب الأندلسيّ: موضوعاته، وفنونه، دار العلم للملايين–بيروت، ط5، 1983م.

- شلبي، سعد إسماعيل:
79) – الأصول الفنيّة للشّعر الأندلسيّ، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر – الفجالة، مصر، (د.ت).

- الشّيخ، أحمد مُحمَّد:
80) – البحور القصار في العروض العربيّ، منشورات جامعة السّابع من أبريل، 1402/1993م.

- شيخ أمين، بكري:
81) – البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد، علم البلاغة، دار العلم للملايين–بيروت، ط4، 1998م.

- صالح، بشرى موسى:
82) – الصّورة الشّعريّة في النّقد العربيّ الحديث، المركز الثّقافيّ العربيّ– بيروت، ط1، 1994م.

- طبانة، بدوي:
83) – التّيارات المعاصرة في النّقد الأدبيّ، دار الثقافة–بيروت، 1985/1405م، ص156.

- الطّوخي، أحمد محمّد:
84) – مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسّسة شباب الجامعة–الإسكندريّة، 1997م.

- الطّيّب، عبد الله:
85) – المُرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار جامعة الخرطوم للنّشر–الخرطوم، ط4، 1991م، 4 أجزاء.

- ضيف، شوقي:
86) – الرّثاء، فنون الأدب العربيّ، الفنّ الغنائيّ (2)، دار المعارف–القاهرة، 1979م.
87) – عصر الدّول والإمارات، الأندلس، دار المعارف–مصر، (د.ت).
88) – الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربيّ، دار المعارف–مصر، ط9، (د.ت).

- العبادي، أحمد مختار:
89) – دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسّسة شباب الجامعة–الإسكندريّة، 1989م.

- عبّاس، إحسان:
90) – تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر سيادة قرطبة، دار الثّقافة–بيروت، 1969م.
91) – فنّ الشّعر، دار الثّقافة–بيروت، (د.ت).

- عبد البديع، لطفي:
92) – التّركيب اللّغوي للأدب (بحث في فلسفة اللّغة والاستطيقا)، دار المريخ–الرّياض، 1989م.

- عتيق، عبد العزيز:
93) – الأدب العربيّ في الأندلس، دار النّهضة العربيّة–بيروت، 1976م.

- عصفور، جابر:
94) – الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقدي والبلاغيّ عند العرب، المركز الثّقافيّ العربيّ–بيروت، ط3، 1992م.

- عطوان، حسين:
95) – مقدّمة القصيدة العربيّة في الشّعر الجاهليّ، دار المعارف–مصر، ط1، 1970م.
96) – مقدّمة القصيدة العربيّة في صدر الإسلام، دار الجيل–بيروت، 1987م.

- عليّ، سيّد أمير:
97) – مُختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربيّة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين–بيروت، ط4، 1981م.

- عنان، مُحمّد عبد الله:
98) – الآثار الأندلسيّة الباقية في إسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخيّة أثريّة، مطبعة مصر–القاهرة، ط1، 1375/1956م.
99) – نهاية الأندلس وتاريخ العرب المُتنصّرين، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر–القاهرة، ط3، 1386/1966م.

- عيد، رجاء:
100) – التّجديد الموسيقيّ في الشّعر العربيّ، منشأة المعارف–الإسكندريّة، (د.ت).
- عيسى، محمّد عبد الحميد:
101) – تاريخ التّعليم في الأندلس، دار الفكر العربيّ–القاهرة، ط1، 1982م.
- عيسى، فوزي:
102) – الهجاء في الأدب الأندلسيّ، دار المعارف–مصر، 1982م.
- غازي، سيّد:
103) – في أصول التّوشيح، دار المعارف–مصر، ط2، 1976م.
- غومس، غارسيا:
104) – الشّعر الأندلسيّ، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، 1956م
- فاخوري، محمود:
105) – موسيقا الشّعر العربيّ، مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة–جامعة حلب، 1401/1981م.
- فرحات، يوسف شكري:
106) – غرناطة في ظلّ بني الأحمر، دراسة حضاريّة، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع–بيروت، ط1، 1402/1982م.
- فون شاك، آدولف فريدريش:
107) – الفنّ العربيّ في إسبانيا وصقلّية، ترجمة الطّاهر أحمد مكّي، دار المعارف–القاهرة، 1980م.
- فيود، بسيوني عبد الفتّاح:
108) – علم البديع، دراسة تاريخيّة وفنّيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع، مؤسّسة المختار–القاهرة، ودار المعالم الثّقافيّة–الأحساء، ط2، 1418/1998م.

- القاضي، النّعمان:
109) – أبو فراس الحمدانيّ، الموقف والتّشكيل الجماليّ، دار الثّقافة– بيروت، 1982م.
- قصيبجي، عصام:
110) – لسان الدّين بن الخطيب، حياته وفكْره وشعره، جامعة حلب، 1994م.
- القطّ، عبد القادر:
111) – الاتّجاه الوجدانيّ في الشّعر العربيّ المُعاصر، دار النّهضة العربيّة–بيروت، ط2، 1964م.
- كروتشه، بنديتو:
112) – المُجمل في فلسفة الفنّ، ترجمة سامي الدّروبي، مطبعة الأوابد–دمشق، ط2، 1964م.
- لين-بول، ستانلي:
113) – قصّة العرب في إسبانيا، ترجمة عليّ الجارم، دار المعارف–مصر، 1947م.
- مؤنس، حسين:
114) – تاريخ المغرب وحضارته من قُبيل الفتح الإسلاميّ إلى الغزو الفرنسيّ، العصر الحديث للنّشر والتّوزيع–بيروت، ط1، 1412/1992م، 3ج.
- المرعي، فؤاد:
115) – الوعي الجماليّ عند العرب قبل الإسلام، الأبجديّة للنّشر–دمشق، ط1، 1989م.
- الملاّ، مُحمّد عثمان:
116) – الإخوانيّات في الشّعر العبّاسيّ، نادي المنطقة الشّرقيّة الأدبيّ–الدّمّام، 1412/1992م.
- ناصف، مصطفى:
117) – الصّورة الأدبيّة، دار الأندلس–بيروت، ط3، 1983م.

- نافع، عبد الفتاح صالح:

118) - عضوية الموسيقى في النّص الشّعري، مكتبة المنار-الزّرقاء، ط1، 1405/1985م.

- النّقراط، محمد عليّ:

119) - ابن الجيّاب الغرناطي: حياته وشعره، الدّار الجماهيريّة للنّشر والتّوزيع والإعلان-ليبيا، ط1، 1984م.

- هبّو، أحمد ارحيم:

120) - مدخل إلى اللّغة السّريانيّة، منشورات جامعة تشرين، مطبعة دار الكتاب، 1410-1411/1989-1990م.

- هلال، محمّد غنيمي:

121) - الأدب المقارن، دار الثّقافة-بيروت، ط5، (د.ت).

122) - النّقد الأدبيّ الحديث، دار الثّقافة-بيروت، 1973م.

- الوائلي، رعد ناصر:

123) - الشّعر الأندلسيّ في عهد بني الأحمر صور جهاديّة بطوليّة، مركز عبادي للدّراسات والنّشر-صنعاء، ط1، 1421/2000م.

- يازجي، سراب:

124) - الغزل في الشّعر الأندلسيّ في ظلّ بني الأحمر، شراع للدّراسات والنّشر والتّوزيع-دمشق، ط1، 1995م.

الرّسائل الجامعيّة:

- حجازي، جلال:

125) - ملامح الأصالة والتّقليد في الشّعر الأندلسيّ، أطروحة دكتوراه، جامعة الأزهر، 1974م.

- رجب باشا، جمانة:

126) – الأندلسيّة وأثرها في أدب الأندلس حتّى نهاية عصر المُوحّدين، رسالة ماجستير، جامعة حلب، 1996م.

127) – الشّعر الأندلسيّ بين طريقة العرب ومذهب المُحدَثين، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، 2003/1424م.

- سرميني، مُحمّد وليد:

128) – خصائص الشّعر الأندلسيّ في عصر غرناطة، رسالة ماجستير، جامعة حلب، 1986/1406م.

- فارس، عيسى:

129) – ابن زمرك الأندلسيّ، حياته وأدبه، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، 1987م.

- العوسي، فيروز:

130) – الخمرة في الشّعر الأندلسيّ حتّى نهاية عصر الطّوائف، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1987م.

131) – قصيدة المديح الأندلسيّة بين التّجديد والتّقليد، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، 1992م.

- يازجي، سراب:

132) – ملك غرناطة يوسف الثّالث، حياته وشعره، رسالة ماجستير، جامعة دمشق،1990م.

الدّوريّات:

- خليل، لؤيّ عليّ:

133) – القناطيّة الأندلسيّة (نحو فهم لطبيعة الهويّة الأندلسيّة)، مجلّة الموقف الأدبيّ، اتّحاد الكتّاب العرب–دمشق، العدد 379، أيلول–تشرين الثّاني 2002م/جمادى الأولى–جمادى شعبان 1423هـ.

- العبادي، أحمد مختار:

134) – الإسلام في أرض الأندلس، أثر البيئة الأوربيّة، مجلّة عالم الفكر، عدد2، مجلد10، 1979م.

- الهيب، أحمد فوزي:

135) – المديح النبويّ الأندلسيّ بين لسان الدّين وابن جابر، مجلّة التّراث العربيّ، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، عدد97، سنة 2005/1425م.

الموسوعات والمعجمات:

- شير، إدي:

136) – كتاب الألفاظ الفارسيّة المُعرّبة، دار العرب-القاهرة، ط2، 1987-1988م.

- عبد الرّحمن، عفيف:

137) – معجم الشّعراء الأندلسيّين والمغاربة، المجمع الثّقافيّ-أبو ظبي، 2003م.

- عبد النّور، جبّور، وادريس، سهيل:

138) – قاموس المنهل، فرنسيّ-عربيّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1983م.

- العنيسي، طوبيا:

139) – تفسير الألفاظ الدّخيلة في اللّغة العربيّة مع ذكر أصلها بحروفه، دار العرب-القاهرة، 1964-1965م.

- الفيروزآباديّ، مُحمّد بن يعقوب (718):

140) – القاموس المُحيط، تحقيق مكتب تحقيق التّراث في مؤسّسة الرّسالة، مؤسّسة الرّسالة-بيروت، ط5، 1416/1996م.

- ابن منظور الإفريقيّ، مُحمّد بن مُكرّم (711):

141) – لسان العرب، تصحيح أمين مُحمّد عبد الوهّاب، ومُحمّد الصّادق العبيديّ، دار

إحياء التّراث العربيّ، ومؤسّسة التّاريخ العربيّ -بيروت، ط1، 1996/1416م، 18 ج.

- الوائليّ، عبد الحكيم:

142) - موسوعة شعراء الأندلس، دار أسامة-عمّان، ط1، 2001م.

المراجع الأجنبيّة:

143) - Oxford Wordpower Dictionary، Oxford University Press.

المحتويات

ابنُ فُركُونَ الأَندلسيّ

يقدم هذا الكتاب ملامح من حياة ابن فركون، التي قضاها في غرناطة، وتناول النقاط الآتية، اسمه، ولقبه، ونسبه، وولادته، وأسرته، وصلته بأدباء عصره، ومناصبه، وآثاره، ومكانته، وهي الجوانب الجديدة في هذه الدراسة، والتي اعتمد فيها الباحث على ديوان الشاعر وكتابه (مظهر النور).

وتحدث الباحث عن أغراض شعره بعد أن رتبت تبعاً لأهمية كل غرض، ومدى وقوف الشاعر على كل واحد منها، وعمل على أن يستقلّ كل غرض بدراسة، عرّف في بدايتها بالغرض الشعري، وبيّن مكانته في الشعر الأندلسي والشعر الغرناطي، ثمّ عرض لما قاله الشاعر فيه، وربط بينه وبين معاصريه من شعراء غرناطة، وانتهى بخلاصة ختم بها الحديث عن الغرض، مجملاً النتائج التي وصل إليها. ثمّ درس شعر ابن فركون دراسة فنية، تناول فيها بناء القصيدة، واللغة الشعرية، وموسيقا الشعر، والتقليد والتجديد.

وقد أكدت دراسة أغراض شعر ابن فركون والدراسة الفنية لهذه الأغراض أن الشاعر لم يتخلّف عن ركْب الشعراء في عصره، ولم يكن أقلّ منهم مكانة أدبيّة، بل كان من أبرزهم في الربع الأوّل من القرن التاسع الهجري، وقد وثّق شعرُه هذه المرحلة من حياة غرناطة بأبعادها كافّة

